

البيان القرآني

تاليف

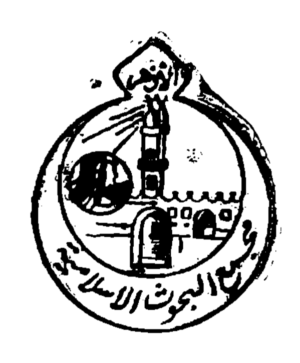
الدكتور محمد رجب البيومي

المدرس بكلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

السنة الثالثة

الكتاب الواحد والثلاثون

سلسلة البحوث الإسلامية



البيان القرآني

تأليف

الدكتور محمد رجب البيومي

المدرس بكلية اللغة العربية - جامعة الأزهر



السنة الثالثة - الكتاب الواحد والثلاثون

ربيع الثاني سنة ١٣٩١ مايو سنة ١٩٧١

دار النصر للطباعة
١٢ شارع سعد الله بالدرب الأحمر ـ القاهرة
ت ٩٣٦١٤٥

تقديم

بقلم فضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نستعينه ونستهديه ونستغفره ونتوب إليه، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد صفوة أنبيائه وخاتم رسله، أنزل عليه الكتاب آيات بينات، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، وبعد:

فإن القرآن كتاب الإسلام الخالد، كرم الله به الإنسان وشرفه، وجعله معجزة تخاطب العقل والقلب والفكر والوجدان، معجزة حية قائمة لاتنقضي بانقضاء العصور.

وقد أقر المفكرون والعلماء والأدباء -من قديم- بأن القرآن الكريم نمط من القول غير مسبوق، وشهدوا بما له من سحر التأثير وروعة البيان وكمال الإعجاز ثم حاروا في تعليل نواحي إعجازه وأسرار تأثيره.

قالوا: إن فيه أخبارا غيبية، وإن فيه أنماطا من التشريع السياسى والاجتماعى يسعد بها الفرد والمجتمع ويصلح بها الراعى والرعية، وإن فيه أخبارا عن السابقين وعبرا من أحوالهم، وإن فيه إشارات إلى كثير من الحقائق الكونية وأسرار النفس الإنسانية والمجتمعات

البشرية . وقالوا إنه تفرد بنمط خاص فى البيان والتصوير .

وهذا كله وغيره لا يعدو أن يكون جوانب مما يدرك بالتلاوة والتدبر لآيات الذكر الحكيم .

أما سر الإعجاز وحقيقته فى القرآن فهو فوق الإحاطة والإدراك!

وإلا فما سر هذا الأنس الذى يسبغه على الروح فتطمئن وتقر ، وتتصل بالخالق البارىء المصور ، فتتبدد وحشتها وتنجاب عنها المخاوف والأحزان !.

وما سر هذا الأسر الذى يخشع له الوجدان ، ويتضاءل أمامه العقل ، فتنقاد النفس إلى التسليم فى ثبات ويقين !

وما سر هذا النور الذى يجلو الفطرة ويصفى الطبع ويرد الانسان إلى حال طهارته ونقائه !

وما سر الهداية التى تنجاب بها الغشاوات وتنزاح الظلمات ، فيمتاز الحق من الباطل ويبدو كل شىء بمعناه الصحيح ، فيتصل الكون كله بوحدة نورانية تسبح بحمد الله ! إن سر الاعجاز سر سماوى ، وهيهات لعقولنا ـ نحن البشر ـ أن ترقى لادراكه ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ .

* * *

ولقد حاول علماء العربية ـ منذ أنشأوا علومها ـ دراسة الجانب

البيانى فى القرآن الكريم وتبين وجوه إعجازه من هذه الناحية ».
وكانت أداتهم ماتوصلوا إليه من مقاييس فى علوم البلاغة والنقد ، فدرسوا مافيه من ألوان المجاز ، ثم طبقوا نظرية « النظم » لتعرف أسرار التركيب وعلاقة الكلمات بعضها ببعض ، ثم توالى الدارسون فى القديم والحديث بألوان من الدراسات المختلفة .

والكتاب الذى نقدمه اليوم :

البيان القرآنى للدكتور محمد رجب البيومى

هو حلقة فى سلسلة تلك البحوث التى تجتهد فى دراسة النظم القرآنى ، بالتحليل الذى يكشف عن جمال الأسلوب وروعة التصوير.

فهو دراسة أدبية لمؤلف نابه اطلع على كثير مما صدر - قبل - من دراسات .

ونرجو أن يكون فيما كتب نفع المسلمين ، وتوجيه القارىء إلى دراسة الكتاب الكريم .

ونسأله - سبحانه - أن يرزقنا العمل بكتابه واتباع سنة نبيه ، والفقه فى دينه ، فهو نعم المولى ، ونعم النصير .؟

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

دكتور محمد عبد الرحمن بيصار

مقـــدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

القـرآن الـكريم كتاب القـرون جميعا لا كتاب قرن واحد ، ولـكل باحث أن ينظر إلى بلاغته العالية فى ضوء ما تنتجه الأجيال المتعاقبة من ثقافات يمدها النظر الثاقب والتحليل المستشف ، وقـد حاولت اليوم أن أتحدث عن هذه البلاغة الرفيعة فى ضوء ما درسته من هذه الثقافات ، لا لأكرر ما قاله السابقون ، فتلك مهمة لم تعد مقبولة بعد أن نشر كثير من التراث القديم ، بحيث أصبح التـكرار مدعاة سأم بالغ مهما تستر بالعرض الجذاب والتشويق الدافع ولـكن لأتناول بعض ما قيل بما أهتدى إليه من وجوه النظر المطمئن ، مضيفا إليه ما قد يفتح الله به من جديد الرأى وطريف التوجيه ، وحسبى أن أخطو خطوة قصيرة فى طريق ممتد فياح لا يكاد ينتهى السير فيه ما دامت هناك عقول تفـكر وأقلام تسطر .

لقد تحدثت ــ فيما تحدثت ــ عن الجزالة والرقة، والإطناب والايجاز، والحقيقة والمجـاز ، والغريب ، والتصوير البلاغى والاقناع المنطقى

والقصة القرآنية ، والوحدة الموضوعية وقضية السجع فى الأسلوب القرآنى ، تحدثت عن ذلك حديث من فكر طويلا فيما قرأ ثم اهتدى إلى تعديل كبير أوحاه الصبر الهادىء على مناقشة الرأى ومناهضة الدليل ثم رأيت أن أشرك القراء فيما اهتديت إليه من وجوه القول عالما أن منهم من سيجد مجال القول ذا سعة حين يهم بنقد كاشف أو تسديد موجه ، والقرآن الكريم - بعد - أعز وأغلى على المؤمن الدارس من أن يسكت عن تصحيح خطأ يتعلق بما أقدم من بحث ، أو تأييد رأى تضيئه أشعة من الصواب السديد .

ولن أطيل على القارىء فى مقدمة تغنى فيها الإشارة عن العبارة ، بل أترك هذه الصحف بين يديه راجيا أن أجد من المولى الكريم ثواب المجتهد أخطأ أم أصاب وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

د . محمد رجب البيومى

أسلوب منفرد

حين نزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم فاجأ العرب بأسلوب لا عهد لهم به ، فظلوا حائرين دهشين يلمسون سحره الغالب وتأثيره الخالب دون أن يستطيعوا معارضته ، وقد تحداهم القرآن أن يأتوا بسورة من مثله فبذلوا قصارى جهدهم فى ذلك فما استطاعوا إليه سبيلا ، وهم بعد فرسان الفصاحة وأئمة البلاغة يتباهون بخطبهم الرائعة وأشعارهم البارعة ويعقدون الندوات الأدبية رنانة بفصيح القول صخابة برائع الشعر والنثر ، ولكنهم وقفوا أمام القرآن دهشين حائرين.

لقد فاجأهم الله بنمط من القول المعجز لا عهد لهم به ، فهو وإن تألف من كلماتهم وحروف لغتهم فإنه ينصب فى قالب متفرد يدركون حلاوته ويحسون روعته دون أن يستطيعوا محاكاته ، وكان عهدهم بالرائع الجيد من القول أن يقوله شاعر فصيح منهم فيهب المنافسون لمعارضته واحتذائه فيقعوا منه قريبا أو يسبقوه ظافرين بأحسن مما قال ، فما بالهم إذن يتحداهم القرآن أن يأتوا بسورة من مثله فتضطغن نفوسهم غضبا وحقدا ، ثم يدركهم البهر فما ينطقون .

إن العهد بصاحب الأسلوب المتميز من ذوى الفصاحة أن يكون تميزه الاستقلالى غير منقطع الصلة بما قبله ، فهو وإن أتى بالجيد الجديد

فإنه يمت بأقرب الوشائج إلى سلف قريب قد احتذاه بدءاً ثم فتح الله عليه بما استطاع أن يزيد به من التفنن والإبداع ، بحيث يلمس الناقدون وثيق الصلات بين التقليد والتجديد ويدركون الخطوات الواضحة التي قطعها هذا المبتكر في ميدان تجديده خطوة خطوة حتى استقام له التجديد على نحو لا تنبت صلته إبتاتاً تاماً بما يقال ، حتى إذا أصبح هذا المجدد البارع صاحب طريقة أدبية في القول كثر مقلدوه، وتابعوه ، أو أصبح ذا مدرسة فنية كما نقول الآن ، بمعنى أن أسلوبه الأدبي قد سهل احتذاؤه ، ويسرت محاكاته فلم يعد وقفاً عليه بل اشترك في إبداعه طائفة ممتازة من خيار التابعين ! وقد نزل القرآن بطابعه المتفرد وأسلوبه المتميز ، فلم يجد مقلداً يحتذيه ، وظل قمة عالية منقطعة في نمطها الأدبي عن السابق واللاحق ، وقد مضت القرون وراء القرون دون أن نجد من بلغاء القائلين من استطاع أن ينحو قريباً من طابع الذكر الحكيم مهما ورد مورده وأنفق الأعوام الطوال في احتذائه ، بل كان قصاراه أن يحلى أدبه باقتباس آية أو جملة تشع في السياق كضوء باهر في غيم ، وتدل على نفسها بما ألقته من ألق أضفى على الأسلوب بهاء وروعة ، فهي إذا زينت الأسلوب من ناحية فإنها من الناحية الأخرى قد أقامت الدليل على أنها من النمط المعجز الذي يتمنى ولا ينال وهكذا صدقت القرون المتتالية قول الله في كتابه « قل لئن اجتمعت

الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

وهذا النبي الكريم الذى تحدر الوحى الإلهى على قلبه ليكون من المرسلين مع اشتهاره بالفصاحة الخالبة ، والقول المبين بحيث أصبح سيد البلغاء فى عصره ، كان ذا أسلوب بيانى يبتعد عن أسلوب القرآن ابتعاداً تتسع مسافته أمام الدارسين بحيث لا يختلط ما يصدر عنه من قول مبدع بما يتنزل عليه من بيان معجز فدل ذلك دلالة قاطعة على أن القرآن نمط إلهى ليس فى طوق البشر محاكاته ولو جاز لأحد من البلغاء أن يدنو منه لجاز لرسول الله وهو أفصح القائلين قاطبة أن يأتى فى حديثه النبوى وبيانه الخطابى بما يقرب مما يصدع به من الوحى ! وقد عقد الناقدون أبواباً تحليلية للبيان النبوى نطقت باختلاف طابعه الأدبى عن طابع القرآن ، وكان ذلك دليلا ساطعا على أن النبى الأمين لا يلفق أو يخترع فيما يبلغ من وحى ! وكيف وهو يأتى الناس بما ليس فى طوق إنسان كائنا من كان !

أتى القرآن العرب بما لم يستطيعوا مقاومته من البيان المعجز ، فأدرك المعاندون منهم حلاوة منطقه وعظيم نفاذه ، ولئن صاح صائحهم بمثل قوله فيما حكى الله عنهم لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه أو قوله لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين أو قوله إن هذا

إلا أساطير الأولين أو قوله إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون أوقوله أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا إن صاح الصائحون بمثل ذلك فهو حديث المعاند المكابر الذى ينكر ضوء الشمس وقد بهرت عينه لعلة نفسية تدفعه للبهتان ، إذ أن هؤلاء الجاحدين قد لمسوا روعة القرآن وحذروا تأثيره النفاذ أن يمس قلوب البرءاء من الدخل والبغى ، فهم يهتفون بما لا يعتقدون هتاف اللجوج المعاند وقد عز عليه أن يسيطر مناوئه بحقه الواضح على العرب فيتبعوه وفى مواقف الدعوة الأولى ما يؤكد ذلك تأكيداً يوضح العلة ويكشف الداء وها نحن أولاء نشير إلى بعضه فنقول : روى البيهقى عن دلائل النبوة أن أبا جهل بن هشام وأبا سفيان بن حرب والأخنس ابن شريق ، كانوا يتواصون ألا يستمعوا لهذا القرآن ويحذرون الناس أن يميلوا إلى سحره ، ولكنهم تحت تأثير جاذب لا يستطيعون مقاومته كانوا يتسللون متسترين إلى حيث يستمعون فإذا انصرفوا بعد التلاوة تلاقوا فى الطريق فأخذوا يتلاومون ويتعاهدون ألا يعودوا كيلا يقتدى بهم الملأ من قريش ، وفى الليلة الثالثة اجتمعوا وتلاقوا مستنكرين ، فلما أصبح الصباح ذهب الأخنس بن شريق إلى أبى سفيان فقال له : أخبرنى أبا حنظلة عما سمعت من بيان محمد فقال الرجل لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد منها ، فقال الأخنس وأنا

كذلك ! ثم انصرف إلى أبي جهل ليسأله عما سأل عنه أبا سفيان، فقال أبو جهل في غيظ : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نسمع إليه ولا نصدقه » .

فماذا نقول في منطق هؤلاء المعاندين ! لو كانوا لا يستشعرون تأثير القرآن ولا يدركون روعته ما تعاهدوا على اجتنابه صباحا ثم اندفعوا إلى الاستماع إليه متسترين بالظلام ، ثم لرجعوا عن استماعهم وقد تلاوموا عليه ، وأخذوا العهد على ألا يعودوا متسمعين ! ثم بم نعلل حرص الأخنس على سؤال أبي سفيان وأبي جهل عن أثر القرآن في نفسيهما وقد حرصا على الاستماع إليه حرص الكاره المغضوب لا المعجب الودود ؟ أما أبو سفيان فقد أجمل وأبهم ، وأما أبو جهل فقد انفجر حنقا يكشف عن نفسه الستار الخادع إذ يعلن أن المسألة ليست مسألة الوحي ولكنها مسألة المنافسة بين بني عبد مناف وبني مخزوم !

كانت قريش جماعات مختلفة لها آراؤها المتشعبة وأهواؤها المختلفة ، ومع اتحاد الكثرة الكاثرة على إنكار القرآن بادىء ذي بدء فإن أفرادها من رءوس هذه الجماعات لم يستطيعوا أن يكبتوا صيحات الإعجاب في نفوسهم ، فند عنهم ما ينبىء عن روعة البيان القرآني

وسرعة نفاذه وعمق تأثيره وطبيعى أن يحدث هذا الإعجاب أثرا عميقا فى نفوس من يمضون فى المكابرة إلى أبعد مدى يتصور ، ونمثل لذلك بالوليد بن المغيرة المخزومى حيث كان يتحرى سماع القرآن من رسول الله ثم يعلن تقديره لما يلمس من روعة البيان وانفراده المثالى ، حتى ضجر أبو جهل وخاصمه وسعى إليه ليثنيه عن إبداء هذا التقريظ خشية ما يحدثه من المغبة المتوقعة ، فقال له الوليد فى صراحة ناصعة : والله ما فى قريش من رجل أعلم بالشعر أو رجزه أو قصيده منى ، ولا والله ما يشبه الذى يقول محمد شيئاً من هذا الشعر أو ذلك الرجز ، ووالله إن لقوله لحلاوة وأن عليه لطلاوة وأن أعلاه لمثمر وأن أسفله لمغدق وأن ليعلو وما يعلى وإنه ليحطم ما تحته ، فأسف أبو جهل لما سمع وقال فى إنكار : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه ففكر طويلا ثم قال هذا سحر يؤثر !

فالوليد بن المغيرة فصيح مبين فى قومه ، وقد تحدث عن نفسه فذكر أنه أعلم رجل فى قريش بالشعر والرجز والقصيد ، فإذا قال قائل منهم إن ما يقوله محمد من طراز الشعر المأثور عن العرب فقد كذب ! وإنما تحدث الوليد عن الشعر دون النثر مع من كان فى قريش من فرسان الخطباء لأنه يسلم بداهة أن النثر دون الشعر تأثيرا وعمق نفاذ ، وأن سطوة البيان القرآنى قد فاقت سطوة الشعر المأثور فأحر بها أن تفوق أوجه القول الأخرى من خطب ومنافرات وأمثال ، على

أنه لا يستطيع أن ينكر الروعة فى كلام قال عنه أن له لحلاوة وأن عليه لطلاوة وأن أعلاه لمثمر وأن أسفله لمغدق وأنه ليعلو ومايعلى وأنه ليحطم ما تحته ، وهو قول يدل على تمكن الوليد من ناصية القول فقدصور البيان القرآنى فى صور بلاغية رائعة لاتتأتى لغير متمهل رصين ذى فصاحة وبيان ! وصدق شعوره الأدبى هو الذى جعله يستحى أن يذهب مذهب الحقدة من المنكرين ممن قالوا «لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين » فآثر أن يستجيب لهذا الشعور الصادق مهما ناشه اللوم ، وحين أجبر على أن يساير الحقدة من المتوجعين نسب البلاغة القرآنية إلى سحر يؤثر ويروى عمن لايدرى من الساحرين .

هذا هو الوليد بن المغيرة ! فكر فقدر ثم ذهب إلى أن القرآن سحر يؤثر ! وظن أن نسبة السحر إلى محمد كافية أن تصد الناس عنه، ولكن غيره من ذوى الرصانة النقدية ينظرون فى القرآن كما نظر الوليد ، وهم على عدائهم للدعوة المحمدية ، يتفقون مع الوليد على أن القرآن ليس شعراً أو رجزا أو قصيدا ، ويزيدون فيخالفونه فيما زعم من السحر ، لأنهم فى بيئة تعرف السحر والكهانة حق المعرفة ، ولا ترى فيما يصدع به محمد من الآيات مشابها لما يأتى به السحرة من الرقى والعزائم ، فقرآنه بمنزلة معجزة من البيان لايجوز لعاقل يحترم تفكيره أن ينسبه إلى رقى السحرة وعزائم الكهنة ، وإذا أراح الوليد نفسه بنسبة السحر إلى محمد فإن عتبة بن ربيعة الخثعمى يحاول

أن يهتدى إلى أى ضرب من التوفيق بعد أن أخذته سطوة القرآن
أبلغ مأخذ فيقول لقومه « ألا أقوم لمحمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا
لعله يقبل بعضها فنعطيه إياها ، فقالوا لك ذلك ، فذهب إلى رسول الله
وهو يصلى بالمسجد ، وقال يابن أخى إنك من خيارنا حيث علمت
حسباً ونسبا ، وإنك أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت
أحلامهم، وعبت آلهتهم ودينهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع
منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها ، فقال عليه
الصلاة والسلام قل يا أبا الوليد ، فقال يابن أخى إن كنت تريد بما
جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا
مالا ، وإن كنت تريد شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً من دونك ،
وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإن كان الذى يأتيك رئيا
من الجن لا تستطيع رده عن نفسك لطلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا
حتى نبرئك منه ، فقال صلى الله عليه وسلم لقد فرغت يا أبا الوليد قال نعم ،
قال فاسمع منى فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أول سورة فصلت
« بسم الله الرحمن الرحيم ، حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب
فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ، بشيرا و نذيرا فأعرض أكثرهم
فهم لا يسمعون ، وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا
وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ، قل إنما أنا بشر
مثلكم يوحى إلى إنما الهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه ،

وويل للمشركين ، الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ، قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ، فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم إلا تعبدوا إلا الله ، قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون » عند ذلك أمسك عتبة بفيه وناشده الرحمن أن يكف عن ذلك ثم رجع إلى قومه يقول والله لقد سمعت قولا ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر يا معشر قريش . أطيعونى فاجعلوها لى ، خلوا بين الرجل وما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لكلامه الذى سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فعزه عزكم ، فقالوا لقد سحرك محمد ، فقال هذا رأيى » .

أسوق هذه الحادثة على طولها ولا لأكتب فصلا من فصول السيرة النبوية الشريفة ، بل لأؤكد ما أريده من انفراد القرآن بطابعه الأسلوبى الذى أفحم البلغاء من قريش ، وتركهم حائرين يتلمسون أسباب الإعجاز القرآنى فلا يعرفون ! كان عتبة بن ربيعة من بلغاء القوم ،

يعرف منازعهم فى القول ، ويدرك إبداعهم لضروب البيان المختلفة من خطب وقصائد ورجز ! ولكنه يستمع إلى نمط من البيان يأخذ عليه أقطار نفسه حتى ليخاف أن يذهب به فيضع يده على فم الرسول يناشده الرحمن أن يمسك ، ثم يجاهر قومه بأنه سمع حديثا لا هو بالشعر أو السحر أو الكهانة ، وأنت ترجع إلى ماتلا رسول الله من الآيات متأملا دارسا فترى ضربا من البيان المعجز بمعناه وتصويره ومبناه جميعا ، معجز ، بمعناه : حين تحدث عن خلق السموات والأرض فى يومين وإقامة الرواسى وتقدير الأقوات والإستواء إلى السماء وهى دخان ومحاورة الأرض والسماء وإتيانهما طائعتين وتزيين السماء بالمصابيح ، ومعجز بتصويره : حين يجعل قلوب المشركين فى أكنة ، ويضع فى آذانهم الوقر ويقيم بينهم وبين الدعوة الحجاب الصفيق ، ثم يهـــدد هؤلاء الذين لا يؤتون الزكاة ويكفرون بخالق الأرض والسموات منذرا إياهم بصاعقة كصاعقة عاد وثمود ، ومعجز بمبناه : حين يرسل الحديث فى فواصل موسيقية ذات رنين نفسى يبلغ الوجدان قبل أن يرن فى السمع ، وحين ينتقل من الخبر إلى الإنشاء فيفيض فى أساليب الأمر والإستفهام والنهى بما لا يدع مجالا للتأثير والإقناع ! لقد استمع العربى البليغ إلى ذلك كله بعقل واع وإحساس متقد فتخيل الكلمات شخوصا حية تصور مايراد من المعانى حتى إذا تلا الرسول

قول الله «فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود» بلغ به التأثر الانفعالى أقصاه ، فخاف لروعة ماسمع أن تنقض عليه الصاعقة وأسرع بيده إلى فم الرسول صائحا : أمسك عليك يابن أخى ، ثم رجع ليعلن انفراد الأسلوب القرآنى بقوله : والله لقد سمعت قولا ماسمعت مثله قط ، والله ماهو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر ! وكأنما عز على العرب الجاحدين أن يسبق عتبة بن ربيعة الوليد بن المغيرة فى تقديره الأدبى حين ينفى السحر عن كتاب الله فصاحوا مستنكرين : لقد سحرك محمد .

– ٢ –

إذا كان عجيبا أن يظل القرآن منفردا بطابعه الخاص فى عصر النبوة حين تحدى الله العرب أن يأتوا بسورة مثله فإن بقاء هذا التفرد مستقلا بأسلوبه المتميز إلى يومنا هذا أعجب وأغرب ، إذ جد من أساطين البلاغة وأئمة البيان على توالى القرون من ورثوا شتى الثقافات العالمية من يونانية وفارسية وهندية فى القديم وإنجليزية وفرنسية وألمانية فى الحديث مضافة إلى ملكتهم العربية ذات النفاذ والقوة وما انكبوا عليه من دراسة أساليب البلغاء فى الفصحى دراسة خلقت منهم جهابذة البيان وأعلام القول ، ثم ما استطاعوا

بعد ذلك كله أن يحاكوا القرآن فيما يقولون ، أو أن يأتوا بعشر آيات من مثله ، فكان ذلك إعجازا آخر يحقق قول الله عز وجل « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثـــل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

كان انفراد القرآن بطابعه الآخذ مسيطراً على أرواح سامعيه وقارئيه ، وهو من الشموخ والاستعلاء بحيث كانوا كمن يرفع رأسه إلى كوكب عال يفيض عليه بالضوء دون أن يستطيع السمو إلى بعض آفاقه ، فكان قصارى أمرهم أن يعترفوا بروعته الآسرة دهشين .

وقد تناقلت الروايات فى الكتب الحاشدة أنباء عن قوم حاولوا معارضة القرآن فجاءوا ببعض مايشبه الآيات الكريمة فى التزام الفاصلة فحسب ، وفى رأيى أن ذلك كله تلفيق موضوع تدوول فى الصحف عن غفلة وتساهل ، لأن من نسبت إليهم أمثال هذه المعارضات ، لم يكونوا من البله والغفلة بحيث يقولون مايبعث على الإضحاك والسخرية ليكون موضع التحدى وآية القدرة ، ثم يسوقونه إلى قوم نقدة ذوى بصر ، فينالون خزى الفهاهة ويدركون معرة السقوط الحزين .

نقلت بعض الروايات الأدبية شيئا من ذلك روى عمن ادعوا النبوة من أمثال مسيلمة وطلحة وسجاح ، أو من عرفوا بالبلاغة من أمثال عبد الله بن المقفع وأبى الطيب المتنبى ، وأبى العلاء ، ولا أدرى لماذا احتشد المغفور له الأستاذ مصطفى صادق الرافعى لما رجف به فى ذلك فعقد فصلا طويلا فى كتابه إعجاز القرآن ، ليوضح الواضح ويحصل الحاصل حين يعلن أن ماسيق مساق المعارضة كان خذلانا كبيرا وخزيا فاضحاً ، نقول كان الأولى أن ننأى بأمثال هذه الترهات عن صحف البحث العلمى الخالص إذ كانت من التهافت والترقيع بحيث لا تثبت أمام بلاغة كتاب عادى فضلا عن بلاغة أفصح كتاب! ومسيلمة مهما كان كاذب الاعتقاد عريق الإدعاء ، فله مكره واحتياله اللذان يمنعانه أن يفضح نفسه بمثل ما أذيع من قوله « والمبذرات زرعا والذاريات قمحا والعاجنات عجنا والخابزات خبزا » أو قوله « إنا أعطيناك الجاهر فصل لربك وجاهر » فإن أمثال هذه الفواصل تقليد زائف لآيات محكمة والمعارض المتحدى لا يقلد ولا يحاكى إنما يفترع القول إفتراعا بما يصل إلى القلوب ويجلجل فى الأسماع عن قوة واقتدار ، وقد ظن الأستاذ الرافعى فى بعض ما قال مسيلمة كان يعلم هراءه ولكنه يحاكى الكهان فى أسجاعهم السقيمة ليخدع العرب بها عن طريق غيبى سحرى ، كما كان الكهان يخدعون ذويهم

بما يخترقون من الأسجاع ، وقد كان ذلك معقولا لو أن سجع الكهان قد احتفظ بتأثيره بعد نزول القرآن ولكن الواقع غير ذلك ، لأن ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم قد رفع عن العيون غشاوات مدلهمة كانت أسجاع الكهان إحداها ، فكيف يحارب مسيلمة بسلاح مفلول .

هذا عن مسيلمة وأشباهه من أدعياء النبوة فى العصر الأول ، أما ما روى عن ابن المقفع والمتنبي والمعرى فمحض اختلاق ساقه المغرضون من أعداء النبوغ ، وقد وجد من واقع هؤلاء ما ساعد على اختلاق الإفك وإلصاق الريبة ، فابن المقفع قد قتل مظلوما لموقف سياسى تورط فيه ، فقتله الحاكم الظالم بغيا وعدوانا ، فلابد أن يسعى المتملقون إلى تشويه سمعته وإلصاق المخزيات بتاريخه ، وقد زعموا فيما زعموه أنه حاول معارضة القرآن بكتاب اليتيمة ، وكتاب اليتيمة نصائح خلقية رائعة عرفت أمثالها عن ابن المقفع فى كل ما كتب ، حتى فيما أضافه من ترجمة (كليلة ودمنة) من المرامى الخلقية الرائعة ، فكيف تكون أوراق اليتيمة وحدها هى كل ما كتب فى المعارضة المزعومة ، على أن من يسمو إلى معارضة كتاب فذ مثل القرآن وكان له عقل ابن المقفع ونظره البعيد وأسلوبه السديد ، عليه أن يأتى بما أتى به

الأصل من أحكام تشريعية وقصص تاريخية وعبر دينية ليضاهي شيئا بشيء، أما أن يقتصر على نصائح أخلاقية هي كل ما حواه كتاب اليتيمة، فذلك مايستحي منه ابن المقفع استحياء يصل إلى حد الإنكار، وقد كان الرجل في حياته العامة وسلوكه الشخصي مثالي الترفع والإباء والحنكة، فكيف يجيز لنفسه هذا السقوط الوبيء! لقد قالوا في بعض ما أرجفوا به عنه أنه كان يميل إلى مجالسة بعض الندماء من مستهتري الشعراء! وكان ينادمهم على الشراب! أيكون ذلك وحده دليلا على أنه عارض القرآن باليتيمة؟ لماذا إذن لا يكون جلساؤه من مستهتري الشعراء قد عارضوا القرآن ببعض أشعارهم حتى يجرى بالقياس إلى منتهاه؟ أما أبو الطيب فلم يكن ناثراً حتى يعارض القرآن ببعض القول، ودعواه النبوة إفك لصق به، وانتحلت الأقوال المتصيدة لتبريره دون أن يرتكز على أساس، فكيف يعارض القرآن بقول لا يذاع وما كان أكثر أعداءه في بلاط سيف الدولة بحمدان وكافور بمصر وعضد الدولة بفارس وحاشية المهلبي ببغداد! أفيصبر هؤلاء صبر العتاة على توهين شعره وذم خلقه وادعاء سرقاته ثم يصمتون صمتا أبديا عن إذاعة كلام ساقه مساق المعارضة للقرآن وتلك قاصمة الظهر وعوراء الأبد كما يقال؟ إن أبا الطيب تابع محمد كابن

المقفع وقد قيل عنه افتراء أنه ادعى النبوة ، فليسيروا خطوة ثانية وراء ذلك ليقولوا إنه عارض القرآن .

هذا عن أبي الطيب ، أما أبو العلاء المعري فقد ساعدت حريته الفكرية على سهولة الإرجاف به ، وكأن ما شذ به من آراء في التنسل والمأكل والموت والمرأة قد وجه أعداءه إلى القول بمعارضته للقرآن ، وقد جرءوا جراءة فاضحة حين زعموا بعد وفاته أنه عارض القرآن بكتاب « الفصول والغايات » وكان الكتاب كالمفقود بين الدارسين فظلت الشبهة قائمة بالرجل لدى بعض الأغرار ، حتى عثر الأستاذ محمود حسن الزناتي على الجزء الأول من الفصول والغايات فحققه ونشره وقرىء الكتاب فإذا هو تحميد وتمجيد للرحمن ، وقد صيغ في عبارات عويصة تعلن تشدق المعري بالغريب كأكثر ما نجد في نثره وفي بعض اللزوميات من شعره ، أتكون هذه المحامد وتلك المواعظ معارضة للقرآن ! ولم تصان هكذا من غريب اللغة وعويص التراكيب بأقفال وحصون ، مع أن كتاب المعارضة يجب أن ييسر للذكر فيتداوله الناس .

بقي أن نتحدث عن ابن الراوندي ، وقد ادعى معارضته القرآن فعلا بما تخرق من كلمات لاقت رفض الملاحدة قبل المؤمنين ، وكان

الرجل هائجا مضطربا لا يستقر على وضع عقلى وقد أوتى لجاجة فى الجدل جعلته يؤلف للنصارى واليهود ما لا يعتقد من الآراء والحجج ليثبت قدرته على القول فى كل اتجاه ، ومن محن الإنسانية أن يسخر النبوغ العقلى لإشباع رغبة نفسية تتطلب الظهور المتطاول بما يتصرف من القول فى كل اتجاه ، على أن ابن الراوندى قد اعترف بعجزه عن محاكاة القرآن اعترافا لم يدع مجالا للاستشهاد به فى باب المعارضة والتحدى ، وقد جاء فى معاهد التنصيص أن أبا على الجبائى المتكلم الشهير قد اجتمع بابن الراوندى يوما على جسر بغـــــداد فقال له يا أبا على : ألا تسمع شيئا من معارضتى للقرآن ونقضى إياه ، فقال له الجبائى : أنا أعلم بمخازى علومك وعلوم أهل دهرك ، ولكنى أحاكمك إلى نفسك : أتجد فى معارضتك له عذوبة وهشاشة وتشاكلا وتلازما ونظما كنظمه ، وحلاوة كحلاوته فقال لا والله ، قال الجبائى : قد كفيتنى فانصرف حيث شئت » .

وإذا كان ابن الراوندى قد كتب معارضته وأذاع كتبه الإلحادية فى عاصمة الدولة الإسلامية الكبرى دون أن يتعرض لمؤاخذة صارمة فلك أن تثنى خيراً على هذه السماحة الإسلامية التى وسعت ألد المعارضين، وأحقد الماكرين فما ألحقت بهم ما يسوء رغم ما يستحقون .

وإذا بطلت أسطورة المعارضة المزعومة فإن ذلك ليعطى أبلغ الدليل على تفرد القرآن بطابعه الخاص الذى لا يشبهه مثيل فى القول، وقد صرفت الهمم العالية فى شتى العصور إلى تحليل عباراته إلى معنى فى انسجام متلائم، وإحكام متلاحم، حتى ازدحمت المكتبة القرآنية إزدحاما بما جادت به القرائح الخصيبة فى هذا المضمار، وحسبك أنك لا تجد إلا فى الندرة النادرة عالما من علماء الإسلام خلت مؤلفاته من بعض ذلك مما لا تنفرد به كتب البلاغة والأدب والتفسير واللغة بل تشاركه كتب الفقه والتشريع والأصول والكلام فى تحليل آية ذات دلالة تشريعية أو توجيه نص قرآنى فى بعض معانى الألوهية والرسالة والخير والشر، فإذا اكتفينا بمؤلفات البلاغة القرآنية وحدها فاننا نجد حشداً حاشداً يبتدىء بكتاب مجاز القرآن لأبى عبيدة. وقد اتسع بمعنى المجاز اتساعاً جعله يشمل المعنى الحقيقى والخيالى مما جعل بعض الكاتبين يرونه كتاب لغة لا بيان مع أنه كتاب لغة وبيان معاً، ثم ماوليه من كتب ابن قتيبة وعبد القاهر والزمخشرى والشريف الرضى وابن أبى الأصبع وغيرهما، تلك التى جعلت البيان القرآنى وحده محور دراستها وباب افتنانها بالإضافة إلى الكتب الخاصة بالإعجاز مما كتبه أمثال الرمانى والخطابى والباقلانى وعبد القاهر وعبد الجبار ومن نحا

نحوهم فى القديم والحديث ونحن نفرح بكل ما كتب فى دراسة البلاغة القرآنية ونواحى الإعجاز فيها ، وندعو إلى مواصلة التحليل البيانى للقرآن ، لأن التراث القديم يمثل ثقافة عصره التى لا تكاد تغنى شيئا أمام ما يتيحه التطور الزمنى من أقيسة جديدة لفن القول ، وحسب كل دارس أن يمثل ثقافة عصره فى نظرته البلاغية للقرآن وإذا قلنا ثقافة العصر فلن نعنى بها الثقافة المبتورة التى انتزعت من الغرب انتزاعا لتطبق تطبيقا فاشلا على أدب لا يمت إلى أصحاب هذه الثقافات بسبب ، إنما نعنى بثقافة العصر تلك الثقافة المتطورة التى ترتكز فى أصولها القريبة والبعيدة على التراث العربى بذوقه وإحساسه متطلعة إلى ما جد من نظريات الفن الأدبى لتأخذ منها ما تراه مناسبا لنمو هذا التراث الأصيل بحيث يمتزج الطارىء بالقديم امتزاج التآلف لا التنافر . ولهذا كان القول فى البيان القرآنى حديث كل عصر ومجال كل زمن ، بحيث لا يجوز لنا أن نعدد المؤلفات القديمة فى الإعجاز القرآنى والتحليل البلاغى لنعقبها بقول القائل « ما ترك الأول للآخر شيئا » كما نسمع من بعض الكاتبين .

وهنا يجب أن نحذر كل التحذير من الانقياد الثقافى لكل طارىء مستحدث من الموازين النقدية لأننا حين ندعو إلى الانتفاع

ببعض الثمار الفكرية المعاصرة لا نعنى الخضوع المطلق لقوانينها الفنية بل نعنى الاهتداء بما نراه مناسباً للطابع العربى فى تصريف القول وتلوين الحديث ، وما أتى بعض الدارسين فى هذا العصر للبيان القرآنى إلا من الالتزام المطلق بالمنهج الغربى فى التأليف ، ومحاولة تطبيقه على المعجز من كتاب الله ، وقد فات هؤلاء أن الكتاب الحكيم الذى انفرد بأسلوب خاص فى مدى أربعة عشر قرناً متطاولة لا يخضع بداهة لمقاييس إذا أعترف بها فى عصر فلن تعدم من يثور عليها فى عصر آخر ، ولنمض فى التحذير إلى مدى آخر ، فنؤكد أن العربية الفصحى لغة موهبة فنية وسليقة أدبية تتناقل فى حلقات العصور المتتالية متمثلة فى ما تنتجه القرائح الصافية ذات الطبائع السليمة ، والإرث الفصيح ، فلا بد أن يكون المتصدى لدراسة البيان القرآنى من أصحاب هذه القرائح البريئة من لوثة العجمة ، الضاربة جذورها فى أعماق الأصالة ، الهاتفة بكل مشرق من القول صاف من البيان ، المهتزة لدقائق اللفتات الفنية فى إيحاء معنى أو جرس لفظ أو تلوين صورة ، ولذلك كان ما يكتبه نفر من المستشرقين عن الأسلوب القرآنى خطلا من القول يلطم بعضه بعضاً إذ حرموا السليقة العربية فى تصور البيان الإنسانى على نحو من الأنحاء الرفيعة ، فتراءت لهم معانى القرآن فى

ضوء ما ينقلونه من القواميس اللغوية وحـــــدها دون اقتدار على الاستشفاف الأدبى النافذ إلى أدق الخلجات وأخفى المنازع تصويراً وتعبيراً وإيحاء ، وما ظنك بأحدهم حين يثق بنفسه عن حماقة فيتعرض إلى الحكم على الأسلوب القرآنى ليأتى بما يدهش ويخجل إذ يقول فيما يهذى به عن كتاب الله أنه يفتقر إلى البيان مع عبارة كريهة نترفع عن ذكرها ، وقد عقب عليها الأستاذ محمد فريد وجدى(١) بقوله « أما قوله إن القرآن ينقصه البيان ، فهذا من أغرب ما سمعناه من الشبهات حول هذا الكتاب الكريم فإن ساغ لمنكر أن يرميه بكل ما يطوف بخياله من التهم فلا يسوغ له أن يرميه بالتجرد من البيان ، وقد اعتبره العرب معجزاً فى نظمه ومعناه وعجزوا عن الإتيان بآية من مثله ، وقد ساد هذا الرأى حتى فى العهد الذى بلغت فيه البلاغة العربية أوجها الأعلى بدخول الأساليب الفارسية واليونانية والهندية إليها . .

فهل يمزح قائل ذلك أم يقول ما يعتقد فيدلنا دلالة ناطقة على أنه لا يعرف العربية بل ولا يحسن النقل عن المستشرقين الذين عرفوها وشهدوا للقرآن ببعض ما يستحق فى هذه الناحية » . وإذ كنا بصدد

---

(١) الاسلام دين عام خالد ص ٢٦٣ ط ثانية .

هذه النظرات المتواضعة نطمئن إلى إنفرادالأسلوب القرآنى فى طريقته البيانية فإننا ندعو الباحثين إلى مزيد من التحليل البيانى لإدراك بعض الأسرار الأدبية فى هذا المنهج المنفرد بروعته وإعجازه . على أن ينأوا به عما عرف لديهم من خصائص الأساليب المتفق عليها فى صياغــــة الكتب والقصص والخطب لأنها جميعا ذات نهج يغاير المذهب القرآنى فى التناول ، ومن الخطأ كل الخطأ أن نقسر كتاب الله على مقاييس بشرية لا ترتقى لأوجه الرفيع .

بين الجزالة والرقة

لا يوجد لدينا معجم تاريخي يبين تطور الكلمات على مر الزمن لنعرف متى انتقلت كلمة الجزالة ، مثلا من معناها اللغوى إلى معناها النقدى فالبلاغى . لأن ذلك يعيننا على التحديد الدقيق والإيضاح الكاشف ، وإن كنا نعرف أن المدلول الأول للكلمة يعطى معنى القوة والكثرة ، فالحطب الجزل لغة هو القوى العود الذى تصبر النار بعض الوقت على التهامه ، ثم قيل — على سبيل المجاز — رجل جزل إذا كان ذا عقل قوى ، وشعر جزل إذا تماسك وقوى أسلوبه ، وإذن ففى الجزالة قوة تقابل الرقة .

ولعل مما يؤيد ذلك أن رجال النقد الأدبى قد استعملوا الجزالة بادىء أمرها النقدى فى الموازنة بين الفرزدق وجرير ، وقد نقل عنهم أبو الفرج الأصبهانى فقال « فأما قدماء أهل العلم والرواة فلم يسووا بينهما — يريد الفرزدق وجرير — وبين الأخطل لأنه لم يلحق شأوهما فى الشعر ، ولا له مثل ما لهما من فنونه وهما فى ذلك طبقتان ، أما من يميل إلى جزالة الشعر وفخامته وشدة أسره فيقدم الفرزدق ، وأما من يميل

إلى أشعار المطبوعين وإلى الكلام السمح السهل الغزل فيقدم جريرا ».

هذا رأى قدماء أهل العلم والرواية — كما نقله صاحب الأغانى — فقط أفردوا الفرزدق بالجزالة لفخامة الشعر وشدة أسره فأوحوا إلى الأذهان أن الجزالة لن تكون إلا مع الفخامة والجلجلة والغرابة لأن هذه أوصاف الكثيرة الكاثرة من شعر الفرزدق ، كما قرروا أن السهولة ذات السماحة واليسر تقف من الجزالة موقفاً مقابلا كموقف الفرزدق من جرير في رأيهم أيضاً ! مضى الرأى على ذلك فى التاريخ الأدبى فصار الشعراء ما بين رقيق وجزل واتضح ذلك غالباً فى أمر كل شاعرين متعاصرين يتنازع عليهما الناس ، فابن رشيق مثلا يقول فى العمدة عن أبى تمـــام والبحترى « فأما حبيب — يريد أبا تمام — فيذهب إلى حزونة اللفظ وما يملأ الأسماع منه مع التصنع المحكم طوعا أو كرها يأتى للأشياء عن بعد ، ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة ، وأما البحترى فكان أملح صنعة وأحسن مذهباً فى الكلام يسلك منه دماثة وسهولة ومع إحكام الصنعة وقرب المأخذ لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة » فابن رشيق وإن لم يذكر الجزالة والرقة باسميهما فقد عبر عنهما بدلالتيهما حين جعل أبا تمام يذهب للحزونة وما يملأ

الأسماع والبحترى يسلك مسلك الدماثة والسهولة وقرب المأخذ، وهل الجزالة والرقة غير هذين ؟

وموضع النظر فى ذلك كله أن هؤلاء النقاد ألزموا كل شاعر بمسلك خاص لا يتعداه حين قسروا أفراداً منهم على الجزالة وآخرين على الرقة ، مع أنهما يختلفان باختلاف الأغراض الشعرية ، إذ أن مثل الفرزدق له أن يجزل ويصلب حين يهجو ويمدح ويفخر ، وليس له أن يتكلف ذلك حين يرثى من أعماق قلبه ، أو يهفو — فى بعض لحظات صفائه — إلى الغزل الصادق غير المصنوع ، وكذلك نرى جريراً يضطر كثيراً إلى الحزونة والجلجلة حين يهجو ويناقض ، فكان الموقف الشعرى هو الذى يطبع الشاعر بطابعه ، لذلك كان من العسير أن نجد شاعراً جزلا دائماً وآخر رقيقاً دائماً .

وأوفى من تحدث عن الجزالة والرقة ابن الأثير فقد تعرض فى المثل السائر إلى تفصيل أوضح ، فقال فيما قال « والألفاظ تنقسم فى الاستعمال إلى جزلة ورقيقة ، ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه ، فالجزل منها يستعمل فى مواقف الحروب ، وفى قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك ، وأما الرقيق منها فإنه يستعمل فى وصف الأشواق وذكر أيام البعاد وفى استجلاب المودات وملاينات

الاستعطاف وأشباه ذلك ولست أعنى بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متوعراً عليه عنجهية البداوة بل أعنى بالجزل أن يكون متيناً على عذوبته فى الفم ولذاذته فى السمع وكذلك لست أعنى بالرقيق أن يكون ركيكا سفسفاً وإنما هو اللطيف الرقيق الحاشية الناعم الملمس كقول أبى تمام :

ناعمات الأطراف لو أنها تلـ بس أغنت عن الملاء الرقاق

وإذن فصاحب المثل السائر قد اهتدى إلى حقيقتين هامتين : أولاهما أن الجزالة والرقة تتبعان الأغراض الشعرية وفق طبيعة الموضوع ومنحاه ، وثانيتهما أن الجزالة ليست هى الغرابة والتوعر وهى لا تمنع العذوبة واللذاذة كما أن الرقة يجب أن تبعد عن الركاكة والإسفاف فلا يهبط الشعر إلى شىء منهما ! وقد رد بذلك على من ظن أن حشد اللغويات المجلجلة جزالة تملأ الفم ، وهى من الجزالة بعيد بعيد ، كما اتجه فى استشفاف إلى أن الرقة قد توجد مع الأسر ومتانة النسج !

ولعل التفسير النفسى للانتاج الأدبى يكشف الغطاء بجلاء عما حاول القدماء من النقاد أن يقولوه بدءاً وتعقيباً ، إذ أن الأديب

حين يسجل مشاعره يعبر عن طبيعة متأصلة فى نفسه ، والألفاظ ليست إلا رموزاً لما يجيش فى الخاطر عن طبع ، وإذا كان الناس يختلفون عنفاً وعطفاً ، وقوة ورقة فكل إنسان يحس من الخواطر والمعانى وفق ما يتماثل مع طبعه ومنحاه فإذا لجأ إلى القوة والأسر فلأن خواطره من الصلابة والتماسك بحيث تنحو به منحى الجزالة وإذا انحدر تعبيره الأدبى سلسا عذبا فلأن مشاعره من العذوبة واليسر بحيث تنحو به منحى الرقة ! وإذا كانت الطبيعة البشرية لا تقف فى تيارها الشعورى عند اتجاه معين لا تتعداه بحيث يبقى الصلب صلباً أبد الدهر كما يصبح السهل سهلا طوال حياته ، فان اختلاف هذه المشاعر هو الذى يحتم على الشاعر أن ينوع بين الجزالة والرقة وفق ما تتسم به مشاعره من انفعال أو هدوء وشموخ أو اتضاع ، هذا إذا رجع الشاعر إلى نفسه واستقى من ينبوعها كما يفيض فى جيشانه وهدوئه معا ، أما إذا تعمل وتكلف واصطنع الجزالة والرقة دون أن ينقل عن خاطر صادق فهو إذن صانع ينظم لا شاعر يعبر . ومثل ذلك ما قاله ابن هانىء الأندلسى فى الغزل .

أصاخت فقالت وقع أجرد شيظم

وشامت فقالت لمع أبيض مخذم

وما ذعرت إلا لجرس حليهـــا
ولا رمقت إلا برى فى مخدم

إذ يصف حسناء تترقبه وقد سمعت ضجة هائلة ففزعت ورأت وميضاً ساطعاً فخافت ، فزعت إذ زعمت الضجة وقع حوافر فرس قوى سابح ، وخافت إذ توهمت الضوء لمع حسام باتر ، وكأن بطلا فوق الحصان يحمل سيفاً يوشك أن يهوى به عليها ، وما هذه الضجة فى الحقيقة ـ كما لفقها الشاعر ـ إلا صوت حليها فوق صدرها وبين معصميها ، وما هذا الضوء إلا وميض الخلخال والقرط تتزين بهما ! إن المعنى تلفيق ذهنى لا تنضح به تجربة ، وإن الصياغة قد كدرت هذا التلفيق وباعدت كثيراً بينه وبين النفس فما يتقبله قارىء بارتياح ، وقد حسب ابن هانىء أنه باستعمال كلمات الأجرد الشيظم والأبيض المخذم والبرى فى مخدم قد سلك مسلك الجزالة الفخمة ، وهو فهم عامى لا أدبى ، لأن الجزالة ليست غرابة اللفظ بحال ، فقد يكون الأسلوب بعيداً عن الغريب ، وهو جزل متماسك جاءت جزالته من تماسك كلماته وترابطها ترابطا صادقا حين تعبر عن معنى مترابط متماسك فتنقل عنه فى قوة متمكنة بحيث يحاكى تمكن الأسلوب القولى تمكن الخاطر الشعرى . فقول الحطيئة مثلا :

أقلوا عليهم لا أبا لأبيكم
من اللوم أو سدوا الفراغ الذى سدوا
وتعذلنى أفناء سعد عليهم
وما قلت إلا بالتى علمت سعد

هو قول جزل بلا شك وليس فيه لفظ غريب نظن أن القوة قد انحدرت منه ، ولعل ابن الأثير حين قال ولست أعنى بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشيا متوعرا عليه عنجهية البداوة بل أعنى بالجزل أن يكون متينا مع عذوبته فى الفم ولذاذته فى السمع ، لعله كان يرى الجزالة قوة معنوية تنتقل من صياغة صادقة متماسكة لمعنى قوى متماسك، وإن جاءت الألفاظ سهلة سلسة إذ أن تماسك المعنى وترابط النظم قد أحدث كلاهما من القوة ولكن ما لا يحدثه اللفظ الغريب ، واللفظ الغريب لا يحدث قوة إطلاقا إلا إذا صادف مكانه الصادق من التجربة وإلا فهو حجر ثقيل فى طريق القارىء يرهقه ويضنيه ، أفلح ابن الأثير إذن فى حديثه عن الجزالة والرقة ، وبخاصة حين أشار إلى أن من الجزالة ما يعذب ويلذ لأن العذوبة واللذاذة هما بعض صفات الرقة دون نزاع ، ولهذا التداخل المتصل فر الكاتب البليغ الأستاذ أحمد حسن الزيات رحمه الله من سرد هذه الأوصاف النقدية إلى أوصاف غيرها

تكون أكثر ضبطا وتحديدا حيث قال فى كتابه الأصيل (دفاع عن البلاغة) .

« تقرأ فى كتب النقد والبلاغة فتجد من صفحة إلى صفحة سلاسل من الوصف الجزاف تتلاحق على الكلام البليغ فلا تحدده ولا توضحه، ذلك لأن أكثرها من الألفاظ التى أشاعها الكتاب فى الناس من غير تقييد ولا تحديد فظلت معانيها مبهمة ، ودلالتها شائعة ، من ذلك قولهم: الجزالة والسهولة والعذوبة والرقـة والدقة والخفة والقوة والسلاسة والرصانة والنصاعة والوضوح والصدق والطلاوة والحلاوة والمائية والصنعة والسبك والحبك والسمو والشرف والجلال إلى آخر هذه النعوت المتداخلة التى لا تعين حداً ولا تبين مزية » والأستاذ الزيات رحمه الله عذره حين يرى الكتاب يملئون الصفحات بأوصاف متداخلة دون تحديد ! فيميل إلى ألفاظ نقدية أخرى حصرها فى الأصالة والوجازة والتلاؤم ، ولـكن المشكلة لم تحل بعد لأن التلاؤم معنى إجمالى سيفصله ناقد غير الزيات بألفاظ لا تخرج عن مضمون السلاسة والقوة والجزالة والرقة فيعود ثانية إلى هذا التداخل الذى فر منه الأستاذ ! وأنا أرى أن الناقد الجيد يستطيع أن يضع اللفظ النقدى موضعه الصحيح ولن يضيره أن يستعمل لفظتى الجزالة والرقة إذا تحقق ماتشيران إليه من سمات ، فلنبق عليهما غير ناسين ما أكده ابن الأثير .

هذه مقدمة لابد منها لدراسة الجزالة والرقة فى الأسلوب القرآنى ، ومنها نعرف أن الجزالة جزالة موضوع لاجزالة كلمة أو بيت أو آية ، فالذين يقفون عند الكلمة وحدها فى النص الأدبى أو يتجاوزونها إلى البيت الواحد أو الآية المفردة يبترون السياق بترا ، وكذلك الرقة لا تكون فى لفظة منقطعة من سياقها ، كما نعرف أن التماسك الآسر لا يكون بقوة الألفاظ وحدها بل بما تعبر عنه من مواقف قوية تتطلب التلاؤم بين اللفظ والمعنى أو بين الشكل والمضمون كما يقال فى هذه الأيام ، ويقتضى ذلك أن يكون الأديب صادقا كل الصدق فى نقل الخواطر ، شديد الشعور بتبعيته الأدبية التى لا تجمل زركشة اللفظ وزينته مسحة ظاهرية لا صلة لها بالنبع الحقيقى الذى يجيش فى أعماق النفس ، إذ أن رسالة البيان الأولى هى إظهار ما بالنفس من الحقائق إظهاراً يوضحه الخيال الكاشف والنظم الموحى والجرس المعبر ، فإذا جاء ذلك كله بعيداً عن الخلجات النابضة أو مقنعا بستائر زائفة من حجب الصنعة فلا أداء ولا بيان .

وما دامت الجزالة والرقة كلتاهما ترجمان إلى الموضوع ، فإن الاستشهاد عليهما من آيات القرآن الكريم لا يتم إلا بعرض نص كامل يرسم موقفا تاما تتضح به سمات الجزالة إذا انتمى إليها القول

أو صفات الرقة إذا اتسم بها النص ، وفى الشاهد الواحد لكل من الناحيتين مايعطى الأنموذج الكاشف للنظائر والأشباه وإخال القارىء قد اشتاق إلى التطبيق بعد أن طال به المطاف حول التعريفات والحدود

ولنبدأ بالجزالة فنختار لها هذه الآيات الرائعة من كتاب الله ، قال تعالى « الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة ، كذبت ثمود وعاد بالقارعة ، فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ، وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ، فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ، إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية ، لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ، فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه ، إنى ظننت أنى ملاق حسابيه فهو فى عيشة راضية ، فى جنة عالية ، قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية ، وأما من أوتى كتابه بشماله ، فيقول : يا ليتنى لم أوت كتابيه ، ولم

أدرما حسابيه ، ياليتها كانت القاضية ، ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ، إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين، فليس له اليوم هاهنا حميم ولا طعام إلا من غسلين ، لا يأكله إلا الخاطئون(١) » .

وبتأمل هذه الآيات نجد أن المشهدين اللذين يتكفل بعرضهما هذا النص الكريم من أقوى المشاهد الإنسانية روعة وإدهاشا وأخذا بالألباب والأحاسيس ، مشهد الماضى وقد عرفت أخباره من قراءة التاريخ ورواية الأخبار واستطلاع الآثار ، ومشهد الآتى وقد جاءت به النذر فى الكتب المنزلة من توراة وإنجيل وقرآن وهما معاً يتشابهان دهشة وقوة وأخذا بالنفوس والألباب وإن كان مشهد القيامة من الروعة والإدهاش بحيث لا تقاس به مصارع المكذبين من عاد وثمود وآل فرعون والمؤتفكات ! هذه القوة العاتية فى الموضوع تتطلب مثيلتها فى العرض فكرة وتصويرا وتعبيرا ، بحيث تكون عناصر الأسلوب وحدة متلائمة اللون والمنحى والإيقاع متجهة إلى إبراز هذه الصلابة الحية فى معرض آخذ من معارض البيان الصلب القوى فمن ناحية اللفظ تأتى كلمات الحاقة والقارعة والآخذة والرابية والطاغية والريح الصرصر العاتيه والدكة الهائلة والنفخة الواحدة والسماء المنشقة

(١) الآيات ١ — ٣٧ من سورة الحاقة .

الواهيـة ذات جرس يأخذ بمنافذ الأسماع ، ويأتى تـكرار بعضها
فى أساليب من الاستفهام ذى التهويل والتخويف والزجر ثم من الخبر
ذى التقريع والتهديد والتنديد والترهيب ، كما تقصر الفواصل قصرا
يجعلها ترن فى السمع رنينا لا يقطعه طول العبارة بل يلح على الأذن
إلحاحاً بهذه الفاصلة ذات الوزن الرتيب . . وذلك ـ كما نرى ـ يستمد
جزالته الآسرة من طبيعة الموقف المعبر عنه ، وهو موقف تتعدد فيه
المشاهد المفزعة المتشابهة النهايات فقوم يهلكون بالطاغية وقوم
يهلـكون بريح صرصر عاتية وقوم يؤخذون أخذة رابية ! كم يحمل
اتحاد الفواصل فى هذا العرض المهدد من أدوات الترويع ما يكاد يخلع
القلوب الجاحدة والعقول المنـكرة ، ليـكون منه تذكرة تعيها الأذن
الواعية ! ! فإذا انتقل الحديث من الماضى إلى المستقبل ، فإنه يفتتح
بما يفوق الرجفات السابقة هولا إذ ينفخ فى الصور نفخة واحدة
فتطير الأرض والجبال طيرانا يعبر عنه هذا التصوير الآخذ لينفرج
ذلك كله عن مشهد الحساب والعرض ، تنطق به الفواصل القريبة ذات
النبر المتقارب ، فتوقد فى الشعور ما يلهبه ويزكيه ، وهذا من ناحية
اللفظ ، أما من ناحية المشاهد التصويرية فأنت لا تستطيع حصرها حين
تختلف على عينك فى سرعة وامضة وكأنك تجاه شريط ينقل لك قصة
الحياة متخطيا حدود الأبد إلى ما بعد الحياة من مواقف العرض

والحساب ! ومع هذا الانتقال المفاجيء من الدنيا إلى الآخرة فإن الجو هو الجو ، واللون هو اللون ، ومهما اختلفت شدة الترويع بدءا وخاتمة فإن هذا الإختـلاف بين مشاهد النقمة فى الحياة ومشاهد الحساب فى الآخرة لا يضائل شيئا من وقعه الآخذ على الشعور الإنسانى لأن أهون هذه المشاهد يحمل من العنف والترويع ما يعصف بالرواسخ من شم الجبال ، ها أنت تفجأ بالحاقة حتى إذا علمت خبرها وجدت ثمود تهلك بالطاغية وعاداً بالريح الصرصر العاتية ، تظل سبع ليال وثمانية أيام حسوما فتترك القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ! إن المرئي يشهد الريح الصرصر ساعة واحدة فلا يأمن على نفسه لشدة ما ينتظر من الهول فكيف بهذه التى امتدت سبع ليال وثمانية أيام !! ويتوالى الشريط السريع الراعب بمشاهده المؤسية ليعرض فرعون والمؤتفكات وقد أخذتهم أخذة رابية ، فإذا التقط القوم أنفاسهم بعض الشيء وأنسوا لقول الله إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ، فاجأهم الكارث الكارب بالحديث عن المستقبل يوم العرض ، فسمعوا الصور ينفخ نفخة واحدة ورأوا الجبال بأرضها تحمل طائرة إلى حيث لا يعلمون والسماء تنشق ليظهر على أرجائها ملائكة الله يحملون عرشه ! فلا أرض ولا سماء ولا جبال يمكن أن يتستر بها متستر حين يعرض القوم ولا تخفى منهم خافية !

ثم ينفرج الموقف عن جماعتين تؤتى إحداها الكتب باليمين فيصيح صاحبها مستبشرا ﴿ هاؤم اقرؤا كتابيه ﴾ وكأنه لم يكن يصدق بالنجاة فيقول متعجبا ﴿ إنى ظننت أنى ملاق حسابيه ﴾ أما الثانية فتؤتى كتبها بالشمال فيضج صاحبها صارخا مولولا ﴿ ياليتنى لم أوت كتابيه ولم أدر ماحسابيه ياليتها كانت القاضية ماأغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه ﴾ !

وتشتد المأساة حين يؤخذ الظالم فيغل ، ليصلى الجحيم ويسلك فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا ! !

مشاهد قوية مؤثرة بمضمونها المؤثر الرائع ، نطق بها التعبير القرآنى جزلا بفواصله ونظمه وتصويره ليحقق من وراء ذلك كله قضية البعث الأخروى التى قامت عليها الدعوة الإسلامية لتؤكد عدالة السماء فيما سيكون من ثواب وعقاب وحشر وميزان ضاربة المثل بما تورط فيه الكفرة من السالفين حين عصوا السماء فأخذتهم القارعة وأهلكوا بالريح الصرصر والطاغية ، ليكون منهم تذكرة المعتبر تعيها الأذن الواعية ! .

لك أن تقرأ هذا النص الكريم مرة ثانية لتجده يعطى أنموذج الجزالة البيانية فى معرضها الحقيقى حين تكون ملائمة لموضوعها الأدبى فتستمد قوتها لا من اللفظ الغريب أو البحر المتعدد بل من روعة

الموضوع وقوته وتماسكه حين يتكفل بعرضه بيان حى مصور ، يلج إلى الأعماق والمسارب ، ويأخذ العقول المدركة بما يأتى به من مكر محكم ، وتصوير نابض ، ونغم رنان .

ولنا أن نترك الجزالة إلى الرقة لنقدم أنموذجها الأدبى من قول الله عز وجل فى سورة غافر :

« وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ، وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ، وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ، ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ، قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ، وقال الذى آمن ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ، مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد ، وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد ، يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فماله من هاد ، ولقد جاءكم

يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ، الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله ، وعند الذين آمنوا ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ، وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطلع إلى آله موسى وإنى لأظنه كاذبا ، وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب ، وقال الذى آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ، ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار ، من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ، وياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار ، تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ، لاجرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار ، فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد ، فوقاه الله سيئات مامكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب »(١)

يعرض هذا النص حواراً هادئا فى جلسة رسمية ، يقف فيها

(١) الآيات ٢٦ — ٤٥ من سورة غافر .

فرعون موقف الجريح الحائر ، بعد أن ظهرت نبوة موسى مؤيدة بالمعجزات الخارقة إذ آمن به السحرة مصدقين ، وكانوا عدة فرعون على تكذيبه ، فهو مضطر إلى الملاينة مع أنصاره بعيداً عن جبروته المتمثل فى قوله من قبل «لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين» وقوله مخاطبا السحرة « آمنتم به قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين » إنه يضطر إلى اصطناع الملاينة حتى بين حاشيته الخاصة فيقول متطلعا « ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد » ، متعللا بأنه يخاف أن تكون دعوة موسى فسادا فى الأرض وإضلالا للناس ، وهذا دائما منطق الطغاة حين يلصقون مثالبهم بأعدائهم ظالمين مفترين ! هذه الملاينة من جانب فرعون الطاغية تستدعى ملاينة مسرفة اللين من رجـــل مثالى يؤمن بموسى سرا فى حاشية فرعون كاتما إيمانه ، ليقوم بدور إيجابى فى إزاحة الشر عن نبيه ، وهو حذر كل الحذر أن يجاهر بدينه فيؤاخذ به مؤاخـــذة لا تنفع نبيه فى شىء بل تزيد اللهب اشتعالا فى صدر فرعون حين يرى دعوة السماء تتسلل إلى أقرب الناس إليـــه فى قصره ومن بين حاشيته وآله وخاصة ندمائه ! إنه

ليفكر فى أسلوب ناعم سلس رقيق يجذب سامعيه إلى منطقه الصحيح فيتساءل فى تلطف : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ثم يخاف أن يتهم بنصرة موسى فيعمد إلى الإيهام الحذر قائلا : وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ، ولاشك أن منطق هذا المؤمن قد أوقع جماعة فرعون فى حيرة إذ يضمن لهم السلامة فى كلتا الناحيتين لأن موسى لو صدق لانتفعوا بصدقه ولو كذب لاختص بسوء العاقبـــة وحده ، وكأن القوم قد بدءوا يفكرون فى صواب هذا المنطق الدقيق فلم يفجئوه برد يدفع ، وانتهز الرجل هذه البادرة فعجل بقول آخر يؤيد به رأيه جانحا إلى التودد الهادئ فى قوله الملزم : ياقوم ـ ثم يكررها فيما بعد لحكمة ظاهرة ـ لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ؟ وكأن القوم قد أخذوا يفكرون فيما يسمعون ، فخاف فرعون على سلطانه وعجل يقـــول فى غيظ ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد وهو قول متخاذل لا يحمل حجة أو يدفع منطقا ولكنه يصدر عن جبروت متسلط يرى الإنقياد التام لكافة ما يراه فيقول : ما أريكم إلا ما أرى ، ثم يحذر أن يكون القوم قد مالوا لمنطق غريمه فيعجل

بقوله المموه المتودد : وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ! ولكن مؤمن آل فرعون يستمع إلى إجابة الطاغية فلا يجد فيها ردا منطقيا على قوله، فيسير فى طريق الدفاع ملاينا ، متلطفا كدأبه ، فينادى قائلا : ياقوم، ليشعرهم أنهم جماعته وذوو قرباه وأنه ليس غريبا عنهم فيغشهم النصح، بل قريب يمتنع أن يشك فيه شاك ! ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلما للعباد ! والإستشهاد بالتاريخ كان وما يزال موضع العبرة والإقناع فهو الماضى الحى كما يحلو للناس أن يقولوا دائما فى تأكيد دراسته وقد فطن هذا الناصح إلى أثر هذا الإستشهاد فأتى بالشاهد البعيد حين تحدث عن نوح وعاد وثمود ، وجاء بالشاهد القريب حين تحدث عن يوسف الصديق ، وتاريخه جزء من تاريخ القوم فى مصر فهم به أدرى وأعلم ، وذلك بعد أن فصل بين القريب والبعيد بما يحرك مكامن الشعور ويهيج سواكن الإنفعال من التذكير باليوم الآخر وعقباه المنتظرة ذات الهول المصور فى قوله : وياقوم أنى أخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فماله من هاد ، وكأن فرعون قد عدم الحجة المنطقية مع هذا الذى يصدر عن إقناع بصير واستشهاد مفسر ، فرأى أن يترك خطابه ويتوجه

بالحديث إلى هامان متهكما أو صادقا فى قوله « ياهامان إبن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا ! وكأن هذه المراوغة الزائفة حفزت هذا المؤمن الغيور إلى أن يلح فى نصحه فصاح بالمجتمعين : ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر وأنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ! ثم رأى أن يكشف النقاب سافراً عن إيمانه بعد أن أعرضت عنه القلوب الغلف ، وأغمضت دونه العيون العمى فقال فى نصح صارخ : « ياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار ، تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم ، وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار لا جرم إنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله ، وأن المسرفين هم أصحاب النار فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد ! وطبيعى ألا يجد منطقه القوى الصريح ردا مقنعا يدفع القول بالقول بل وجد الغيظ يستكن فى الصدر ليدبر مؤامرة تعصف بهذا المارق العنيد ، فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب .

إن بعض المتحدثين عن الرقة فى الأسلوب الأدبى يظنونها لاتكون إلا فى وصف الأزهار والرياحين أو فى أحاديث الغزل والحنين أو أبيات الرثاء والتأبين دون أن تتعدى ذلك إلى أساليب الحجاج وبراهين النقاش ، وقد فاتهم أن الرقة البيانية منحى إنسانى يصور عواطف التودد ونوازع الملاينة ، لافى رسائل الشوق، ومواقف العتاب فحسب ، بل فى كل موقف يجنح إلى الاستمالة العاطفية والإقناع العقلى معا ، وهاهو ذا مؤمن آل فرعون قد صور القرآن جداله الهادىء فى آيات سلسلة شفافة تمثل أعلى ماتنحسر عنه روائع الفن الأدبى فى أعلى مراقيه ، متخذا من أساليب التودد والاستعطاف وبراهين الإقناع والإفحام مايشف عن عاطفة هادئة يستقر ينبوعها الرائق فى صدر صاحبها كما تستقر صفحة الغدير الهادىء بعيدة عن هبات الريح ! فهنا تمثلت الرقة الأسلوبية تمثلا يتعاون على أدائه الفكر الواضح والتصوير اللامح والتعبير الوامض . وتلك هى عناصر الأسلوب الأدبى تتضح فى كل بيان جزل أو رق ، صلب أو لان .

وتسألنى أتجتمع الجزالة والسلاسة معا فى موضوع واحد ؟ فأقول لك نعم ، وهذا ماحام حوله ابن الأثير دون أن يقع عليه

إذ قال فى بعض ما سبق الاستشهاد به « واست أعنى بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشيا متوعراً عليه عنجهية البداوة ، بل أعنى بالجزل أن يكون متينا على عذوبته فى الفم . ولذاذته فى السمع ، وكذلك لست أعنى بالرقيق أن يكون ركيكا سفسفاً وإنما هو اللطيف الرقيق الحاشية الناعم الملمس » وهو قول تعلم منه أن الرجل قد حوم ولم يقع ، حوم حين قال «أن يكون متيناً على عذوبته فى الفم ، ولذاذته فى السمع » ولم يقع لأنه لم يقل أن الجزالة والرقة معاً وليدة الموضوع المتحدث عنه ، وقد يكون من الموضوعات ما يتطلب الهدوء والإنفعال معاً فى وقت واحد فيلزم كاتبه أن يصدق فى النقل عنه هدوءا وانفعالا ، بحيث يرق ويسلس حين يلمس جانب الهدوء ويقوى ويجزل حين يصور حدة الإنفعال ، وقد يكون الحديث عن هدوء الخاطر وحدة الانفعال مما يقال عن البشر إذا صدروا عن عواطفهم الذاتية ،أما كلام الله عز وجل فأعلى وأقدس من أن نرجع به إلى مقياس بشرى دون شك ، غير أنا نقول أن المواقف التى يتعرض القرآن لتصويرها منها المواقف الصاخبة التى تتطلب المواءمة فى التعبير عنها فتنحو منحى الجزالة ومنها المواقف المشرفة الهادئة التى تتطلب المواءمة فى التعبير عنها فتنحو منحى الرقة ، وقد استشهد ابن الأثير

على الجزل من الألفاظ يقول الله عز وجل .

« ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون، ووفيت كل نفس ماعملت وهو أعلم بما يفعلون، وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاؤها فتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ، قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فبئس مثوى المتكبرين ، وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين، وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ، وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين (١) » .

ثم عقب صاحب المثل السائر على النص القرآنى بقوله .

« فتأمل هذه الآيات المضمنة ذكر الحشر على تفاصيل أحواله ،

---

(١) الآيات ٦٨ — ٧٥ من سورة الزمر .

وذكر الجنة والنار ، وانظر هل تجد فيها لفظة إلا وهى سهلة مستعذبة على ما بها من الجزالة ، وإيضاح هذا الكلام كما أراه أن النص القرآنى قد تضمن مواقف مختلفة منها العنيف الصارم مثل النفخ فى الصور والصعق وسوق الكافرين زمراً إلى جهنم ومناقشة الخزنة واستحقاق الكافرين للعذاب ، ومن هذه المواقف المشرق السار مثل إشراق الأرض بنور ربها وسوق الذين اتقوا إلى الجنة زمراً وترحيب الخزنة بالقادمين وحمدهم الله إذ صدقهم وعده فأورثهم الجنة يتبوءون منها حيث يشاءون فنعم أجر العاملين فاقتضى هذا التنوع مزج الجزالة بالرقة على نحو تشرئب إليه الأعناق .

وأظننا بعد هذه الأمثلة الثلاثة ـ فى الحديث عن الجزالة والرقة. قد بلغنا بعض ما نريد من الايضاح والتحديد فى موضوع حتى يحتاج مزيداً من الايضاح والتحديد .

بلاغة الإقناع

الإنسان بطبيعته يميل إلى التأمل والتفكير مهما ضعفت ثقافته وقلت خبرته فالطفل الصغير يحاول أن يعلل ما يشهد ، والهمجى المتوحش يفكر فى أسباب ما يحدث ، وإن كان تفكيرهما معاً لا يسير

على طريق صحيح ، فإن كل إنسان كائناً ما كان . فيلسوف صغير يجب أن يكون له فهمه الخالص وتفكيره الذاتى ، لذلك كان الأسلوب البليغ فى أرقى مجاليه يحمل طابع الفكر الرصين ، لتصغى إليه الانسانية المفكرة بطبيعتها الأصيلة ، وما خلدت روائع الآداب فى شتى العصور إلا بما تحمل من أفكار حية قوية صيغت فى صور جميلة مطبوعة

وابحث أنت عن بواهر الخالدات من الآثار ترى أن الخلود كان نصيبها الدائم لما تحمله من بوارق تضىء العقل وهزات ترنح الاحساس ، والقرآن الكريم كتاب البشرية الخالد قد بلغ قمة تأثيره بما أتاحه من النظر الفسيح فى ملكوت السموات والأرض ، وبما هدى إليه من عناصر الصدق والحق والجمال التى تتفق مع الفطرة الانسانية الخالصة فكان ذلك مصدراً حيا لقوته ، حيث خاطب الانسانية بما جبلت عليه أن ترين عليها غشاوات الجهل والأنانية فأقنعها كل الاقناع بما أتى به من نظم ، وبدد شبهات المرتابين بما ضرب من مثل ، وكان فى إقناعه البليغ ساداً ثغرات الشك لدى من أخلص للحق قلبه ، فانقادت إليه ملايين البشر عن حب وإيمان .

جاء القرآن برسالة ضخمة تمحو آثار الشرك والوثنية وتحارب التقليد والتبعية ، وترسم قواعد الفضيلة من حب للخير ، والتئام لشمل

ودعوة الإسلام كما تؤكد الثواب والعقاب في يوم تشخص فيه الأبصار ، وتلك رسالة الأجيال جميعها لا رسالة جيل واحد فوجب أن تحاط بأقوى الأدلة وأن تؤيد بأصح البراهين ، لتميل إليها العقول المفكرة مهتدية طائعة عن يقين جازم ، واعتقاد حاسم ، لا سيما أن الذين خوطبوا بالقرآن أول ما خاطب الناس كانوا أصحاب جدل وحجاج يشققون الحديث ، ويفرعون الكلام ، ويضربون الأمثال وهم بعد أصحاب البلاغة الناطقة في مناظرات ترن وخطب تتجاوب ، فلا بد أن تأتيهم الرسالة الجديدة بما يخلب ويروع ، ولن تكون العاطفة وحدها مجال التأثير ، ببوارق الألفاظ ، وشقشقة الأصوات واتحاد الفواصل ، بل لا بد أن يكون العقل البصير المتئد وسيلة هذا الإقناع الملزم في منطق لا يأتيه الباطل عن شمال أو يمين ، وكان القرآن بليغاً أعظم البلاغة حين دعا إلى انفساح النظر ، واتساع التفكير وحين نعى على مخالفيه إهمالهم حرية التفكير وانقيادهم الأعمى للتقاليد المتوارث ، والآيات المتواترة في ذلك أذيع وأشهر من أن نستدل بها الآن ، فقد أوسعها الكرام الكاتبون بسط تحليل ودقة استنتاج ولكننا نكتفي منها بقول الله عز وجل « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم

آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون(١)».
إذ كانت العلة الأصيلة فى دخول النار هى إهمال نعمة العقل فيما اختص
به من النظر والتدليل ، فقد خلق الله لجهنم أناساً لا يكلفون أنفسهم
واجب التأمل والتفكير مع مالهم من قلوب تفقه وأعين تبصر وآذان
تسمع ، فهم فى ذلك كالأنعام بل هم أضل ، لأن البهائم لم تعط التفكير
على نحو يهدى إلى الحق ، وهؤلاء قد أعطوه فكفروا به حين أهملوه.
فهم الغافلون دون نزاع !

وقد جاء القرآن بالإقناع البليغ فى أسلوبه الحاسم الصريح فبسط
من الشواهد ما يقنع ، وسرد من الأدلة ما يلزم وجاء من التعليل
والتحليل بما يهـــدى إلى التى هى أقوم ، وطبيعى أن تساق الأدلة
القرآنية مساقاً أدبياً واضحاً تتفتح له العقول والقلوب معاً فتشرق عن
نور الإيمان . فما جلب السأم إلى النفوس غير الصياغات الصارمة الجافة
التى حذقها علماء الكلام حين جعلوا نقاشهم فلسفياً يأخذ مأخذ
المقدمات المبشرة والنتائج الضيقة ، ثم يترامـــون بالمصطلحات ،
ويتراشقون بالتعريفات فيسدلون على الحقائق ستاراً ، لا يكاد يخلص
منه القارىء فى يسر مطمئن ، ولئن استطاع هؤلاء الكرام أن يقنعوا
أنفسهم بما سردوه من حجج وبراهين .

---

(١) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف .

فقد ظلت كتبهم الحافلة ومؤلفاتهم الجهيرة وقفاً عليهم وحدهم وعلى من يحذو حذوهم فى مدارسة قضايا المنطق وبراهين الفلسفة ، بحيث لا يهتدى بها قارىء غير متخصص ، وكان القرآن أدرى بطبيعة البشر حين ساق براهينه العقلية فى وضوح أدبى سافر ، وفى منطق عقلى كاشف ، فأسفر عن ضوء ساطع يبدد ظلمات الحيرة ، ويقود النفوس الشامة إلى مراشد الطمأنينة والسكينة ، وهذه هى رسالة البيان فى أرقى مجاليه . وأفسح آماده إنها رسالة إقناع وإمتاع وتدليل وتأثير .

ولن تجد أهدى إلى حقائق النفس ، وأنفذ إلى شعاب القلب ، وأدعى إلى اطمئنان العقل من قول الله عز وجل « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ، إن أجرى إلا على الله وهو على كل شىء شهيد[1] » إذ أن الآية الأولى قد دعت إلى حقيقة علمية يؤكدها اليوم علماء النفس والإجتماع حين يحذرون من خطر الإستهواء الجماعى إذ يخضع الناس لرأى عامى مشترك على ما به من ضلال دون أن يفىء كل منهم إلى تفكيره الشخصى ونظره الذاتى فيما يقول ويعمل ، لذلك دعت الآية إلى أن

---

(١) الآية ٤٦ من سورة سبأ .

ينفرد كل شاك بنفسه أو بصاحبه ثم يتأمل تأملا ذاتياً ليعلم بعد تفكير أن محمداً ليس بمجنون ! وأن ما يقال عنه بصدد ذلك قد صدر عن جماعة حاقدة تستهوى الاتباع دون نظر ذاتى منفرد يزن الأمر وزناً عادلا محايداً لا يتحيف ! استمع إلى ما يحدثه قول الله : أعظكم بواحدة ، ثم تصور لهفة السامع على انتظار هذه الواحدة الهينة السهلة التى لا تتعدد ! فإذا استمع بعد ذلك إلى قوله : أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، فإنه سيضطر لا محالة إلى أن يخلص بعض الوقت من تأثير الجماعة الهائجة المتحدية ليخلص إلى نفسه أو إلى صديقه — مثنى وفرادى — فيستعرض حياة محمد منذ عرفه متأملا كل ما صدر عنه وحاكما من تلقاء نفسه على عقليته وطبيعته وهو حكم ينتهى لصالح الدعوة الإسلامية لو صدر عن حيدة وإنصاف لا عن تعصب وإجحاف .

أما الآية الثانية فتبرىء صاحب الرسالة من إنتظار المغنم الذاتى وهو ما يحرص عليه أصحاب الغرض الشخصى فما أجره إلا على الله . وهو على كل شيء شهيد .

بهذا المنطق البليغ سار القرآن فى هديه فبلغ من الإقناع مبلغاً

لا يمكن أن يتاح لكتاب سواه ، وله فى هذا المضمار روائع خارقة ليست فى مكنة بشر ، فقد يأتى بالإجابة الموجزة كقاذفة مدمرة قبل أن يأتى بالسؤال ، بحيث يصبح بعدها لغواً عابثاً فقد مدلوله ، وذلك لن يكون إلا عن اقتدار قوى متمكن يصيب الهدف لأول طلقة تصوب ، استمع مثلا إلى قول الله عز وجل « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحي العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ، أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم [1] » .

استمع إلى قوله قبل السؤال ـ ونسى خلقه ـ تجدها تين اللفظتين قد حملتا الإجابة الصائبة عما يسأل عنه من حديث ؟ فإذا جاء بعدها من يحيى العظام وهى رميم كان القارىء قد فهم الرد فهما لا يحتاج إلى تعقيب ، ثم إذا استمع بعد ذلك إلى قوله : يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، كان هذا الرد تأكيداً لرد سابق يفصل مجمله فيزيد رسوخه فى النفس تثبيتاً وتوطيداً ، فإذا جاء قول الله بعد ذلك : الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ، كان بمثابة برهان عملى تجريبى لا يقبل الشك إذ أتى بالمحسوس المشاهد ليدل

(١) الآيات ٧٨ — ٨١ من سورة يس .

على الغائب المرتقب ، ثم يجيء قول الله أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، موضع تصديق لا يقبل الشك بعد أن توالت الأدلة وتضافرت البراهين ! بهذا الإقناع المكين قد بلغ القرآن مبلغه من النفوس فأدى رسالته الخالدة حين أخرج الناس من الظلمات إلى النور ، فى عصر كان فيه رؤساء الأديان جميعاً يحرمون النظر العقلى فى ملكوت السماء والأرض ويدعون إلى الإيمان المطلق بكل ما يتفوه به الكهنة دون نقاش أو حجاج ، ويعدون النظر الدينى وقفا على طبقة معينة تتسنم الرئاسة الدينية لتصدر أوامرها الخاصة كما تشاء مستندة إياها للقوة العليا ، حتى نزل القرآن فدعا إلى الحجاج العقلى وفسح آماد النظر الفكرى وهدى العيون إلى آفاق وضيئة تشرق بالنور والخير ، فشعت رسالته الفكرية لتسلط ضوءها على المعتقدات الدارسة والطقوس الشائهة ، فكان رسالة تنقذ العقل بالإقناع ، وتحفظ مكانة الفكر بالتدليل والإستشهاد .

وإذا كانت القضايا الفكرية التى ناقشها القرآن الكريم مما لا يتسع لبسطه فصل من كتاب ، فإننا نختار منها ثلاثا تحتل أهمية خاصة فى كتاب الله لنرى عن طريق الإقناع البلاغى كيف ناقشها القرآن بأسلوبه المقنع ومنطقه الكاشف ، تلك هى قضايا الوحدانية والبعث الأخروى

والرسالة النبوية ، وهى خلاصة القضايا الفكرية التى تشغل أصحاب الرسالات السماوية ، ونحن فى مجالنا البلاغى لن نجمع النصوص المختلفة لكل قضية من هذه القضايا الجليلة ، فذلك من شأن مؤرخى الرسالات ومسجلى العقائد ولكننا فى المضمار الأدبى نكتفى بأنموذج واحد لكل قضية من القضايا الثلاث لنرى كيف استطاعت البلاغة العربية فى أفصح كتاب نزل بلسان العرب أن تبسط الدليل الكاشف ، وأن تأتى بالبرهان السافر على صحة ما تقول ، ثم نقول لهؤلاء الذين يعالجون هذه القضايا معالجة كلامية ذات مصطلحات ومحترزات . لقد أحدثتم من الجفاف العقلى والغموض الفكرى ما حال دون الاهتداء والاحتفاء وما سلب القارىء لذة الارتياح والانشراح فهل لكم أن تتجهوا إلى منهج جديد فى العرض الهادف والتوضيح الكاشف ، وحسبكم القرآن ونبدأ بأنموذج لقضية الوحدانية فنذكر نصاً كاملا يعرض الدعوى ويقيم الدليل فى بيان مبسوط كاشف وإذا كانت كتب العقيدة تكتفى باقتطاع الدليل مهما كان جزءاً من آية أو آية من آيات مثل « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » أو مثل « وما كان معه من آلهة إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض » أو مثل « أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شىء »

إذا كانت كتب العقيدة تكتفي بهذا الاقتطاع الجزئى فاننا فى مجال التحليل البلاغى لأسلوب القرآن نعمد إلى نص قرآنى كامل لنرى تسلسل الحجة القرآنية بدءا وخاتمة ، فنعرف كيف يطرد البيان القرآنى إطرادا يملك قوة الإقناع ، ومتانة الدفع وبراعة الحجة فى نسق شفاف يجذب الشعور كما يجذب الإدراك ، ويوقظ التفكير كما ينبه الوجدان وتلك رسالة البيان الحى ذى الهدف المرموق والمثل المنشود .

قال الله عز وجل فى سورة الأعراف من حديثه عن الوحدانية المتنزهة عن الشريك .

« هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، فلما تغشاها حملت حملا خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين ، فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون ، أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ، إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ، ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم

أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها ، قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ، إن وليي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ، وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ، خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين(١)» .

فانظر معى كيف ابتدأ الحديث بقضية الخلق ، حتى ليظن المتعجل أن المجال بعيد عن حديث الوحدانية ، وما درى أن القرآن يمهد من الحديث عن المشاهد الملموس لحديث عقلى منطقى ينزه الخالق جل وعلا عن الشريك ، لقد خلق الله العالم الإنسانى من نفس واحدة وآنسها بزوجها ليأنس إليها وتأنس إليه ، فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به ، وذلك مبدأ التسلسل البشرى على صحيفة الوجود ، وأن تجد أجمل كناية وأخف موقعا من قوله «تغشاها» ، فلما أثقلت دعوا الله ربهما أن يهبهما النسل الصالح فاستجاب ! هذه هى المقدمة التى يظنها المتسرع بعيدة عن حديث الوحدانية دون أن يدرى أنها سيقت لترسم المفارقة الصارخة إذ يقابل الخير بالشر والبر بالعقوق ! لقد آتاهما الله صالحا كما دعواه فكان المنطق يدعو للشكران لا للكفران ! ولكن النتيجة

---

(١) الآيات ١٨٩ — ١٩٩ من سورة الأعراف .

فقد تكشفت عن عقوق آثم تنطق به هذه الآية «فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما» لم يعترفا بوحدانية الخالق بل جعلا له شركاء مع أنه تنزه عن الشريك ! هنا لا يزال الظمأ يتطلب الرى فربما كان الشريك المزعوم خالقا ذا اقتدار، فلينظروا إلى أصنامهم المعبودة كيف يشركونها مع الله، أيشركون مالا يخلق شيئا ؟ أيشركون مع الله مخلوقا لا يستطيع الخلق فينزلوه منزلة المقتدر المصور البارىء ! وإذا وقع هؤلاء المشركون فى مأزق وطلبوا النصير من قادر قوى أيجدون أصنامهم تكسب لهم النصر وأنى! وهى لا تستطيع أن تنتصر لنفسها فكيف تنصر من يلوذ بها من البلهاء، إن الأمر من الوضوح بحيث لا يتطلب الإقناع الملح والنقاش اللجوج فما لهؤلاء الغافلين أن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم فسواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ؟ لو كانت هذه الأصنام بشرا يتحرك لوجدت شبهة ما حول عبادتها فتحتاج إلى دفع يعصف بها ! ولكنها كما يرونها سامدة ساكنة جامدة ألها أرجل تمشى بها ؟ أم لها أيد تبطش بها ؟ أم لها أعين تبصر بها أم لها آذان تسمع بها ؟ كل ذلك لم يكن فيا للخجل من عبادة حجر لا يمشى ولا يبطش ولا يبصر ولا يسمع ! وإذا كنتم لا تزالون تعتقدون فى تأثيرها النافذ فأمامكم التجربة عن عيان ها نحن أولاء نتحدى قدرتها المزعومة فادعوا شركاءكم

ثم كيدونى بها سريعا دون إبطاء وإمهال إذا استطاعت أن تكيد ! لست معكم فى انحداركم المسف نحو هذه الأحجار فإن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين أما أصنامكم هذه فلا تستطيع النصر لكم بل لا تستطيع أن تنصر نفسها وقد جوبهت بالهوان واتسمت بالذلة والحقارة بعد أن قال القرآن فيها ما قال ! ومع ذلك فسآخذ بالعفو وآمر بالعرف معرضا عمن يناوىء الحق جهلا ويؤيد الباطل عن تخبط ضرير ! اقرأ النص القرآنى مرة ثانية واستعرض حججه الدامغة حجة حجة ، واسأل نفسك ألا تجد المنطق المقنع فى تأييد الحق وتسفيه الباطل ؟ ألا تجد البراعة الحية فى سياق الاعتراض والتعجيل بالجواب ، ألا تجد فى توالى الاستفهام ما يدعو إلى اليقظة والانتباه ؟ ألا تجد أن القرآن قد قدم من الحجج الناسفة ما يحرم أن يتخيل القوم شريكا للخالق المنفرد ؟ دع ذلك وانتقل إلى الناحية النفسية التى تتجلى فى هدوء النقاش ، واطمئنان الحجة ، وسكينة الدفع ، إنك لا تسمع فى مجال الاقناع الهادىء ما تعهد لدى البشر من ضجيج الانفعال وتسرع الثورة ، وافتعال الحماسة لأن الصدق الواضح لا يحتاج إلى متكأ ضعيف من جلجلة الألفاظ ، وعلو النبرات بل ينحى ذلك جانبا إلى سلامة البرهان وصدق الدليل ووضوح النتيجة ، وإذا كان العهد بالمقتصر

فى ساحة النقاش أن يتشامخ ويختال حين يفحم خصيمه بالحجة ويلجمه بالدليل ، فقد ضرب القرآن المثل الأعلى فى توجيه المنتصر وجهة إنسانية لاتعرف الغطرسة الكاذبة والاستعلاء المقيت وذلك حين ختم الدفاع القوى بقوله المتسامح « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » . وما أظن صاحب حيدة منصف يقرأ هذا النص ثم لا يقلب كفيه عجبا من قوم جعلوا فى آذانهم وقراً ، وعلى أعينهم غشاوة فهم لا يبصرون ولا يسمعون .

هذا شاهد أدبى يقدم أنموذجا واحداً لقضية الوحدانية فى كتاب الله ، ونحن نرى أن الشاهد هذا قد اقتصر على مناقشة عبادة الأصنام وحدها ، تاركاً لغيره من الشواهد القرآنية أن يناقش عبادة البشر من الشركاء لدى من جعلوا أنفسهم آلهة كفرعون أو من اتخذهم الناس آلهة دون رغبتهم كالمسيح عليه السلام ، إذ كان من خصائص القرآن أن يقتصر فى الشاهد الواحد على ناحية واحدة يسلط عليها الضوء نقاشا وحجاجا ليكشف ما يرين عليها من شبهات ، وهى طريقة جديدة يقبلها الخاصة والعامة . أما الخاصة فهم أدرى باستقامة النهج ووضوح الدليل ، وأما العامة فليسوا صابرين على تتابع الحجاج إذا ازدحمت قضاياه وتعددت حججه ، وإذا كان من بين نواحى الإعجاز

فى القرآن أنه كتاب الخاصة والعامة معا ـ كما سنشير إلى ذلك فى موضعه ـ فإن مراعاته المقتضى البلاغى للحجاج قد أكدت جدوى رسالته الإصلاحية حتى لدى الكثيرين ممن أعماهم الله عن هدايته ، إذ حرصوا على الإستفادة من منحاه التوجيهى وهديه النفسى وإن لم يسيروا تحت لوائه الدينى .

كما لذ على الكفر كتاب الله المشرك

ولك أن تتصور معى تأثير بيان حى نفاذ عم نفعه المخالفين والمؤيدين على السواء ، لتعلم أنه صدر من أفق عال لا يطار إليه بجناح .

أما دليل البعث فنختار شاهده الأدبى من قول الله عز وجل فى سورة (ق) :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ ق والقرآن المجيد . بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب ، أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد ، قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ، بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج . أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى

لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد، والنخل باسقات لها طلع نضيد، رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ، كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان لوط ، وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد ، أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد ، ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ، ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد ، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ، لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ، وقال قرينه هذا ما لدى عتيد ، ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد ، مناع للخير معتد مريب ، الذى جعل مع الله إلها آخر فألقياه فى العذاب الشديد ، قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد ، قال لا تختصموا لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد . ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد ، يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ، وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ، هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ، من خشى الرحمن بالغيب وجاء

بقلب منيب ، ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود ، لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ﴾(١) .

ها أنت ذا تقرأ النص الكريم فتجده يقرع الآذان قويا بهذه الصيحة المنبهة (ق والقرآن المجيد) ليتصل بالقضية مباشرة بعد هذه الصيحة الموقظة فيقول (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب) لم كان العجب من دعوة النذير ؟ لأنه أقام أساسها على البعث الأخروى بثوابه وعقابه فصاح الصائحون (أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما ذلك رجع بعيد) تأمل حذف جواب الشرط ودلالة ما بعده عليه لتعلم كيف يصور القرآن دهشات النفوس وهزات العقول بما يحذف ويجمل كما يصورها تماما بما يذكر ويفصل ؟ إن منكرى البعث لا يتصورون أن تعود الأجسام بمدفنائها فيستحيل هباء التراب ثانية إلى دم ينبض وإحساس يفور فيرد عليهم القرآن قائلا (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ) وإذا كانوا يستهولون ذلك ويطلبون الدليل المقنع على صحته فلينظروا فى ملكوت السموات والأرض ليجدوا الدليل ! هذا الدليل الذى ردده القرآن أكثر من مرة حين قال (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع ، سمكها ، فسواها

---

(١) الآيات ١ — ٣٥ من سورة ق .

وأغطش ليلها وأخرج ضحاها، والأرض بعد ذلك دحاها ،أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها) وحين قال في إيجاز حاسم لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون) هذا الدليل الملزم يبسطه القرآن هنا في إقناع هادىء وطمأنينة راضية فيقول (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل زوج بهيج، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد، والنخل باسقات لها طلع نضيد، رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج) إن قول الله عز وجل (كذلك الخروج) بعد أن قدم البراهين والشواهد على إحياء الأرض بعد موتها بما أنزل من ماء وأنبت من زرع وأخرج من رزق ليعطى قياسا منطقيا يجل عن أن يقاس بمنطق أرسطو وخلفائه من بعده إذ أتى بالنتيجة الصحيحة بعد مقدمات واضحة لا تقبل اللبس ، فاذا جاز لمنكر أن يقف قليلا لديها ، فلينكر معها مايرى من زرع وضرع وشجر وحيوان ! وهيهات ! ثم ينتقل القرآن في فصاحة صادقة من هذه الأدلة الإستقرائية الملزمة إلى أدلة تاريخية يعرفها المنكرون تمام المعرفة ويفحمون بالشاهد الصريح حين يصبح القرآن بهم « وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون » ينتقل القرآن من الدليل

الاستقرائى إلى الدليل التاريخى فيقول ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان لوط ، وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد ﴾ فإذا انتهى إلى ذلك لا يترك قضية البعث لتفهم من السياق بل يحرص على الصراحة الواضحة حين يسأل فى تعجب (أفعيينا بالخلق الأول ؟) وهو سؤال لا يمكن دفعه إذ أن الخلق الأول حقيقة واقعة يشهد لها وجود المنكرين بأجسامهم وأرواحهم فاذا أنكروها فلينكروا أنفسهم وهذا ما لا يستطاع بحال ! ويالة من إلزام يأخذ على المنكر منافذ إحساسه ومسارب تفكيره فلا يجد غير السكوت المغيظ وقد عز عليه أن يعترف بالواقع الصريح ولا أحلى بعد ذلك من التهكم بهم فى قول الله (بل هم فى لبس من خلق جديد !)

وقد ألف القرآن أن يتحدث عقب كل إقناع ملزم عن البعث الأخروى باعتباره حقيقة واقعة لم تعد تقبل الجدل بعد اتضاح البراهين وقيام الأدلة ، وحديثه فى سورة (ق) يتجه وجهة التصوير الواقعى لما سيكون صارفا النظر عن إنكار المنكرين حيث انهارت أسسه بعد المحاجة الدافعة والرد الهادم ، وقد قال أستاذنا الأكبر محمود شلتوت رحمه الله فيما يشابه هذا الموقف فى تفسير سورة الأنعام مانصه ص ٣٩٣ من تفسيره الشهير :

« وهنا نوع آخر من الاستدلال على البعث بقطع النظر فيه عن كل ما تضمنته هذه الأنواع من توجيه النظر إلى العلم والقدرة وإلى ما تقتضيه العدالة والحكمة ، وإنما يعرض شأن البعث باعتباره أمرا كائنا ليس موضع إنكار ولا محلا لريب ، وتصور فيه مواقف المنكرين ، وما سيكونون عليه فى ذلك اليوم ، وكأن القرآن يقول لهم فى هذا النوع أريحوا أنفسكم من الإنكار ، وأريحوا الرسول من الجدل والمناقشة ، وتعالوا فاعرفوا الواقع الذى سيكون وهذا هو الأحرى بكم وما يجب أن تعرفوه » .

هذا ما قاله المغفور له الأستاذ شلتوت ونحب أن نضيف إليه أن القرآن يقدر ما لكل إنسان من التخيل التصورى للأحداث فى مسرح ذهنه قبل حدوثها ، فهو حين يتحدث عن المستقبل فى صورة الواقع المشاهد بعد أن أكد حقائقه المنتظرة تأكيدا لا يقبل الشك إنما يرضى الرغبة النفسية فى إستطلاع الآتى استطلاعا واقعيا يدنو من الحاضر ولا يكاد ينفصل عنه ، ولنضرب المثل بإنسان يعتزم القيام برحلة سارة إلى مكان جميل يعرفه من قبل ، فإنه قبل شروعه فى السفر يتخيل ما سيلقاه فى رحلته من كائنات وأشياء سابحا بخياله إلى شجرة يستظل بها ونهر يتمتع بمرآه ونسيم يستنشقه ممزوجا بعطر الزهور :

لقد أكد القرآن للناس حقائق البعث الأخروى ثم طفق يتحدث إليهم بما يعرض من مشاهد هذا البعث عرضا تصويريا ينقل إليهم المسموع في صورة المنظور ، وها هوذا بعد أن قال (أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد) يتحدث عن الإنسان وما توسوس به نفسه إليه من خير أو شر يعلمها الله لينتقل به من الدنيا إلى الآخرة بعد أن جاءت سكرة الموت بالحق ونفخ في الصور وجاءت كل نفس معها شهيد وسائق ولا نجد أبلغ من إعادة النص القرآني إذ يعجز كل شارح عن تصوير مدلوله الأدبي بما ينقل من حوار ويشمل من أحاسيس ويلقى من ظلال ، ويومض من إيحاء ، يقول الله عز وجل :

(وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ، لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد، وقال قرينه هذا ما لدى عتيد، ألقيا في جهنم كل كفار عنيد، مناع للخير معتد مريب، الذى جعل مع الله آلها آخر فألقياه في العذاب الشديد، قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد ، قال لا تختصموا لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد ا ما يبدل القول لدى) ثم ينتهى الموقف بذهاب المنكر إلى جهنم والمؤمن إلى الفردوس .

إن صاحب التفكير الجانح إلى النظر ، ليجد في تتبع سورة (ق)

ـما يقنع عقله بحقيقة البعث فيظل يرى الشـــــاهد خلف الشاهد مثبتا مؤكدا حتى إذا بلغ حاجته من الإقناع أمتع حسه الوجدانى بما يقرأ من تصوير يتنازع فيه المختلفون ويترامى بالتهم المتنازعون وتتنوع الشخوص والمشاهد ثم يرتفع الستار بعد أن ينحصر الأمر بين الجنة والنار ! وإذن فقد قدم القرآن قضية البعث هذا التقديم الممتع لتصير بعد ثبوتها الراسخ حقيقة لا تقبل الارتياب

ـقى أن نتحدث عن قضية الرسالة ، وهى الثالثة فى حاجة إلى أدلة مقنعة شافية لأن اختصاص محمد صلى الله عليه وسلم بها دون العرب قد جعل للجحود النفسية أثرا قويا فى محاولات عدة لتزييف الحقائق ، والثبات على الباطل، إذ أن أعلام المشركين لم يكونوا يطيقون مبدئيا أن يروا فردا من بينهم يختصه الله برحمته هذا الإختصاص ، فالتصميم على الإنكار كان وجهتهم التى تتلمس كل دليل لتمحوه ، وكل برهان لتزيفه ، حتى بلغ بهم الأمر أن قال قائلهم فيما حكاه عنه القرآن الكريم « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » وكان المعقول أن يقول قائلهم لو خلصت النيات وصدقت الضمائر : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا الصراط المستقيم ، وقد سلك القرآن طريق الإقناع البصير فى دعوتهم إلى

الإيمان حين أمر رسول الله أن يقول « قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلى وما أنا إلا نذير مبين » وأن يقول « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون » ثم ضرب المثل بالسابقين من الأنبياء فأخذ يسجل أحداثهم ويشرح مواقفهم بما يدل على صعوبة الجهاد ، ومشقة النضال ، ومن هنا كانت قصص المرسلين أبلغ دليل على صحة الرسالة المحمدية ، وكانت الإفاضة فى تبسيطها من أظهر الأدلة على تأييد الدعوة الإسلامية ، ونحن فى مجالنا التطبيقى سنختار سورة نوح عليه السلام دليلا على قوة الإقناع القرآنى فى تأكيد الرسالات السماوية ، وسيرى القارىء كيف يتشابه المعاندون فى القديم والحديث بغيا وعتوا حتى ليكادون ينطقون بلسان واحد ، ويرمون عن قوس واحدة ، لذلك كان كل رد قرآنى على السابقين من المنكرين هو فى حقيقته رد جديد على الحاضرين من المشركين ، وإذا كانت عاقبة السابقين قد افتضحت فيما قصه الله من نهاياتهم الفاجعة فإن عاقبة الحاضرين لن تخرج عن غايتهم الوبيئة ، وما ظلمهم الله .

بدأت سورة نوح بالحديث عن رسالته وما أعقبها من جدل وشقاق ، وسامعها المتأمل ـ وبخاصة من ووجهوا بها من المشركين لأول نزولها فى

مكة - يلحظ موقفين متواليين لا موقفا واحدا ، فهو حين يسمع قول نوح - فيما حكى الله عنه - « يا قوم إنى لكم نذير مبين ، أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ، يغفر لكم ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون » أقول حين يسمع ذلك ينتقل من موقف نوح إلى موقف محمد حيث لم يقل غير ما قال نوح ، فإذا تلا بعد ذلك قول الله على لسان نبيه « انى دعوت قومى ليلا ونهارا ، فلم يزدهم دعائى إلا فرارا ، وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا إستكبارا ، ثم إنى دعوتهم جهارا ، ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا » وجد هذا القول يتفق مع ماووجهت به الدعوة المحمدية فى مكة تمام الإتفاق وكأن نوحا ينطق عن لسان محمد فيما قال ، أما إعتماد الدعوة الإسلامية على الدليل المقنع فشأنه فى ذلك شأن كل دعوة سماوية نزلت من عند الله إذ تعتمد فى براهينها القوية على المشاهد المألوف فى ملكوت السموات والأرض مما لا يجرؤ عاقل على إنكاره إلا إذا سلك سبيل الجحود الحاقد والتحدى المغرض ، وقد كانت براهين نوح فى دعوته هى نفسها براهين محمد التى عبر عنها القرآن بقوله « فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ، مالكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا ، ألم تروا كيف

خلق الله سبع سموات طباقا ، وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ، والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ، والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا » وما أظن القارىء بحاجة إلى أن نكشف له عن قوة التدليل بما ترسل السماء من مطر وما تنبت الأرض من حب وما يبزغ فى الأفق من قمر وشمس ، فقد ألمعنا إلى مثل هذا التدليل الواقعى المحسوس فيما تحدثنا عنه من سورة (ق) ، أما قول نوح « رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ، ومكروا مكراً كبارا ، وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ، ولا يغوث ويعوق ونسرا ، وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا » فهو فى لبابه قول محمد عليه السلام حين شكى تجبر المترفين من المشركين ومؤامراتهم المتربصة بالرسالة كل متربص وهيامهم المشغوف باللات والعزى ومناة وهبل كما هام سابقوهم بود وسواع ويغوث ويعوق ونسر !! وقد كانت العاقبة فادحة لدى المغرقين من قوم نوح ، وهى نفسها عاقبة كل متكبر عنيد ! هذا مثل من تأييد قضية الرسالة بين أمثال مختلفة سجلها الذكر الحكيم فى إقناع مبين لتسن طريق الحجاج ، الملزم بالمنطق ، المؤيد بالتاريخ ، المشرق بالوضوح ، لتدعو عشاق البيان الرفيع إلى الاهتداء بالمنهج القرآنى فيما يزاولونه

من حجاج ، وإذا كنا نرى الآن إختلاف الباحثين فى تحديد طرق النظر حيث يتوخى كل فرد ما يناسب منحاه التفكيرى من مناهج الفلاسفة وأساطين الحكمة ، فإننا نقول لهم لن تبلغوا الهدف الجدير بالنجاح الا إذا أفصحتم عما تقولون إفصاح البليغ الحصيف فجمعتم إلى قوة الإقناع ، سلاسة الوضوح ورصانة التعبير وتلك سبيل القرآن .

بلاغة التصوير

إذا كان القرآن قد أوتى الإقناع المنطقى الملزم فإنه لا يتجه بحديثه إلى الفكر وحده فيلزمه الحجة مكتفيا به عن سواه ، إذ أن فاطر السموات والأرض يعلم أن المعرفة العلمية وحدها لا تكفى فى الانجذاب والتأثير فلا بد معها من غزو لمناطق الشعور ، وبعث لكوامن العواطف حتى يتهيأ السامع إذا سمع والقارىء إذا تلا إلى إنجذاب نفسى يدفعه إلى إعتناق أشرف المبادىء وأحكم المثل ، ولو كانت المعرفة وحدها كافية للهداية لكانت كتب العلم الأرضية الخالصة دليل المهتدى إذا قرئت ودرست ، ولكنك تشهد الناس يقرؤونها مقتنعين ثم يحيدون عن أكثر ما تهدى إليه ، إذ أن العلم شىء والسلوك الإنسانى شىء آخر ، لذلك اتجه القرآن إلى التأثير الوجدانى بعد الحجة

للقمة ليغزو مناطق الشعور الإنسانى بتصويره كما غزا مناطق التفكير العقلى بحججه ، فجـــاء التصوير البيانى فى القرآن آية الآيات فى الروعة والإعجاز .

والصور البيانية فى الأسلوب المطبوع لا تنفصل عن الفكرة بحال ، إذ أن الكاتب الأصيل والشاعر المقتدر حين يفيض كلاهما بإبداعه لا يكتب أفكاره أولا ثم يبحث لهـا عن صور رائعة تخلع عليها الجمال والإشراق ، بل تعانق الفكرة الصورة معانقة دائمة ، فهو يفكر حين يصور ، ويصور حين يفكر ، وإذا جاز لكاتب صانع أن يتعمل صوره بعد أن يكتب فكره،فهو الكاتب الكسيح الذى يلتقط اللفظ مكابداً أعنف الصعوبات ومستجيرا بذاكرة كليلة لا ترشح بمـا يؤكد الطبـع وينبىء عن الإستعداد ، وما محاولة الحديث عن الصورة هنا منفردة عن الفكرة إلا محاولة تحليلية يقوم بها الدارس ليحصى ألوانا خاصة من الجمال الأدبى مؤكدا عدم الإنفصام بين الفكرة وصورتها ، إلا إذا جاز أن تنفصم الروح عن الجسد ثم تبقى الحياة الأرضية على نحو ما بعد هذا الإنفصام، والصورة البيانية فى القرآن الكريم كانت من أقوى أدواته الفنية لأنها ارتفعت به إلى مستوى لا تتعلق به الأوهام ، وقد لاحظ مؤرخو الأدب العربى أن

الشعر قد هبط فجأة فى الفترة التى نزل فيها القرآن وما بعدها على مدى طويل والتمسوا لذلك أسباباً لم تصب مقطع الصواب حين ذكروا أن القرآن ينهى عن الفحشاء والمنكر والشعر طلق فسيح لا يتقيد بمنطق الأخلاق ، وحين ذكروا أن اشتغال العرب بالجهاد غزواً وفتحاً لم يدع مجالا للترف الشعرى ، والوثبات الخيالية فقصر الشعر عن غايته لاشتغال أصحابه بالصيال والنضال ، مع أن معارك الجاهلية لم تمنع أصحابها من الإبداع الشعرى بل أذكت ناره وأشعلت أواره ، والحقيقة التى يجب أن نذكر فى هذا الصدد أن الشعر قد ضعف فى الفترة التى نزل فيها القرآن لأنه فاجأ الشعراء بنمط من التصوير الفذ لا يستطيعون أن يصلوا إليه ، وإذا كان الشعر يعتمد ـ أول ما يعتمد ـ على التصوير البيانى فى سرد الخواطر ورسم المشاعر فإن مفاجأة قائليه بنمط من التصوير الحى كانت من الدهشة بحيث عقلت أكثر الألسنة الشاعرة عن الحديث البارع ، إذ يوازنون بين ما يقولون وما يأتى به الكتاب الخالد من روائع الصور فتنفرج المسافة بينهم وبين ما يسمعون ، وتظل الحيرة مطبقة على عقولهم فإذا اضطروا للقول نطقوا بما يتضاءل دون التصوير القرآنى ، لهذا ضعف الشعر فى عهد الوحى ، واستمر الضعف حتى تليت سورة القرآن تلاوة ملهمة وأصبحت بعض الوسائل الأدبية

التوجيه الفنى الشعرى عدد من يحسنون الفهم ويحاولون الاستهداء والاستلهام .

وأرباب التأليف البيانى يستشهدون أول مايستشهدون بكتاب الله ، إذ وجدوا من أمثلته الرائعة ما يقدم النمط الرائع لما يبتغون ، ولكن ولوع المتأخرين منهم بكثرة التفريع وتنوع التقسيم قد جعل استشهاداتهم القرآنية مبتورة ناقصة لا تعرض العرض الأدبى الوضىء ، فالذين يتحدثون عن تشبيه حسى بمعنوى ومعنوى بحسى ، وعن وجه شبه خيالى أو وهمى ثم يشتقون هذه التفريعات إلى غيرها حتى تقرأ كتاباً مثل السعد أو الإيضاح فتجد نفسك فى أدغال متوغلة لا تكشف عن بهاء البيان فى شىء بل تقيد الصور البلاغية بأغلال تسمها بميسم الضيق ، وتخلع عليها من الظلام ما يكاد يمنع لألاءها المتوهج ، هؤلاء الذين يبالغون فى هذه التقسيمات المنطقية ينسون رسالة الصور البيانية فى التأثير الوجدانى فيطمسون رونقها بما يحاولون إخضاعها له من اصطلاحات ، وطريقة المتقدمين من ذوى الإرث العربى فى الفصاحة هى التى تسعف فى إيضاح الصور البيانية فى القرآن إيضاحا تنفتح له النفس إذ يفيض بالجمال والبهاء .

لقد حسب بعض هؤلاء المتأخرين أن الصياغة البيانية ، تشبيهاً

كانت أو استعارة ليست إلا إلصاق صورة بصورة على نحو عقلى يجمع بين الصورتين ، فأغفلوا الناحية النفسية التى يجب أن تكون مجال الارتباط الجامع ، بل ربما ساقهم الإيغال فى شعاب التقسيم المنطقى إلى استحسان صور ملفقة خلقها الافتعال المريض دون أن تجذب لها مناطق الإحساس ، فهى لا تكاد تخرج من خطوط تتقابل متساوية الطول أو مختلفة لترسم على الصحيفة ما ترسمه المربعات الجامدة أو المثلثات الهامدة مما لا يرتبط بالشعور الإنسانى بسبب ، وماظنك بمن يستظرف مثل قول القائل :

كأنما النـــار فى تلهبها والفحم من فوقها يغطيها
زنجيــة شبكت أناملها من فوق نارنجة لتخفيها

أو قـــوله :

وكأن محــــــمر الشقيق إذا تصـــوب أو تصعد
أعــلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجـــد

إلى عشرات من هذا النمط الهابط تملأ كتب البلاغة المتأخرة ، ويجهد المؤلفون فى إبرازها خلال هذه التقسيمات الجامدة ، ومن العجيب أنك لا تجد فى هذه التلفيقات الذهنية مثالا يرتفع إلى عصور الطبع ،

فكلها إيحاءات مريضة لأناس لا يعرفون رسالة التصوير الأدبى فى تفتح النفس، وازدهار الوجدان . إن القرآن الكريم كتاب التصوير البيانى الأول، لا أقول ذلك عن حماسة مسلم يتعصب بل عن دراسة كاتب يتحقق ، وإذا أراد مخالف ان يقرن به صوراً رائعة فى أمهات الشعر العربى فليقرأ معى آيات التشبيه فى كتاب الله ثم ليحاول أن يأتى لها بمثيل .

لقد كان أبو هلال العسكرى أصدق طبعاً ، وأهدى بصيرة حين اقتصر فى الصناعتين على أربعة أوجه جعلها موضع الجودة فى التشبيه ، وقد مهد للتدليل عليها بأمثلة من القرآن وحده وكأنه شاء أن يقدم من أنماط البيان العربى نهجا لا يقلد قبل أن يعرض ما يرتضيه من كلام الناس وموضع النقد لدى أبى هلال أنه فى استشهاده يقتطع الآية اقتطاعا فلا يكاد يشير إلا لموضع التشبيه ، بعيداً عن السياق فيأتى مبتوراً لا يشفى غلة وذلك مثل إقتصاره على قول الله (فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) ومثل استشهاده بقول الله « فكانت وردة كالدهان » وقوله (كمثل الحمار يحمل أسفارا) وعذر أبى هلال فيما يخيل إلىّ أنه يعتقد أن كل قارىء يحفظ كتاب الله ، وعليه أن يصل الآية بما قبلها وما بعدها لتتم الصورة ، ولئن جاز

هذا فى معرض الاستشهاد الفقهى أو الكلامى فإنه لا يجوز فى معرض الاستشهاد البلاغى، إذ أن المجال مجال عرض كاشف يبين الصورة كاملة الملامح مستوية القسمات ، فلكل لفظ إيحاؤه الأدبى ، ولكل تركيب دلالته الفنية ، فكيف يأتى الدارس البليغ بالمشبه به وحده دون المشبه فى بعض ما نقلناه عنه من تمثيل ! وها نحن الآن فى عصر لا يكاد يلم فيه القارىء بنصوص الكتاب الكريم غفلة وقصوراً فما عسى أن يصنع حين يجد أبا هلال يكتفى فى الاستشهاد البيانى بمثل قول الله (كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً) وقوله (كأنهم أعجاز نخل خاوية) ! مع أننا لو سلمنا أن القارىء يحفظ الكتاب الكريم لكان على مؤلف الصناعتين أن يهديه إلى منابع الحسن فيما اختار من مثال ، ولن يكون ذلك ــ وبخاصة فى هذا المجال ــ دون البسط والتحليل .

وقد أفردت التشبيه بالخصوصة لأن الاستعارة والكناية كلتيهما مما يجوز أن تظهر فى لفظ أو جملة ؛ أمثال قول الله (أرسلنا عليهم الريح العقيم) وقوله (والصبح إذا تنفس) وقوله (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً) وقوله (وأرسلنا الرياح لواقح) إلى غير ذلك مما اشتهر التمثيل به ! على أن الأكمل فى مضمار التأليف البيانى أن تذكر الآية كاملة مبسوطة لتفيض بدلالاتها الفنية تشبيهاً كان التصوير

أو استعارة أو كناية ! ونحن نظلم الصورة الأدبية حين نقصرها قصراً على هذه الألوان الثلاثة لأن الصورة بمعناها الأوفى أعم وأشمل ، فهي تمثل الخاطرة القوية في تسلسلها وتتابعها وتلوينها وإيحائها ووزنها وإيقاعها ولا تنحصر بها في معنى كهذا الذي جرى عليه المتقدمون ، وقد فطنت الكتب المعاصرة إلى هذا الانحصار الجزئي فانتقلت الصورة إلى معناها الكلي لتشمل المقال الموحد والقصيدة العضوية ، مما يرسم اتجاه خاطرة متماسكة تمتد وتتكون وتفيض . وقد برع كتاب الله في تصوير المعاني الذهنية في صور حية ، وفي تصوير الحالات النفسية في مظاهر حركية ، كما أجاد التشخيص الفني حين خلع الحياة على بعض المواد الجامدة فجعلها ذات انفعال وتفكير وعاطفة ، فأنت مثلا لا تجد في تصوير المعاني الذهنية أبلغ من قول الله (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين . لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين) كما لن تجد في تصوير الحالات النفسية أبلغ من قوله (قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين) ، أما التشخيص الفني فما أكثر

ما تعددت ألوانه فى كتاب الله ، ونستشهد عليه بقول الله عز وجل « بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا . إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا . وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبورا . لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبورا كثيراً » أما الصورة الحكائية على النحو الذى تميل إليه الكتب المعاصرة فتجد أمثلته البارزة فى تصوير مواقف اليوم الآخر وفى سرد قصص السابقين وغيرهما مما تتوالى فيه المعانى متشابكة فى جو بيانى من التصوير الكاشف والإيحاء المعبر ، واللفظ الوامض ! وفى القرآن سور بأكملها تستقل بهذا المنحى الأدبى ، أرجو أن تتاح الفرصة لتحليلها ، إذ أقتصر فى هذا الباب على أنماط من التشبيه الرائع تقدم النماذج الفريدة لهذا اللون التصويرى وما أكثرها فى الكتاب الكريم .

وإذا كانت قضية الإيمان بالله من أولى القضايا التى اتجه القرآن إلى تأكيدها كى يخرج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الهداية ، فإن كتاب الله قد بسطها بسطا مقنعاً لمن كان ذا عقل وألقى السمع فأشبعها إيضاحاً ببراهينه الساطعة وحججه القاطعة ، ثم استمال الوجدان اليها بما أتى به من تصوير بيانى رائع يجلى الحقيقة تجلية لا خفاء بها ولا لبس ، فلنستدل عليها الآن بمثل قول الله :

« الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم . في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب . والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » .

لقد ابتدأت الآيات الكريمة بالنور وختمت به ، لترسم الدائرة التي يجري التصوير الأدبي في نطاقها إذ اختير النور مثلا للهداية المؤمنة كما اختيرت الظلمة مثلا للضلال الكافر ، وفي شعاع النور الوضيء يسير العقل المهتدي آمناً مستريحاً ، وفي ظلام الكفر يتخبط العقل

الضال حائراً تائهاً ! وإذا كان الله نور السموات والأرض ، فقد جعل النور مثلا للهداية بما يرسل من ضوء ، ويهدى من طريق ، وأكد ذلك فى نصوص مختلفة كأن يقول (أفمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) وكأن يقول (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم) .

هذا النور الهادى إلى الإيمان مثله فى قلب المؤمن كمثل مشكاة فيها مصباح ، المشكاة صغيرة محدودة ونور المصباح بها متوهج متألق فهو يملؤها بهاء وإشراقا متوهج متألق لأنه ليس مصباحا كما نرى من المصابيح بل هو مصباح ذو زجاجة وضيئة لامعة كأنها كوكب درى ألاق ، أما زيت المصباح فليس كزيت الناس بل يعتصر من شجرة زيتونة يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ! أنظر إلى الكوة متخيلا وتأمل هذا المصباح السحرى العجيب متنقلا به فى مسرح خيالك إلى حيث تراه شاخصاً أمام عينك يرسل فيوض النور المتلألئة فى بهاء ، ألا تتخيل أن المكان كله نور على نور ، هكذا نور الهداية يسطع فى فى قلب المؤمن إذ يهدى الله لنوره من يشاء ، وهو سطوع يطارد

الظلمة مطاردة لا تسمح ببقاء خيط من غيم يحدث لبساً عارضاً أو شبهة طارئة، بل اليقين كل اليقين والاطمئنان كل الاطمئنان. ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم!

حسب بعض الذين يتقيدون بحقيقة اللفظ دون دلالته أن المثل مضروب لنور الله لا لنور الهداية، وهبوا يتكلفون وجوهاً من التأويل ما كان أغناهم عنها لو تركوا الحقيقة إلى المجاز، وقد زعموا أن أبا تمام مدح أحمد بن المعتصم فقال:

إقدام عمـــرو فى سماحة حاتم   فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

فاعترض الكندى الفيلسوف عليه بأن قال: الأمير لا يشبه بصعاليك العرب، فجمع الشاعر بديهته الحاضرة وارتجل هذين البيتين:

لا تنكروا ضربى له من دونه   مثلا شروداً فى الندى والباس

فالله قـــد ضرب الأقل لنوره   مثــلا من المشكاة والنبراس

وأنا أستكثر أن يقول الكندى عن أمثال عمرو بن العاص (١) وحاتم الطائى والأحنف بن قيس وإياس بن معاوية إنهم من صعاليك العرب

---

(١) يجعله بعض الشارحين عمرو بن جابر الفزارى أحـــد شجعان العرب وما أظن الشاعر عناه.

لأن نار بخوم ينطق بسيادتهم الفائدة ، ومثل الأمير أحمد بن المعتصم يطير فرحا حين يقرن ببطل فاتح كعمرو بن العاص أو جواد طائر الصيت كحاتم أو حليم جم الوقار كالأحنف أو قاض مشتعل الذكاء كإياس ، وإنما هى رواية ملفقة أدى إليها تمحل أبى تمام حين قال مستطرداً دون أن يقاطعه أحد :

فالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلا من المشكاة والنبراس

وأبو تمام شاعر يتكىء على عقله فى اختراعاته الذهنية وأقيسته الشعرية ، ولكنه قد جانب الصواب حين فهم أن الآية تضرب المثل لنور الله على سبيل الحقيقة لا الهداية على سبيل المجاز ! أرأيت كيف يهتدى قلب المؤمن بنور لا ينتهى !! إن الحديث عن المصباح لم ينقطع بعد فسينتقل بالقارىء إلى معنى إرشادى يحرص القرآن على الدعوة إليه ، حين تعلن الآيات أن كوة المصباح ليست فى أى بيت يبنى ، ولكنها تنهض فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب » هذا هو الشق الأول من الحديث وقد ابتدىء بمثل لنور الهداية وختم

بالحديث عن جزاء الأعمال الصالحة عند الله ، أما الشق الثانى فقد بدىء بمثل تصويرى لضياع الأعمال التى يقوم بها الكافرون ظانين أنهم سيجدون جزاءها المرتقب فتضيع هباء دون فائدة ، كما ختم بمثل تصويرى آخر لظلمات الغواية حين يتراكم بعضها فوق بعض فتحول دون الاهتداء ، إنه المثل المقابل لنور الهداية فى بدء الآيات قد جاء فى نهايتها ليطابق بين صورتين تختلفان قدر ما بين الإيمان والكفر من اختلاف !! استمع إلى قوله عز وجل «والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً » تصور لهفة الظمآن الملتاح يلوح له السراب من بعد فيتخيله ماء يشفى الغلة فيطير ملتهب الجوانح إليه حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً !! ليته لم يجده شيئاً ثم أذن له بالرجوع ثانية إلى حيث يظمأ ويلتاح ، ولكنه سيجد الله رقيباً محاسباً يقدم إليه صحيفة أعماله السوداء ليوفيه حسابه ، والله سريع الحساب ! هذا مثل العمل الضائع ، أما صورة الغواية الكافرة فلا نجد أبلغ فى تصويرها من قول الله أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، إن الظلم فى الطريق البرى كارثة تنذر بالهول فما ظنك بها حين تكون ظلمات فى بحر لجى ، ليته كان بحرا هادئا تسكن ريحه

ويبدأ إعصاره ليجد السابح بعض الاطمئنان فى سبحه الممتد، ولكنه بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض، أتصور فى هذا الديجور المتراكب بصيصاً يلوح أو شعاعاً يهدى؟ كيف، والسابح الحائر فى لججه يتخبط فى ظلام رهيب إذا أخرج يده لم يكد يراها، ليروقنى أن أرى تتابع الصور فى قول الله كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها) لأقرن هذه الصور المتلاحقة بما سبق من قول الله (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء) فأرى عطاء من الفن البيانى لم يأت فى كلام إنسان. ثم لأستمع إلى الختام المعجز فى قول الله (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) وهو ختام يرتبط بابتداء التصوير ارتباطاً تكون فيه الآيات بناء متسقاً ذا براعة وإحكام .

ولننتقل إلى مثال آخر للتشبيه الأدبى فى القرآن عن طريق هذا التصوير الرائع .

قال تعالى : (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء

والله واسع عليم . الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فان لم يصبها وابل فطلٌ ، والله بما تعملون بصير . أيود أحدكمُ أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار ، له فيها من كل الثمرات ، وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد . الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم)

تدعو الآيات إلى بذل المال إبتغاء مرضاة الله ، والمال كان

ولا يزال مضنية النفس ومناط الرجاء فالتنازل عن بعضه عن سماح مرتاح يحتاج إلى ذخيرة خلقية فذة يندر أن تتاح لغير الصفوة ممن جبلهم الله بالبذل والإيثار ؛ ولكن الأمر بالصدقة عام لا يخص هذه الصفوة المختارة التى تبذل عن سماح وارتياح وهى بعد من القلة القليلة جوار الكثرة الكاثرة بمنزلة الشعرة السوداء من الثور الأبيض فلا بد من حث زاجر للأنفس الشح التى تعد المال حرزها الحريز ، وروحها الغالية التى لا تكاد تتنازل عنها إلا إذا أجبرت على فراق الحياة ! تلك حقيقة يعلمها البارىء المصور من هذه النفوس التى قال عنها فى بعض ما قال « كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلا لما . وتحبون المال حبا جما » أو قال جل ذكره « إن الإنسان لربه لكنود . وإنه على ذلك لشهيد . وإنه لحب الخير لشديد » فلا بد من أجراس تصلصل لتقرع القلوب فتحيد بها عن الشح إلى الإنفاق ، ولن يكون ذلك إلا بمضاعفة الأجر المرتقب ليعلم الباذل المتصدق أن بره لم يضع هباء بل وضع فى متجر رابح يدر عليه أضعاف أضعاف ما ينفق من مال ، وهذا يقوم التصوير البلاغى بتأثيره النفاذ إذ يتحدث عن مضاعفة الأجر حديثا يدفع الشحيح إلى المسارعة فى البر مسارعة من يضمن الربح الغانم والكسب

الجزيل حين يستمع إلى قول الله «مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم» ! لقد أخذت الحسنة تربو وتزيد حتى اتبلغ سبعمائة كما توضع الحبة فى الأرض فتنشق عن عود يحمل سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة وهى بعد حبة واحـــدة ولـكن الله يضاعف لمن يشاء فلا شك إذن فى مكافأته الغالية ذات الغيث المدرار! ثم من الذى يستحوذ على هذه المضاعفات الجزيلة حين يجود بالإنفاق؟ لقد علم الله من أمراض النفوس البشرية ما يدفعها إلى زلتين خطيرتين إذ تتعالى بصدقتها على الفقراء مباهاة وغطرسة فتندفع إلى المن المستعلى تارة وإلى التفاخر بالعطاء كسباً للاعجاب الأرضى وجاباً للتقدير البشرى تارة أخرى .

مع أنها ما سمحت بالخير إلا بعد أن رأت وعود السماء بمضاعفة الأجر وإجزال المثوبة ، وكأنها لا تقنع بثواب الآخرة وحده حـــين تشرك بالله من تحرص على مراءاته فتنفق المال طمعاً فى نباهة الذكر بين الناس أو تمن به إرضاء لنزعة استعلاء مقيت ! أجل لقد علم الله أمراض النفوس فحذر منها فى تصوير أخاذ إذ قال : « يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس

ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين) فكيف يكون شعور هذا الداعى حين يبذل الحسنة الواحدة منتظراً أن تكون لدى الله سبعمائة كما وعد ثم تكون عاقبته كالعاقبة المتوقعة لحجر من الأحجار عليه تراب قليل جاءه وابل فتركه صلداً لا يقدر على نماء ، واختيار الصفوان فى هذا الموقف مما يناسب الجو التصويرى فكم بين البخيل الذى لا يجود ابتغاء مرضاة ربه بل طلباً للزلفى الدنيوية وبين الحجر الصلد من مشابه فى إمساك الخير ، وفقد الحس وموت الشعور ! إنك حين تريد أن تهجوه أعنف الهجاء لن تجد أبلغ من أن ترميه بقولك : صفوان عليه تراب ! فإذا تركنا هذه الصورة الشائهة لذوى المن والزلفى من الأدعياء فسنجد مقابلا لها صورة وضيئة لقوم أنفقوا أموالهم بالغة ما بلغت من القلة جهد طاقتهم — ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم فكانت صدقاتهم الصادقة الخالصة كجنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل ، إنك حين تريد أن تمدح هؤلاء أطيب المدح فلا تجد أبلغ من أن تقول عن أحدهم جنة بربوة ! أما قول الله فإن لم يصبها وابل فطل فمن أحسن القول وأبلغه إذ يدل على أن الخير الضئيل إذا صدر عن سماحة شاكرة لا تملك ما تمنح منه الكثير

حل محل الـكثرة الهاطلة من ذوى الخير للإطر والسبب المتقاطر لأن الأعمال بالنيات وان يكاف الله نفساً إلا ما أتاها ! ثم أراد القرآن أن يكرر التحذير من المن والمباهاة لما يعلم الله من أناس لصق الحمأ المسنون بعروقهم فلهجوا بالمن والأذى عن فساد وبىء لا سبيل إلى التخاص منه إلا بمشقات المجاهدة ومرهقات المعاناة ، وهيهات ! علم الله عنهم ذلك فصدع أسماعهم بـ حدى الصور المؤثرة حين قال (أيود أحدكم أن تـكون له جنة من نخيل وأعناب ، تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الـكبر ، وله ذرية ضعفاء ، فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت) إن كل فقرة من هذه الفقرات لتحمل من تيارها الـكهربى ما يهز القلوب الغلف والمشاعر الصم فتنأى عن نزوات الضعف ومهاوى الضعة لو رزقت الحس النافذ ، والشعور الحى ! وما ذا عسى أن تقول فى رجل أصابه الـكبر وله ذرية ضعفاء وكان يضع أمله فى جنة يملـكها من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ! هذا الإعصار وتلك النار هما المن الآثم والرياء المقيت ، وقـــد رأيت مبلغهما فى الإبادة والاستئصال . (كذلك يبين الله لـكم الآيات لعلـكم تتفـكرون) !

لا أظن القارىء بعد تلاوة هذه الصور المؤثرة فى حاجة إلى ما يهز أعماقه، ويثير وجدانه، لقد بلغ القرآن به أقصى المبالغ البيانية تأثيراً وانجذاباً، فليصدع سمعه بهذا الأمر الملزم حين يقول « يا أيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد . الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم » وهو أمر يساق بعد أن تفتحت المشاعر وتيقظ الوجدان ! ليجد الذهن المتأهب والقلب السميع .

لا نريد ـ بعد ـ أن نستكثر من هذه الأمثلة الرائعة التى جاد بها التصوير البيانى للقرآن، إذ أن دارس كتاب الله يحس من روعة التمثيل القرآنى ما يهديه تلقائياً إلى عناصر السمو الأدبى فيما يتلو من آيات، ولكننا نلفت النظر إلى ظاهرة عجيبة فى هذا النمط البيانى المعجز، حين نرى كتاب الله يكرر الصورة الأدبية فى سورتين متباعدتين، ويأتى فى كل صورة على حدة من الملامح الداخلية، واللفتات الجزئية ما يظهر جدتها الواضحة رغم اتحاد الإطار العام، وتلك عجيبة نادرة لأننا نعهد بلغاء البشر يكررون صورهم الأدبية

فلا يأتون للقارىء بجديد إذ يستغنى بالبعض عن البعض فيما يقرأ ، أما كتاب الله فيكرر الصورة ليضيف إليها العناصر الداخلية ، ما يفسح مجال التأمل لدى القارىء البصير ، ولنا أن نستدل على ذلك بهاتين الآيتين الكريمتين :

١ — قال الله تعالى فى سورة الحديد « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة ، وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفراً ، ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

٢ — وقال الله تعالى فى سورة يونس « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أونهاراً ، فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » فالإطار الخارجى متفق فى الصورتين ، حتى ليظن المتعجل أنهما متماثلتان ، ولكن الدارس المتأمل يرى فروقا مختلفة توحى بالجدة ، وتمنع التماثل ، فالصورة الأولى

تصف الدنيا واللعب والزينة ، وتنص على أنها موضع المباهاة بالأموال والتكاثر بالأولاد ، والصورة الثانية تطوى ذلك لتصور ازدهار الحياة حين ينزل الماء من السماء فيختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، وتكنى عن ازدهار الأرض بحضارتها وترفها وبنائها وقصورها ومائها بهذه الكناية الرائعة التي يبسطها قول الله تعالى : (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها) وهو بسط أوجزه الله فى الصورة الأولى حين قال (كمثل غيث أعجب الكفار نباته) وكما امتد القول شيئا ما فى الصورة الثانية عن بهجة الحياة فقد امتد بعض الشىء فى بيان العاقبة إذ يقول الله « أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس) وهو ما أنبأت عنه الصورة الأولى فى قول الله (ثم تهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاما) وقول الله (كأن لم تغن بالأمس) مما سار مسير مثل بين الناس إذ يأسون على النعيم الزائل والجد الغارب . وقوله عز وجل فى الصورة الأولى (ثم يهيج فتراه مصفراً) يصور حركة نشيطة للفناء العاجل وكلاهما معجز فى بابه ، وقد اتسع المجال للعظة البالغة فى ختام الصورة الأولى حيث قال الله (وفى الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) أما الصورة الثانية

فقد جعلت العظة نفسية يوحى بها السياق لا نصية ينطق بها البيان، وهذا ما عناه ختامها الرائع إذ يقول الله (كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون).

فها أنت ذا ترى اتفاق الإطار الخارجى فيما يتضمن المعنى العام، تلمس رغم هذا الاتفاق فروقاً طريفة فى اتجاه المعنى وتلوين الصورة فتشعر بالجدة الطريفة فى كل ما تقرأ من آيات الكتاب، ولن يظن أحد أننا نوازن بين نصين، فكتاب الله قد اكتسب علواً فى إعجازه البيانى يمنع الموازنة من الأساس إنما هو تحليل كاشف لنمط من التصوير الأدبى تلتقى أصباغه البيانية تارة وتختلف تارات.

وإذا كان لنا أن نجمل رأينا الموجز فى هذا اللون الأدبى من التمثيل فإن نجد أصدق دلالة عليه من قول الله فى آية كريمة سبقت مساق هذا التمثيل البيانى، فكانت بصياغتها مثلا جديداً للفن الأدبى فى تصويره، وكانت بدلالتها حكما عادلا عليه فى تقريره وتقديره تلك هى قول الله عز وجل فى سورة إبراهيم: (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء. تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون).

بين الإيجاز والإطناب

إذا كانت البلاغة الإيجاز ، وكان كتاب الله عز وجل نمط البلاغة الأرفع ، فقـــد حرص البيانيون على إيضاح ما بالقرآن الـكريم من روائع الإيجاز ، فطفقوا يضربون الأمثلة الـكثيرة من آياته الحـكيمة لما يقعدون من قواعد كما اختاروا نماذج المساواة والإطناب فى الآيات فيما وضح لديهم مثاله من الذكر الحـكيم ، ولـكن تعريفهم للايجاز بأنه عرض المعانى الـكثيرة فى ألفاظ قليلة دون إخلال بالمعنى مع الإيضاح ، وتعريفهم للاطناب بأنه زيادة التعبير عن مقدار المعنى دون عبث فى الزيادة ، هذان التعريفان يجعلان الإيجاز والإطناب وكأنهما متعارضان لا يلتقيان ، والحقيقة أن الزيادة إذا لم تـكن عبثا فهى مطلوبة يحتمها واقع الحال ، فـكل اختصار منها حينئذ يكون إخلالا بالتركيب ، وكل حديث قرآنى ـ تبعاً لذلك ـ لا يمكن أداؤه بأقل من ألفاظه بحال ، وهنا تقرب المسافة بين الإيجاز والإطناب فضلا عن المساواة ، وكان على الذين يضعون التعريفات أن يعلموا أن الإيجاز ليس مجرد قصر فى النص وإنما هو طبيعة تشيع فيه مهما بلغ من الطول ، فقد تأتى السورة الـكريمة فى أكثر من خمسين آية وهى إلى الإيجاز أقرب ، كما قد تـكون العبارة ثلاثة أسطر وهى

إلى الإطناب أقرب ، لأن مقتضى الحال هو الذى يحيل بالقول إلى سواء بسطا واختصاراً ، ولحاً وإفاضة ، وقد تحكم مقدار المهارة اللفظى طولا وقصراً فى التطبيق البلاغى الجائر لدى هؤلاء ، حتى أنهم ليعدون حروف الجملة حرفا حرفا حين يقرنونها بجملة أخرى كما فعلوا فى الموازنة بين (فى القصاص حياة) (والقتل أنفى للقتل) ناسين أن الآية الكريمة يجب أن تقرن فى الاستشهاد بما قبلها وبعدها ، فنذكر القائل قول الله (ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب) لأن مثل هذا الحكم العقلى الدقيق يجب أن يخص أولى الألباب بالمخاطبة ، فهم وحدهم الذين يستطيعون إدراك الحياة فى القصاص ، ولسنا بذلك نجيز للمثل العربى أن يقرن بالآية الكريمة فهو منها على بعد شاسع ، ولكننا نشير إلى أن الحكم بمقتضى الحال وحده لا لعدد الحروف والكلمات.
وحين نقول إن قدامى البلاغيين قد حرصوا على إيضاح ما بالقرآن الكريم من روائع الإيجاز والإطناب والمساواة إنما نقدر لهم جهدهم الكبير فى إخلاصهم لكتاب الله ، وحرصهم على إدراك أسراره الأدبية ، وقد كان أبو هلال العسكرى ممن اهتموا باختيار أمثلتهم البيانية للايجاز البليغ من روائع الذكر الحكيم ، فى الصناعتين ، حيث ذكر لإيجاز القصر وحده أكثر من عشرين آية كريمة كقوله

الله (إنما بغيكم على أنفسكم) وقوله (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) وقوله (أفنضرب عنكم الذكر صفحاً) ، وقوله (فاصدع بما تؤمر) وقوله (ألا له الخلق والأمر) وقوله (فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً) وقوله (أولئك لهم الأمن) وقوله (وكل أمر مستقر) إلى كثير من الأمثلة التي تناقلها الكتاب في تصانيفهم المعروفة ، وهو صنيع ينبغي ألا نقف عنده الآن بل يجب أن ننظر إلى الإيجاز والإطناب في ضوء الموضوع الكلي لا في نطاق الآية الجزئية ، لأننا إذا اتفقنا على أن كلا من الإيجاز والإطناب تكون بلاغته وفق مقتضى الحال فلن تتضح هذه البلاغة اتضاحاً كاملا إلا باستعراض موقف مكتمل ليرى الدارس من خلال النص المتماسك ما يستتر خلف الألفاظ من معاني يوحي بها المقام فيدرك حقيقة الإيجاز في موضعه ، كما يلمس ما يتطلب الموقف من إشباع للقول وامتداد للنفس فيدرك طبيعة الإطناب حين يتطلبه ! ولسنا بذلك نضائل من قيمة الجهد البلاغي لدى السابقين ، ولكننا نرى الكتاب وقد تعاوروه نقلا وتسجيلا ، دون أن يعداه أكثرهم إلى النظرة الكلية التي ترى أبعاد الموضوع بدءاً وخاتمة ! ولابد من التعريج على المساواة بإشارة فقد عرفها البلاغيون بأنها أداء المعنى بلفظ على قدره لا يزيد ولا ينقص ، وقد اعتبر السكاكي أن المتعارف من محاورات

أوساط الناس ومخاطباتهم هو ضابط المساواة بحيث يكون ما نقص عنه مع الوفاء إيجازاً وما زاد مع الإفادة إطناباً ، ولا أدرى كيف يكون المتعارف من أوساط الناس ومخاطبتهم ضابط المساواة لديه ، وأكثر هؤلاء الأوساط من العامة الذين لا ينهجون نهج البلغاء فى مراعاة مقتضى الحال ! لو قال السكاكى إن المتعارف من أساليب البلغاء على اختلاف مناحيهم التعبيرية هو مقياس المساواة لكان أدنى إلى الصواب إذ يمكن أن نتخذ من آثار ابن المقفع والجاحظ وأبى حيان وابن العميد أمثلة للتطبيق على ما نضع من التعاريف ! فنحصر ضوابط البلاغة فى حيز البلغاء لا فى أوساط الناس ، وقد مثلوا المساواة بقول الله (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً) وقوله (من كفر فعليه كفره) وقوله عز وجل (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وهى أمثلة يمكن أن تعد من الإيجاز فى تعريفه الذى لا يلتجىء إلى عد الكلمات والحروف قدر ما يتجه إلى عرض القضايا فى وضوح يمنع اللبس ويكشف الغموض ، ولعل مما نستأنس به فى هذا الصدد ما اتجه إليه أستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه «النبأ العظيم» حين امتد بدائرة الإيجاز إلى كل كلام لا يجاوز سبيل القصـــد ، وأفاض

في تأييد ذلك بما نلفت إليه الدارسين .

لقد كانت ألمعية القدامى من دارسى الإطناب والإيجاز من البلاغيين نافذة بصيرة فى حدود ما انحصرت فيه من النظر الجزئى للآية الواحدة حتى أتت بالعجاب العاجب من التفسير والإيضاح، ونضرب المثل لذلك بما ذكره الإمام عبد القاهر فى دلائل الإعجاز عند الحديث الممتع النافذ عن حذف المفعول به إذ قال فى براعة فائقة بعد أن ضرب الأمثلة الكاشفة وأحكم الدليل الصائب ص ١٢٤ :

« وإذا أردت أن تزداد تبيناً لهذا الأصل — أعنى وجوب أن تسقط المفعول لتتوفر العناية على إثبات الفعل لفاعله ولا يدخلها شوب — فانظر إلى قول الله تعالى (ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ماخطبكما ؟ قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما ثم تولى إلى الظل) ففيها حذف المفعول فى أربعة مواضع إذ المعنى وجد عليه أمة من الناس يسقون أغنامهم أو مواشيهم ، وامرأتين تذودان غنمهما ، وقالتا لانسقى غنمنا ، فسقى لهما غنمهما ، ثم أنه لايخفى على ذى بصر أنه ليس فى ذلك كله إلا أن يترك ذكره ويؤتى بالفعل

مطلقاً ، وماذاك إلا أن الغرض فى أن يعلم أنه كان من الناس فى تلك الحال سقى ، ومن المرأتين ذود ، وأنهما قالتا لا يكون منا سقى حتى يصدر الرعاء ، وأنه كان من موسى عليه السلام بعد ذلك سقى ، فأما ما كان المسقى أغنما أم إبلا أم غير ذلك فخارج عن الغرض وموهم خلافه ، وذلك أنه لو قيل وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما ، جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذود بل من حيث هو ذود غنم حتى لو كان مكان الغنم إبل لم ينكر الذود ، كما أنك إذا قلت مالك تمنع أخاك كنت منكراً المنع لا من حيث هو منع ، بل من حيث هو منع أخ ، فاعرفه تعلم أنك لم تجد لحذف المفعول فى هذا النحو من الروعة والحسن ما وجدت إلا لأن فى حذفه وترك ذكره فائدة جليلة وأن الغرض لا يصح إلا على تركه » .

هذا تحليل بصير نافذ ! ولكن من أعقبوا عبد القاهر قد وقف الكثير منهم عنده دون أن يسيروا بالبحث إلى غايته فكان قصاراهم أن يدركوا فى الآية أو الآيتين ما يتخللهما من ذكر أو حذف حتى ليفهم من صنيعهم أن الإيجاز لا يكون إلا بحذف كلمة أو جملة أو ثلاثا فحسب ، وأن الإطناب لا يكون إلا بتكرار كلمة أو ذكر مرادفها أو تأكيدها ! مع أن مراعاة المقتضى التى يؤكدونها تحتم أن نتجاوز

الآية والآيتين إلى مقارنة موضوع بموضوع لنرى من معانى الإجمال والتفصيل دلائل الإيجاز والإطناب .

وفى عصرنا الراهن بحث الإيجاز والإطناب فى ميدان الأدب العام لا فى القرآن الكريم ، بحثاً يهدى إلى الصواب ، فرأينا من يقول « إن الوجازة أصل فى بلاغة اللغات وهى فى بلاغة العربية أصل وروح وطبع ، وأول الفروق بين اللغات السامية واللغات الآرية أن الأولى إجمالية والأخرى تفصيلية فيظهر ذلك فى مثل قولك (قتل الإنسان) فإن الفعل فى هذه الجملة يدل بصيغته الملفوظة وقرينته الملحوظة على المضى والزمن والدعاء والتعجب وحذف الفاعل » وهذا التمثيل يذكرنا بعبد القاهر إذ ينحصر فى نطاقه . ولكن كاتبه البليغ أستاذنا الزيات رحمه الله لم يقف عنده بل تجاوزه إلى قوله « والتفصيل إذا سلم من اللغو كان كالإجمال إذا برىء من الإخلال وكلاهما حسن فى موقعه بليغ فى بابه ، وقد يكون التفصيل من الإيجاز إذا قدر لفظه على معناه لأن الإيجاز الذى نعنيه أن يدل اللفظ على المعنى ولا يزيد عليه » وهو حديث يدل على أن المسألة ليست تقاس بالحروف والكلمات ويؤكد ما ذكرناه من قرب المسافة بين ما يدعى بالإيجاز وما يدعى بالإطناب ، إذ أن كل إطناب بليغ يتطلبه المعنى لا محالة بحيث يكون

الحديث بدونه مدعاة قصور واضح لايتم به إشباع .

وإذا ثبت أن الإيجاز إيجاز موضوع لاعبارة ، وأن الإطناب كذلك موضوع شامل ينشقق بالقول ويفيض بالعناصر ، فسنختار سورتين متجاورتين من سور القرآن الكريم اتدل إحداهما على ما نعنيه من الإيجاز ، وتدل ثانيتهما على ما نعنيـــه من الإطناب ، وإذا كان كتاب الله الخالد يجمع ناحيتى الإقناع والإمتاع معاً ، فلن يكون فى أسلوبه الموجز مغفلا حق التصوير الأدبى فى جمال إيقاعه وحسن تصويره ، كما ان يكون فى أسلوبه المطنب مغفلا حق الإقناع المنطقى فى رصانة سياقه ودقة ترتيبه ، وهو بذلك قد رد عملياً على من يرى الإيجاز جهداً عقلياً فى الاختصار والاقتصار ، والإطناب انفساحاً منفسحاً يمتد كما يشاء .

نختار سورة القمر للدلالة على الأسلوب الموجز وسيظن القارىء أننا أخطأنا الاستشهاد لأن سورة القمر لاتنى تكرر قول الله عزوجل عقب كل حدث فاجع لمكذبى الأنبياء ، فكيف كان عذابى ونذر . (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) وهذا التكرار مما ينص البلاغيون على أنه أحد أنواع الإطناب ، يأتى فى تقديرهم الانذار

والردع مثل قول الله فى سورة التكاثر (كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون) . كما يأتى التعدد المتعلق مثل قول الله فى سورة الرحمن (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقول الله فى سورة المرسلات (ويل يومئذ للمكذبين) فكيف يتردد التكرار فى سورة القمر ثم تكون مثالا للايجاز ؟ ونحن نرد على ذلك بأننا نرى الإيجاز إيجاز موضـــوع لا إيجاز كلمات وجمل وأن الإطناب إطناب موضوع لا إطناب كلمات وجمل ، فإذا أوجزت السورة معانى كثيرة تتوالى متعاقبة مجملة فهى مثال الايجاز مهما كررت عقب كل معنى عبارة متحدة لأن تكرار هذه العبارة أسلوب نفسى يدعو إلى تقرير ما أجمل قبلها من الحديث، ومادام هذا التكرار لايستطيع أن يفصل الجمل بحال ، فالأسلوب إذن أسلوب إيجاز وان يزيد التكرار المؤكد على أن يكون ضربا من التثبيت الذى يقيد السامع بما يسمع فلا يملك الفكاك ، هكذا جاء التكرار فى سورة القمر لم يوضح مجملا ولم يفصل مبهما بل أدى دوره الأدبى فى التأثير الوجدانى ، فبقيت السورة الكريمة معه مثالا للايجاز القوى الواضح بألفاظه الجازم بما يثبت من تقرير وتأكيد .

نزلت سورة القمر لتتحدث عما أصاب مكذبى الأنبياء من عواقب وخيمة عجلت بنهايتهم الفاجعة ، لتكون إنذاراً حاسما لمشركى مكة ،

حيث سلكوا صنيع سابقيهم فكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغنى النذر ، وتحقيقاً لهذا الإنذار المهدد قامت السورة بعرض سريع لمواقف قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون من أنبيائهم وما فوجئوا به من دمار عاجل محقق لتقول لهم بعد ذلك (أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر . أم يقولون نحن جميع منتصر . سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) فليس من شأن السورة إذن أن تفصل قصص الأنبياء كسورة هود مثلا ، إنما شأنها أن توجز القول لتنتهى إلى نتيجة حاسمة محددة ! فإذا كانت سورة هود قد سلكت سبيل الإطناب إذ تحدثت عن قوم نوح بما يبلغ أربعين سطراً من سطور المصحف الشريف تبتدىء بقول الله ، (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين) وتنتهى بقوله تعالى (قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) إذا كانت سورة هود قد سلكت سبيل الاطناب فيما فصلت من إجمال وصورت من مواقف فإن سورة القمر توجز السطور الأربعين فى قول الله (كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر . فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر

ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر) وهو إيجاز لايتعدى خمسة أسطر من سطور المصحف الكريم ! ولكن هذا الإيجاز يحتفظ بطابعه البليغ فى دقة العرض ووضوح التصوير ، فهو بإجماله الموجز يرسل من الإيحاء الدال مايعبر عن معانى كثيرة تختفى ألفاظها ويظهر مدلولها النفسى فى جذب النفوس وإثارة الوجدانات ، وهو ماعناه صاحب دفاع عن البلاغة حين قال « والمزية الظاهرة للايجاز أنه يزيد فى دلالة الكلام من طريق الإيحاء لأنه يترك على أطراف المعانى ظلالا خفيفة يشتغل بها الذهن ويعمل فيها الخيال حتى تبرز وتلون وتتسع ، ثم تتشعب إلى معان أخرى يتحملها اللفظ بالتأثير أو بالتأويل . والقرآن معجزة الدهر فى هذا الصدد ، تسير السورة الكريمة على هذا النسق فتقول عن قوم هود (كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر . إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) وتقول عن قوم صالح (كذبت ثمود بالنذر . فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفى ضلال وسعر . أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر . سيعلمون غداً من الكذاب الأشر . إنا مرسلو

الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ، ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر، فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ، فكيف كان عذابى ونذر، إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر » وتمضى السورة على هذا النهج فى حديثها عن قوم لوط وفرعون لتردد فى كل حادث قول الله « فكيف كان عذابى ونذر » وقوله « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » ترديدا هو بمثابة نتيجة لازمة لمقدمات معروضة تسير إليها سيرا لا يقبل الخلاف ! فإذا روع الكفار بهذه النتائج عقب كل حادثة ثم استمعوا إلى قول الله فى خاتمة الأحداث : أكفاركم خير من أولئكم ، فقد ضاقت بهم السبيل وهددتهم النذر بما يتوقعون ! هكذا كانت سورة القمر مثالا للايجاز كما نعنيه ونحن ندعو القارىء إلى قراءتها بالمصحف كما دونت فى كتاب الله إذ أن إشاراتنا السريعة إلى بعض أحداثها تضائل كثيرا من بريقها الناصع وهو بريق باهر السطوع فى القرآن !

أما سورة الرحمن فكانت فى رأيى مثال الإطناب لأنها جميعها قامت على تقرير قضيتين اثنتين : إحداهما قدرة الله التى خلقت الكون ، وأخراهما حديث اليوم الآخر بما ينتهى إليه من نار أو جنة ، فبدأت الحديث بالقضية الأولى حين أخذت تعدد فى بسط مشرق دلائل

ساطعة على قدرة من خلق الانسان وعلمه البيان كما خلق الشمس والقمر والنجم والشجر ورفع السماء ووضع الأرض ذات الفاكهة والنخل والحب ، ومرج البحرين وسير الجوارى المنشآت ! تمدد ذلك فى وضوح آسر لتظهر عظمة من يقول «سنفرغ لكم أيها الثقلان» وهو تهديد قوى يعقبه الحديث عن اليوم الآخر بما فيه من ثواب وعقاب! قد ترددت الآية الكريمة «فبأى آلاء ربكما تكذبان» عقب كل آية لتقوم بدورها الأدبى فى التأكيد والالزام ، ولتترك صداها النفسى مجلجلا يدعو القلوب إلى العظة والاعتبار ! وإذا كان لنا أن نستشهد على هذا الاطناب مقارنا بغيره من صور الايجاز فى سورة أخرى ! فإننا نذكر مثلا قول الله الموجز فى سورة القتال «مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم» .

لنقرنه بما جاء فى سورة الرحمن مسهبا مفصلا من الحديث عن الجنة إذ يقول الله (ولمن خاف مقام ربه جنتان، فبأى آلاء ربكما تكذبان، ذواتا أفنان ؛ فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان تجريان، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما من كل فاكهة زوجان ، فبأى

آلاء ربكما تكذبان ، متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن أنس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت والمرجان فبأى آلاء ربكما تكذبان ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ،فبأى آلاء ربكما تكذبان ، ومن دونهما جنتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، مدهامتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان نضاختان، فبأى آلاء ربكما تكذبان،فيهما فاكهة ونخل ورمان،فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهن خيرات حسان، فبأى آلاء ربكما تكذبان، حور مقصورات فى الخيام،فبأى آلاء ربكما تكذبان ، لم يطمثهن أنس قبلهم ولا جان،فبأى آلاء ربكما تكذبان،متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان،فبأى آلاء ربكما تكذبان ، تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام ﴾ .

ولقد تنوعت أساليب القرآن إيجازا وإطنابا ومساواه لا لمزية نوع على نوع بالنظر إليه فى حد ذاته بل لأن كل نوع من هذه الأنواع صادف موقفه المطلوب ومقتضاه اللازم فجاء التعبير عنه بما يشفى كل صدر ويبرد كل غليل .

الغريب فى كتاب الله

يوجد الغريب فى كل لغة وفى كل عصر، لأن كل متكلم أو كاتب يفيض بما ادخر فى رصيده اللغوى من الكلمات فصيحة أو غريبة، ومن بينها مالا يكون قد تعالم لدى سامعيه فيعتدونها غريبا أو منكرا، نشهد ذلك فيما نسمع ونرى دون أن نقف عند اللغة الفصيحة وحدها بل ننتقل إلى اللغة العامية ذات التخاطب المتداول بين الناس، إذ يفجؤك بين الحين والحين أن تسمع كلمة لا تفهم معناها فتضطر إلى السؤال عنها، وبخاصة إذا كان المتكلم من إقليم غير إقليمك، والغرابة فى بعض أمورها معنى نفسى قبل أن تكون ظاهرة لغوية، إذ أن من الناس من يحرص على الامتياز فى بعض النواحى، وقد يخيل لأحدهم على جلالة قدره وسموق منزلته أن التعالم بالغريب ذو امتياز يوحى بالدراية والتحصيل، لذلك اشتهر من العلماء نفر يكلفون بالغرابة فى القديم والحديث من لدن أبى علقمة النحوى إلى شيخنا الوقور حمزة فتح الله، وكتب الأدب تفيض بنوادرهم الذائعة فى ذلك، ولا نقول إن هؤلاء الفضلاء يتعالون بالغريب حبا فى النباهة من يوم أن درسوا العربية وألموا بالنادر الغريب، فإن منزلة بعضهم تجل عن ذلك، ولكنا نقول إن التشويق بالغريب كان طورا من أطوار حياتهم الأولى

اندفعوا إليه رغبة فى التعالم ثم اطرد حديثهم فيما بعد على الولوع بهذه الغرابة بحيث أصبحت طبعا لا تكلفا ، وبحيث أصبحوا يكابدون بعض الرهق فى الرجوع إلى السهولة واليسر ، وقد ضرب العالم النحوى عيسى بن عمرو ضربا موجعا ليرجع عن تشدقه فما استطاع إذ أتى فى شهادة قضائية بعبارات تضحك لغرابتها النادرة وتجد حديثها فى معجم ياقوت ، وقديما قال أبو تمام فى بعض من يتعاطون الغريب عن تكلف مكشوف :

فما لك بالغريب يد ولكن تعاطيك الغريب من الغريب

وقد ظن بعض الدارسين أن العصر الجاهلى قد خلص من الغرابة لأن القوم عرب خلص واللغة لغتهم ، فكل ألفاظ الجاهلية — فى عصرها — كانت واضحة مفهومة على ذلك ، وما عد من غريب الشعر الجاهلى فيما تلاه من العصور لم يكن غريبا فى وقته ، وتلك نظرة متعجلة ، لأن الجاهليين قوم كسائر الأقوام ، فهم قبائل تنأى وتتوغل فى أعماق الجزيرة ، ولكل لغة اصطلاحاتها وألفاظها التى لا يعقل أن تلم القبائل الأخرى بكل محتوياتها مهما كثر التقارب فى الأسواق والحج والتجارة ومواسم اللقاء ، فالغرابة كانت موجودة فى العصر الجاهلى لا محالة ، وقد نزل القرآن ببعض مالا تفهمه العامة إذ ذاك من القول

إذ يفهمه الخاصة وحدهم ، ولا يكون غريب القرآن حينئذ من النمط المفقود الذى تعوزه الفصاحة ، وإنما يكون من النادر الذى تشرئب الأعناق إلى معرفة سره ، لذلك أجدنى اضطر إلى مخالفة أبى عبيدة ابن المثنى حين قال فى مفتتح مجاز القرآن ما نصه ص ٨ :

«قالوا إنما نزل القرآن بلسان عربى مبين ، ومصداق ذلك فى آية من القرآن ، وفى آية أخرى «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه» فلم يحتج السلف ولا الذين أدركوا وحيه إلى النبى صلى الله عليه وسلم أن يسألوا عن معانيه لأنهم كانوا عرب الألسن ، فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه ، وعما فيه مما فى كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص ، وفى القرآن مثل ما فى الكلام العربى من وجوه الأعراب ومن الغريب والمعانى» .

وما يقوله أبو عبيدة يقوله أكثر الكاتبين فى فقه اللغة وتاريخ الأدب ، حتى كادوا يجمعون على أن السلف الذين أدركوا الوحى فى عهد الرسول عليه السلام لم يحتاجوا إلى السؤال عن المعانى لأنهم كانوا عرب الألسن فاستغنوا بعلمهم عن المسألة ، مع أن نفرا من هؤلاء الكاتبين يروون ما يخالف ذلك دون أن يلتفتوا إلى موضع الشاهد فيه ، ونحن ننقل منه بعض ما يفيد :

١ — سئل أبو بكر الصديق رضى الله عنه عن معنى قول الله عز وجل « وفاكهة وأبا » فقال : أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إن أنا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم .

٢ — قرأ عمر بن الخطاب فى يوم الجمعة على المنبر قول الله « أو يأخذهم على تخوف » ، ثم سأل الناس عن معنى التخوف فقال ما تقولون فيها ، فقام شيخ من هذيل ، فقال هذه لغتنا ، التخوف التنقص فقال عمر وهل تعرف العرب ذلك فى أشعارها فقال نعم وأنشد :

تخوف الرحل منها تامكا قردا كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر ، عليكم بديوان العرب لا تضلوا ، شعر الجاهلية ففيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم .

٣ — قال عبد الله بن عباس وهو ترجمان القرآن ـ كنت لا أدرى ما فاطر السموات والأرض حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما أنا فطرتها يريد أنا ابتدأتها .

٤ — كانت مناقشة نافع بن الأزرق لعبد الله بن عباس فى بعض ما لا يألف من ألفاظ الكتاب الكريم مما أذيع واشتهر ، وقد نقلها السيوطى على طولها فى الإتقان ، وهى تدل أبلغ الدلالة على أن نفراً من خلص العرب فى العصر الأول كانوا يقفون عند بعض الألفاظ

القرآنية ، وإن كنت أرى ما نقله السيوطى قد لفق وزيد فيه على مر العصور إذ ليس من المعقول أن يسأل نافع عن نحو مائة وخمس وثمانين كلمة فى مجلس واحد ليجيبه بن عباس بمائة وخمس وثمانين بيتا من الشعر تحفظ لفورها ويرويها الحاضرون سماعا دون نسيان ، ثم إن هذه المساءلة الطويلة تحمل فى غضونها ما يستبعد أن يسأل عنه نافع لاشتهاره ، إذ أنه لو جاز له أن يسأل عن معانى أمثال هذه الكلمات: رئيا - حميم آن - تتبيب - حنيذ - ربيون - فما يجوز له أن يسأل عن مثل : عذاب أليم - أطعموا البائس - اضربوا كل بنان . وعشرات غيرها مما يعد متداولا لا يحتاج إلى سؤال ، أضف إلى ذلك أن ابن عباس فيما تزعم الرواية الطويلة قد استشهد بأشعار لأمثال عمر ابن أبى ربيعة والحارث المخزومى ممن جاءوا بعد تداول ألفاظ القرآن فلا يعقل أن يقتنع نافع بن الأزرق بشعرهم ، وهو يطالب الدليل على عربيته العريقة التى تنطق بها أساليب الجاهلية ، ونظير ذلك ما تمثل به من أشعار أمية بن أبى الصلت وحسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة لأن القوم متأثرون فيما قالوا بأسلوب القرآن بعد أن تدارسوه ، وهذا مالا يغيب عن سائل لجوج كنافع ! لسنا بذلك نريد أن ندفع بالواقعة من أساسها ، بل نريد أن نقول إن نافعا عميت عليه بعض الألفاظ

فسأل عنها فأجاب ابن عباس بما شفاه ، ولكن الرواة تزيدوا وأضافوا النظير إلى النظير ، وموضع الشاهد من هذا كله ، أن ألفاظا قرآنية خفيت على عربى فصيح كان زعيم جماعته فصاحة وخطابة ، فاضطر عبد الله بن عباس أن يكشف عما غمض وأن يأتى بالشاهد على ما قال .

على أن أتباع أبى عبيدة ممن يقولون بأن العرب الخاص لم يحتاجوا إلى السؤال عن بعض ألفاظ القرآن قد تطرق إليهم هذا الرأى من القول بأن القرآن قد نزل بلغة قريش حين كملت ونضجت وأخذت أحسن ما توافد إليها من لغات القبائل فيما كانوا يرسلونه فى الأسواق والمجامع ، حتى استقامت العربية على ألسنتها فى نحو من السلاسة المحكمة وأصبحت لغتها هى الفصحى ذات السبيل المنتهج ، وبها نزل القرآن الكريم ليجمع العرب على نمط من البيان المنتخب ، ونحن لا ننكر أن زعامة قريش قد جذبت الأنظار إلى أسواقها ومجامعها ، وحرمها وأصنامها وأن نزولها فى الذروة من السيادة لحمايتها الحرم وإقامتها المواسم قد جعل أثرها اللغوى فى تهذيب اللغة واضحاً لا يدفع ولكننا ننكر أن تكون لغة قريش وحدها هى التى تنزل بها الذكر الحكيم ، لأن اللغة العربية من السعة والإحاطة بحيث لا تقتصر

على قوم يسكنون مكة وحدها لا سيما أن قبائل أخرى قد اشتهرت بالفصاحة كهوازن وتميم وأسد ، إلى حد جعل عظماء قريش يرسلون أطفالهم إلى البادية ليرضعوا الفصاحة من أفاويقها المشتهاة ، ولازلنا نذكر أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نوه فى مجال الحديث عن فصاحته بنشأته فى بنى سعد من هوازن ، لذلك كان القرآن أ كل من أن يقتصر على ألفاظ قريش كائنة ما كانت ، وإذا كان كتاب الله قد احتوى من المعرب ألفاظا فارسية كالأباريق والإستبرق والتنور والزنجبيل ، وألفاظا رومية كالرقيم والصراط والفردوس والقسطاس ، وألفاظا حبشية كالأرائك والأبواب والمشكاة وقسورة ، وألفاظا سريانية كالأسفار بمعنى الكتب والربيين والقيوم ، وألفاظا نبطية كالحواريين والقط ، وأخرى عبرية كالقوم ، وهندية كالمسك ، إذا كان القرآن قد حوى هذا المعرب بعد أن شاع فى اللسان الجاهلى وأجرى مجرى العربية فى إعرابه . وأن خالف فى ذلك أئمة . فإن احتواءه على ألفاظ القبائل الفصيحة الأخرى أقرب وأوضح ، وأمامنا تفسير الجلالين وهو من أوجز التفاسير المتداولة يقول تعليقا على كثير من الألفاظ إنها لغة هذيل أو تميم أو هوازن أو أسد ، ومن هنا كانت الغرابة فى ألفاظ القرآن عند بعض العرب من قريش فاضطر مثل عمر ابن الخطاب أن يسأل عن كلمة تخوف ، كما اضطر عبد الله بن عباس أن

يقف على معنى فاطر السموات والأرض من محاورة سمعها بين أعرابيين ، وإذا كان عمر رضى الله عنه قد قال « عليكم بشعر الجاهلية ففيه تفسير كتابكم » فإنه بداهة يقصد شعر جميع القبائل لأن قريشا كانت أضعفها شعرا ، وما اشتهر فى الجاهلية منها شاعر كبير ، حتى جاء الاسلام فكان عمر بن أبى ربيعة أول شاعر قريشى نابغة !

وإذن فالقول بأن القرآن لايخرج عن لغة قريش يحتاج إلى تدقيق ، ولعل مما يستأنس به فى ذلك ما روى بعد من أن محمد بن مناذر الشاعر العباسى نزل مكة ليروى شعره ، فقال له المكيون : ليست لأهل البصرة فصاحة إنما الفصاحة فى أهل مكة ، فقال ابن مناذر أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن وأكثرها موافقة له فضعوا القرآن حيث شئتم ، أنتم تسمون القدر برمة وتجمعونها على برام ونحن نجمعها على قدور ، قال الله تعالى « وجفان كالجواب وقدور راسيات » ، وأنتم تسمون البيت إذا كان فوق البيت عليه وتجمعونه على العلالى ، ونحن نسميه غرفة ونجمعه على غرفات وقد قال الله تعالى « لهم غرف من فوقها غرف مبنية » ، « وهم فى الغرفات آمنون » ثم عد عشر كلمات أخر .

وقد علق الأستاذ البحاثة الدكتور على العمارى على هذا النص بقوله « ولم يقف هذا الخلاف عند الكلمة والكلمتين بل كان القرآن

يترك الأصل من أصول اللغة القريشية وينزل بغيره، فمعروف أن قريشا لاهمز فى لغتها وإنما لغتها التخفيف، جاء فى مقدمة لسان العرب « قال أبو زيد : أهل الحجاز وأهل مكة والمدينة لاينبرون (والنبر الهمز) وجاء رجل إلى رسول الله فقال يانبيء الله ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: لاتنبر (لا تهمز) باسمى ، إنا معشر قريش لا ننبر » ومع هذا فقد جاء الذكر بالنبر.

ونفرغ من ذلك كله إلى أن الغريب كان موجودا فى عصر النبوة لاحتواء القرآن على بعض الألفاظ من القبائل الفصيحة ، فاضطر أمثال عمر وأبى بكر وابن عباس إلى السؤال عنها ، ومعاذ الله أن يفهم قارئ أنا نريد أن نضائل من لغة قريش حين نقرر أن القرآن قد أتى بغير ألفاظها فى بعض ماقال، إنما نريد أن نعلل لظاهرة الغريب فى عصر الرسالة وأن نعارض ماقرره أمثال أبى عبيدة من أن السلف المعاصر لرسول الله لم يحتاجوا إلى السؤال عن بعض الألفاظ إذ استغنوا بعلمهم عن المسألة عن معانيه فنقول لهؤلاء إن الكرام من هذا السلف لم يعلموا كل شيء وقد اضطروا إلى السؤال عما يجهلون .

ننتقل بعد ذلك إلى مسألة هامة هى أن علماء البلاغة العربية

قد جعلوا الغرابة عيبا يخل بفصاحة الكلمة ، فما المراد بالغرابة المخلة بالفصاحة ، وما صلة ذلك بما تعورف من الألفاظ الغريبة فى القرآن الكريم وهو أفصح كتاب وأرقاه ؟

لقد قال علماء البلاغة فى تعريف الغرابة: هى أن تكون الكلمة غير ظاهرة المعنى ولا مأنوسة الاستعمال ، وهم يعنون بذلك عدم ظهور معناها عند المولدين ممن حذقوا العربية عن حفظ وتلقين بعد أن جمعت اللغة فى معاجم ، وحفظت فى قواميس وتدوولت ألفاظها لدى الخاصة من المثقفين تداولا يجعل المهجور منها غريباً غير مأنوس ، أما أصحاب اللغة الأولى ممن نزل فيهم القرآن فلا يعد اللفظ الخافى بمعناه لديهم ذا عيب ، لأن كل عربى ـ باستثناء رسول الله ـ لا يكاد يلم بغير لغة قومه ، وهو يستمع إلى الشعر والنثر من أعلام القبائل الأخرى فيضطر إلى السؤال عما لا يعلم من الألفاظ ، ولا يرى فى جهله ببعض الألفاظ مدعاة إنكار للنص المسموع ، إذ أنه يعرف من تلقاء نفسه أن ما يعيه من المعانى لا يشمل كل ما تنطق به القبائل الفصيحة ، فالغريب حينئذ فصيح بليغ ، إلا إذا استثقل لتنافر مخارجه وليس فى القرآن ـ حاشا لله ـ مستثقل يعاب ، وإن وجد فى أشعار امرىء القيس وأضرابه ما هجن وجرى به المثل فى الاستثقال .

وإذا كانت اللغة — أية لغة لا اللغة العربية وحدها — أشبه في سيرها بالنهر الممتد من المنبع إلى المصب ترى ماءه يختلف أثناء مروره من لون إلى لون ، بحيث يكون في منتصف طريقه غير مماثل تماما لحاله في مصبه . فإن اللغة العربية قد طرأ على ألفاظها من الأستعمال والاهمال بمرور الزمن ماجعل بعض ألفاظ العصر النبوي يلوح لقلة استعماله وكأنه غريب ، فهو إذن في عرف المولدين مما لا يعهد سيرورة واستعمالا فلا يتداوله الكتاب والشعراء والمتحدثون إلا على وجه الندرة ، والغريب لغة لا بلاغة — من ألفاظ القرآن في ذلك محدود قليل لأن الألسنة المؤمنة قد جبلت على استعمال الألفاظ القرآنية استشهادا واحتذاء وتباهيا بالوقوف على أسرار الحروف والكلمات في آيات الذكر الحكيم ، فإذا انفردت بعض الكلمات بعدم الذيوع فلا تكون غرابتها من النوع المجفو بل لبعد الأسلوب المولد عن سليقته العربية بتخاذل الزمن المتطاول ، وما أحصى من القرآن في ذلك يكاد يعد عدا وقد حصره صاحب الاتقان في ألفاظ لانسلم بأكثرها ، إذ أن ذوق العصر المملوكي — عصر الجلال صاحب الاتقان — ليس مما يتخذ مقياسا لبلاغة الألفاظ فهو عصر التكلف البديعي الذي قتل الفصاحة بما حمل من أوزار التصنع والافتعال ، إنما المدار في ذلك على أذواق عصور

الطبع المثقف، وأئمة البيان الموهوب من أمثال الجاحظ وابن المقفع وسهل وأبى حيان . وقد أفردت كتب خاصة لبيان الغريب ولعل أول ما بقى بأيدينا منها إلى اليوم هو كتاب مجاز القرآن لأبى عبيدة، وقد اختلف فى اسمه، إذ يذكر فى كتب الفهارس العلمية - كفهرست ابن النديم - بأسماء غريب القرآن، ومعانى القرآن، وإعراب القرآن حتى ظن أنها عدة كتب وهى كتاب واحد، ووليه فى مضمار الغريب كتاب معانى القرآن للفراء على قول من رجح تأليف المجاز لأبى عبيدة قبل تأليف المعانى للفراء لأسباب يراها، ثم كتاب غريب القرآن لابن قتيبة وثلاثتها لا تقتصر على الغريب غير المتداول، ولو فعلت ذلك ما اتسع القول لأكثر من ثلاث صفحات وإنما تتبع أسرار التراكيب ووجوه التعبير من حذف وزيادة وإيجاز وإطناب يخرج بالقول عن المعنى اللغوى إلى شتى المعانى الثقافية التى أخذت تتألف فى العصر العباسى عصر الاكتمال العلمى البصير ا وما زالت كتب الغريب تتوالى سالكة هذا النهج أو بعضه على إيجاز، وأشهر ما حظى منها بالذيوع غريب السجستانى، وقد كان مقررا فى كثير من معاهد العلم إلى عهد قريب.

لقد وجد للغريب إذن فى القرآن بمعناه اللغوى، لا بمعناه البلاغى، إذ لا يعرف القرآن كلمة غريبة تمت إلى المعنى البلاغى للمعيب بسبب ،

وكيف وكل ألفاظه معجز خالب ، وإذا كان من أسـباب الغرابة البلاغية تقـل النطق كما مثلوا لذلك بمثل قول القائل « تـكأكأتم على كافرنقعوا » مما اقتربت فيه مخارج الحروف إلى حد يدعو إلى الثقل؛ فليس فى القرآن إلا ما هو سهل الخروج من الألفاظ ، حتى لتترقرق فيه العذوبة ترقرقا يعرفه خبراء البيان ، وإنما اندعوا البلغاء إلى استعمال ما قـد يـكونون بمنأى عنه من غريب الذكر ، لتبقى جميع الألفاظ القرآنية كما كانت فى العصور الأولى ميدان التأثير ، وصاحبة الأساس الركين فى مجال الرصانة القـوية والسبك المتين ، وهو مجال حى له أغراضه الجادة كما للسلاسة الرفيعة مجالها الرائق فى وصف مناظر النعيم ومطارح الجمال .

بين الحقيقة والمجاز

لم يظفر كتاب سماوى أو أرضى بمثل ما ظفر به كتاب الله الخالد من الإهتمام البالغ فهما وحفظا وتلاوة وتجويدا وتفسيرا واستنباطا وتعبدا ، فلو حاولت إحصاء الكتب الإسلامية التى تتجه إلى كتاب الله فى عصر واحد من عصور الدولة الإسلامية لأرهقك ما تحاول من إحصاء، لأن رجال الفقه والسنة والنحو والتصريف والأصول والتوحيد والبلاغة واللغة والأدب والتاريخ قد جعلوا القرآن قبلتهم الأولى فيما ينشدون من دليل ، فولوا وجوههم شطره يفسرون آياته ، ويجيلون أفكاره ، فإذا تركت العلوم الإسلامية العامة إلى كتب التفسير وحدها فإنك تجد فى كل عصر من العصور أفذاذا كبارا خاضوا عباب التفسير القرآنى ، باحثين شارحين ، ولكل مفسر ثقافته الخاصة التى تخصص فى إتقانها ، فقد يكون فقيها أو مؤرخا ، أو محدثا أو نحويا أو بلاغيا أو صاحب كلام وجدل فيظهر منحاه التفسيرى متجها إلى ما يتفق من هذه الفروع ، وإذا كان الكثيرون من هؤلاء قد كتب لهم التوفيق فى أكثر ما يحاولون ، فإن الكمال التام لم يعط لغير الله ، إذ بعد نفر من هؤلاء عن استكشاف الأسرار البلاغية بحكم دراستهم العلمية البعيدة

عن مناطق البيان ، فعز عليهم أن يدركوا أسرار المجاز فى القرآن وحملوا أكثر ما يرد هذا المورد البلاغى على الحقيقة فتاهوا فى بحار تتقاذف أمواجها إلى حيث لا اهتداء ، وما نريد ـ علم الله ـ أن نضائل من قدر أحد ، فحسب المفسر الجليل من هؤلاء أن يكون قد أخلص النية فيما حاول فإذا تعذر عليه الولوج إلى سر بلاغى أو منحى بيانى، فإن زميله الذى يصل إلى ذلك يتعذر عليه أن يبلغ مبلغه فيما تخصص فى دراسته من فقه أو حديث ، ولكن الحقيقة تبقى بعد ذلك منادية على نفسها ، حين تعلن أن القرآن باعتباره أرفع مستوى للبلاغة العربية يتطلب من رجال البلاغة أن يصححوا ما تورط فيه زملاؤهم من أخطاء، وإذا كان الإمام عبد القاهر الجرجانى قد برع فى التحليل البلاغى للاعجاز القرآنى براعة جعلته أشهر من نار على علم فى هذا المجال وجعلت كتابه دلائل الإعجاز آية الآيات فى التحليل الذوقى والاستشفاف الأدبى ، فقد وقف على عوار مشين لدى بعض من يتعاطون التفسير دون استعداد أدبى فيخبطون فى الظلام على غير استبصار ، وقد قال عنهم مندداً فى دلائل الإعجاز ص ٢٣٦ :

« ومن عادة قوم ممن يتعاطون التفسير بغير علم ، أن يتوهموا أبداً فى الألفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها فيفسدوا

المعنى بذلك ويبطلوا الغرض ويمنعوا أنفسهم والسامع منهم العلم بموضع البلاغة وبمكان الشرف وناهيك بهم إذاهم أخذوا فى ذكر هذه الوجوه، وجعلوا يكثرون فى غير طائل هناك ترى ما شئت من باب جهل قد فتحوه، وزند ضلالة قد قدحوا به، ونسأل الله تعالى العصمة والتوفيق »

وكأن صيحة عبد القاهر قد نبهت الزمخشرى إلى وضع تفسير بلاغى للقرآن، وهو المعروف بتفسير الكشاف، فقد قرأ عبد القاهر وتأثر بمنحاه وأشار إليه صريحا فى بعض نصوصه، كما جاء تحليله البلاغى لآيات التمثيل والمجاز مقتفيا أثره وموسوما بطابعه مع أن صياغة الزمخشرى صياغة عالم وصياغة عبد القاهر صياغة أديب، ولكن الطابع الإستشفافى يصدر عن نبع واحد، وينبىء عن أصالة رصينة واستعداد كريم، وقد حرص الزمخشرى فى مقدمة التفسير أن يرجف بهؤلاء الذين يتعاطون التفسير دون استعداد بلاغى فأعاد صيحة عبد القاهر مطولة مبسطة، وقال فى صراحة لا تحتاج إلى توجيه :

« إعلم أن متن كل علم وعمود كل صناعة، طبقات العلماء فيه متدانية، وأقدام الصناع فيه متقاربة أو متساوية، إن سبق العالم العالم لم يسبقه إلا بخطا يسيرة، أو تقدم الصانع الصانع لم يتقدمه إلا بمسافة قصيرة،

وإنمـا الذى تباينت فيه الرتب ، وتحاكت فيه الركب ، ووقع فيه الاستباق والتفاضل ، وعظم فيه التفاوت والتفاضل حتى انتهى الأمر إلى أمد من الوهم متباعد ، وترقى إلى عد ألف بواحد ، ما فى العلوم والصناعات من محاسن النكت والفقر ومن لطائف معان يدق فيها مباحث الفكر ، ومن غوامض أسرار وراء أستار لا يكشف عنها من الخاصة إلا أوحدهم وأخصهم وإلا واسطتهم وفصهم ، وعامتهم عماة عن إدراك حقائقها بأحداقهم ، عناة فى يد التقليد لا يمن عليهم بجز نواصيهم وإطلاقهم ، ثم إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح من غرائب نكت يلطف مسلكها ، ومستودعات أسرار يدق سلكها علم التفسير الذى لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذى علم كما ذكر الجاحظ فى كتاب « نظم القرآن » فالفقيه وإن برز على الأقران فى علم الفتاوى والأحكام ، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا فى صناعة الكلام وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ والواعظ وإن كان من الحسن البصرى أوعظ ، والنحوى وإن كان أنحى من سيبويه واللغوى وإن علك اللغات بقوة لحييه ، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ولا يغوص على شىء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن هما علم المعانى وعلم البيان ، وتمهل فى ارتيادهما آونة ، وتعب فى التنقير عنهما أزمنة ، وتمينه على تتبع

مظانهما همة فى معرفة لطائف حجة الله ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله ، بعد أن يكون آخذا من سائر العلوم بحظ ، جامعا بين أمرين تحقيق وحفظ ، كثير المطالعات طويل المراجعات ، قد رجع زمانا ورجع إليه ، ورد ورد عليه فارسا فى علم الأعراب مقدما فى حملة الكتاب وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها ، مشتعل القريحة وقادها ، يقظان النفس دراكا للمحة وإن لطف شأنها ، منتبها على الرمزة وإن خفى مكانها ، لا كزا جاسيا ، ولا غليظا جافيا متصرفا ذا دراية بأساليب النظم والنثر مرتاضا غير ريض بتلقيح بنات الفكر ، وقد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف وكيف ينظم ويرصف طالما دفع إلى مضايقه ، ووقع فى مداحضه ومزالقه » .

هذا ما قاله الزمخشرى ، أحرص على نقله على طول فى الإستشهاد ، مؤثرا أن أفسح لغيرى أن ينتقد صنيع من يخوضون لجج البلاغة القرآنية على غير استعداد ، وقد أشار صاحب الكشاف إلى حقائق هامة تصلح أن تكون دستورا للنقد الأدبى فى مختلف عصوره ، وذلك حين افترض فى الدارس الأدبى لآثار البلغاء ـ بله كتاب الله ـ أن يكون جامعا بين التحقيق والحفظ ، كثير المطالعات طويل المراجعات

وأن يكون ذا استعداد نفسي أصيل يدفعه إلى التذوق المصير إذ يكون مسترسل الطبيعة منقادها مشتعل القريحة وقادها ، يقظان النفس ، دراكا للمحة وإن لطف شأنها ، منتبها على الرمزة وإن خفى مكانها لا كزا جاسيا ولا غليظا جافيا ، ولعمرى لقد أرهق الزمخشرى بما اشترط أناسا كثيرين خاضوا لجج البيان دون استعداد فصدروا عن عى ، وتحدثوا عن عقم وإمحال إذ دفعوا بأنفسهم إلى مقام تباينت فيه الرتب ، وتحاكت فيه الركب ، ووقع فيه الإستباق والتفاضل ، وعظم فيه التفاوت والتفاضل حتى انتهى الأمر إلى أمد من الوهم متباعد وترقى إلى أن عد ألف بواحد » .

كم أنا حريص على تكرار هذا القول متترسا بعبد القاهر والزمخشرى ، إذ ما أتى كتاب الله من شيء أكثر مما أتى من قوم يقفون من أسراره البيانية موقف العاجز الكليل ، ولهم صدارة جهيرة فى أبواب أخر من أبواب العلم تحمل بعض الناس على تصديقهم فيما لا يعرفون ، بل أن لهم تبعا لذلك عزة مغالية تدفعهم إلى اعتقاد الخطأ فى غيرهم وتجبرهم على تسفيه أصحاب الذوق البلاغى وادعاء نزوحهم عن معاضل التفسير والتأويل ، ولهم قراؤهم الذين يتقاقلون آراءهم عن جهة ثم يحاولون تقليدهم فى كتابة تفسير القرآن فيولون

وجوههم شطر أساتذتهم الخابطين ، وبذلك تركت لدينا أعباء ثقيلة من ميراث هؤلاء النقلة ، وتعددت كتب التفسير تعدداً اختلط صحيحه بزائفه وأصيله ببهرجه ، ومازلنا نرى فى عصرنا الراهن بعـــد أن أشرقت المطابع بأكثر المخطوطات من يعكفون على مؤلفات خاصة فى التفسير القرآنى قد لا تكون أهدى التفسيرات إلى الصواب ، فينقلون عنها دون بصر حتى لنحتاج فى كل عصر إلى زمخشرى جديد .

أظننا بعد هذه المقدمة فى حاجة إلى الإستشهاد بأنموذجين من نماذج التفسير القرآنى ، لنرى كيف اختلطت الحقيقة بالمجاز عند قوم ، وكيف وضح الأمر لدى آخرين ، ولا أحب أن أقسر القارىء قسرا إلى ناحية أراها ، ولكنى أعرض عليه من الآراء المختلفة مايقرب ويبعد ، وله أن يقارن ويحلل فى ضوء مايقرأ ، وليس فى الأمر غموض يدعو إلى الحيرة ، ولكنه القول الواضح والمنطق الصريح .

١ — قال الله تبارك وتعالى فى سورة الأعراف « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا

بما فعل المبطلون ، وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون » .

هذا نص قرآنى تناوله المفسرون فذكر بعضهم ما يؤخذ مباشرة من منطوقه الحقيقى كواقع ثابت واتجه بعضهم الآخر وجهة المجاز فى تفسيره ! فالذين يجعلونه حقيقة واقعـــة يروون آثارا تدل على أن الله عز وجل أول ما أهبط آدم إلى الأرض مسح ظهره فأخرج منه كل نسمة هو بارئها إلى أن تقوم الساعة ثم أخذ عليهم الميثاق وأشهدهم على أنفسهم (ألست بربكم) فقالوا (بلى) ، ويزيدون على النص فيروون أن الله قد مسح مسحتين بيمينه فقال فى الأولى خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، وقال فى الثانية خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون ، فإذا انتهوا من رواية هذه الآثار جعلوها تفسيراً للآية ، وذهبوا يتصيدون من كتب الأحاديث ماقد يلتمس فيه على وجوه من الشطط البعيد ، تأييد هذا التفسير ! وإذا كانت الأحاديث التى يعتمدون عليها لم تبلغ مبلغ التواتر فإن أصول الإسلام المقررة تمنع أن نفسر الآيتين على الوجه الذى يحبون ، إذ أننا نعلم جميعا أن مناط التكليف عند البلوغ ، فكيف يؤخذ الإنسان بعهد قيل عنه أنه أخذ فى عالم الذر ، وقد جاء إلى الدنيا وهو لايعلم شيئا عما كان ! ولماذا يكون الطفل قبل البلوغ غير مسئول عن إيمانه وكفره إن جاء

إلى الحياة ـ حقيقة ـ وقد أخذت عليه المواثيق بالإيمان ، واستمع إلى سؤال الله ا (ألست بربكم) فقال مع القائلين (بلى)! وماذا نصنع مع من ندعوهم بأهل الفترة وقد حكم بنجاتهم من العذاب ؟ لأن الرسول لم يبلغهم عن ربه مايقيم به عليهم وجه الحجة ، إنهم لو كانوا حقيقة بين من أخذ عليهم العهد فى عالم الذر كما يريد هؤلاء أن يقولوا فى تفسير الآية لخضعوا للمسئولية ولحوسبوا على كفرهم بالله ، ولكن نجاتهم من النار تدل على أنهم لم يأخذوا عهدا سابقا يحاسبون على مخالفته ، ولهذا قال تعالى فى كتابه « رسلا مبشرين ومنذرين كيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » ، وإذا كنا نعترف بعدالة الله ونزاهته فإن هذه العدالة النزيهة تمنع أن يحاسب الله عبده على شىء لم يتذكره ، إذ أنه يدخل باب الحياة طفلا غير مدرك وينمو إدراكه شيئا فشيئا وفق مايتيسر له من التجربة والتعليم حين يستمع إلى أمه وأبيه ، أو يزيد فيقرأ النصوص الدينية ويختلف إلى أساتذته الموجهين فيعلم عن ربه مايجهل ويكون قد شارف سن البلوغ فاقتدر على تمييز الخطأ والصواب ولمس من دلائل القدرة الربانية مايدفعه إلى الإيمان ، وإذا كان الله قد جعل من الحكمة فى أخذ هذا العهد على الناس أن تنقطع حجتهم فلا يقولوا «(إنا كنا عن هذا غافلين) فإن نشأة الطفل المشاهدة على ظهر الحياة لدن

يستهل صارخا تنطق بغفلته عن كل شىء ، فإذا حوسب على شىء قيل أنه تعهد به فى عالم الذر فله الحق كل الحق أن يقول لا أتذكر شيئا دون أن يجد من يدفع حجته ! ثم إن القول بتناسخ الأرواح لدى بعض الطوائف المؤمنة بهذا التناسخ قد وجد أداة هدمه فى الرد عليه بأن الأرواح لو كان لها وجود سابق فى بعض الكائنات السابقة ثم تناسخت وحلت فى هذه الأبدان الجديدة لتذكرت قديم عهدها السالف ، واعتادها فى الحاضر ماينبىء عن بعض أحداث الماضى فى دوراتها السابقة ، ونحن نقول تبعا لذلك لو كانت قصة العهد فى عالم الذر حقيقة واقعة لتذكرها نفر ممن أخذ عليهم ذلك العهد ، ولكن ذلك لم يكن فبطل القول به ، ووجب أن نعدل بالنص الكريم من الحقيقة إلى المجاز ، فنرى أن الآيتين من قبيل التمثيل البلاغى على حد الاستعارة ، إذ أن الله عز وجل قد منح العقول من النظر الصائب والتدبر السديد ما يهديها بفطرتها الخالصة إلى وجوده الصريح حين تتأمل فى ملكوت السماء والأرض وترى فى اختلاف الليل والنهار وإنبات الزرع وجريان الأنهار واتزان الطبيعة على نحو ثابت لا يتغير ، ترى فى ذلك كله ماينبىء عن وجود خالق مدبر يستنطق العقول بالإعتراف به ، فيكون ذلك شهادة صريحة على وجوده تهتف بها

النفوس تلقائيا حين تتأمل فى مشاهد الكون الدقيق هتافا نفسيا ينزل منزلة الاعتراف الأكيد وهو ما يشير إليه قول الله « أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى » فكأن مشاهد الكون هى السؤال، والتدبر فى هذه المشاهد الناطقة بالقدرة هو الإجابة المنطقية المحتومة لذوى النظر السديد ، وفى مجال التطبيق البلاغى ننقل من الكشاف قول الزمخشرى فى تفسير الآية :

« هذا من باب التمثيل والتخييل ، ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التى ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم وقال لهم «ألست بربكم» وكأنهم قالوا : بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك وباب التمثيل واسع فى كلام الله تعالى ورسوله عليه السلام وكلام العرب، ونظيره قول الله «إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون» وقوله « فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين» ومعلوم أنه لا قول وإنما هو تمثيل وتصوير للمعنى » .

هذا أنموذج أول نتبعه بأنموذج ثان من قول الله عز وجل

فى سورة الأحزاب « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا » لنلفت القارىء إلى ما رواه نفر من المفسرين عن حقيقة هذا العرض دون مجازه، إذ ينقلون أقوالا كثيرة عن أمثال الحسن البصرى وقتادة وسعيد بن جبير ومقاتل وابن حيان ـ حكاها ابن كثير فى تفسيره ـ وكلها تشير إلى أن أسئلة وأجوبة وقعت فعلا بين الله عز وجل وبين السموات والأرض والجبال، إذ قيل لها هل تحملين الأمانة ومافيها ؟ فسألت وما فيها ؟ فقيل لها إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت ، فرفضت السموات والأرض والجبال هذه التبعة عن إصرار ثم قبلها آدم ، فذلك قول الله « وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا » وقد كان الظن بعالم أديب كابن قتيبة أن يفطن إلى حقيقة المجاز فى الآية فلا يخبط مع الخابطين دون إهتداء وله من نفاذ بصيرته وعمق تحليله مايدفع عنه الشطط وقد نطق بألمعيته كتابه البارع «تأويل مشكل القرآن» حيث عرض فنونا من المجاز القرآنى تدل على وجوه الصواب فى قوة وإحكام ، ولكنه لم يهتد إلى وجه المجاز فى الآية حيث اكتفى فى التعليق عليها بقوله ص ٣٣٨ من التأويل :

« إن الله جل ذكره لما استخلف آدم على ذريته وسلطه على جميع

مافى الأرض من الأنعام والطير والوحش عهد إليه عهدا أمره فيه ونهاه وحرم عليه وأحل له فقبله ولم يزل عاملا به إلى أن حضرته الوفاة، فلما حضرته سأل الله أن يعلمه من يستخلف بعده ويقلده من الأمانة ماقلده ، فأمره أن يعرض ذلك على السموات بالشرط الذى أخذ عليه من الثواب إن أطاع ومن العقاب إن عصى ، فأبين أن يقبلنها شفقا من عقاب الله ، ثم أمره أن يعرض ذلك على الأرض والجبال فكلاهما أباه ، ثم أمره أن يعرضه على ولده فعرضه عليه فقبله بالشرط ولم يتهيب منه ماتهيبته السماء والأرض والجبال » .

وهى رواية إن حازت قبول ابن كثير ومن نقل عنهم من المفسرين فما كان أحرى ابن قتيبة أن ينأى عنها فى كتاب أفرده لتأويل المشكل فصدر فى أكثره عن بصر وسداد .

أما الزمخشرى فقد اهتدى إلى مقطع الصواب حين قال فى كشافه عقب تفسير الآية الكريمة « ونحو هذا من الكلام كثير فى لسان العرب ، وماجاء القرآن إلا على طرقهم وأساليبهم ، من ذلك قولهم: لو قيل للشحم أين تذهب لقال أسوى المعوج ، وكم وكم لهم من أمثال على ألسنة البهائم والجمادات ، وتصور مقاولة الشحم محال ، ولكن

للغرض أن السمن فى الحيوان مما يحسن قبيحه كما أن العجف مما يقبح حسنه ، فصور أثر السمن فيه تصويراً هو أوقع فى نفس السامع ، وهى به آنس وله أقبل وعلى حقيقته أوقف وكذلك تصوير عظم الأمانة وصعوبة أمرها وثقل محملها والوفاء بها » .

لقد صدق الزمخشرى فى قوله « وما جاء القرآن إلا على طرقهم وأساليبهم »،لأن الذين خاطبهم القرآن أول ما خاطب كانوا ينادون الأطلال ويستنطقون الديار ويخاطبون الحيوان على سبيل التمثيل دون أن يجول فى ذهن أحدهم أن الكلام على حقيقته ، وقد انتشرت الأمثال الفرضية إنتشارا ذائع الصيت فى الأدب العربى جاهلية وإسلامية فسيق الحديث على ألسنة الحيوانات والطيور والجمادات فى قصص هادفه ذات مغزى حى ، وما قال أحد إن الحية تكلمت مثلا حين قالت (كيف أعاودك وهذا أثر فأسك) ، وكان ابن قتيبة من البصر والنفاذ بحيث أشار إلى ذلك فى تأويل المشكل فى القرآن إشارات واضحة يؤيدها الشاهد ، ويعضدها المثال ، فكيف غاب عنه ذلك حين تورط فى شرح « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض » بما يجعل العرض حقيقة واقعة لا مثلا تقريبيا ، ونحن ننقل عن التأويل ما يرد عليه ، وكأنه الآن يناقش نفسه ، إذ القول قوله ،

والإستشهاد استشهاده ولعله نسى أو وهم ، قال ابن قتيبة ص ٧٨ مانصه :

« وقالوا فى قوله (ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) ، لم يقل الله ولم يقولا ، وكيف يخاطب معدوما ، وإنما هذا عبارة : فكوناهما فكانتا ، قال الشاعر حكاية عن ناقته :

تقول إذا درأت لها وضينى أهـــذا دينه أبدا ودينى
أكل الدهر حل وارتحال أما يبقى على ولا يقينى

وهى لم تقل شيئا ولكنه رآها فى حال من الجهد والكلال ، فقضى عليها بأنها لو كانت ممن يقول لقالت مثل ما ذكر .

وكقول الآخر :

شكا إلى جملى طول السرى صبر جميل فكلانا مبتلى

والجمل لم يشك ، ولكنه خبر عن كثرة أسفاره وإتعابه جمله ، وقضى على الجمل بأنه لو كان متكلما لاشتكى مابه . وكقول عنترة عن فرسه :

فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمحم

لما كان الذى أصابه يشتكى مثله ويستعبر منه . جعله شاكيا مستعبرا وليس هناك شكوى ولا عبرة » ثم تطرق المؤلف إلى الآيات المماثلة من نحو قول الله « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » وقول الله عز وجل عن جهنم «تدعو من أدبر وتولى» مستشهدا بأبيات كثيرة من ص ٧٨ إلى ص ٨٢ وهو كلام نشير إليه لإيضاح حقيقته التاريخية فحسب ، لأن بحث أمثال هذه العبارات فى أيامنا هذه يعتبر من قبيل تحصيل الحاصل بعد أن كتب النقاد أبوابا طويلة لما يسمى لديهم بالتشخيص واستدلوا عليه بعشرات القصائد والأقاصيص .

إن روايات الوعاظ والقصاص الموضوعة للترغيب والترهيب ، والتى تنطق السماء والأرض والجبال والأنهار والقبور والجنة والنار والسحاب والمطر بآلاف العظات ، والتى وجدت انتشارها الكبير بين السامعين فى حلقات المساجد وساحات الوعظ ، والتى اتكأت فيما تتكىء عليه على مثل قول الله « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » وقوله « ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » هذه الروايات هى التى جعلت نفرا من مفسرى القرآن يذهبون مذهب الحقيقة فيما يعالجونه من آيات التمثيل ، ولو رجعوا إلى عقولهم متدبرين لعرفوا أن المسألة بحيث لا تحتمل الخلاف .

ومما يحير حقا ، أن هؤلاء الذين يتمسكون بالحقيقة فى آيات التمثيل ، يلجئون أحيانا إلى المجاز فيما الحقيقة وجهه الصريح حتى انقلب كفا على كف من العجب العاجب لما ترى من المتناقضات، ولا بد لنا من مثالين آخرين ، لنقف على غرائب مدهشة من التفسير ، وهى على إدهاشها الغريب كانت موضع الذيوع والاشتهار وكأنها حق لا مرية فيه ، إذ أن التمحك فى أساطير السابقين قد أضاف إليها من الطرافة ما جعلها موضع التزايد والترديد ! وقد كنا فيما قبل ننصف المجاز من الحقيقة لدى هؤلاء ، وها نحن الآن ننصف الحقيقة من المجاز .

أما المثال الأول فقول الله عز وجل ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب، إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط، إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب ، فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ فقد ذهبت كثرة كثيرة من متعاطى التفسير القرآنى إلى أن النعجة

مجاز عن المرأة ، وتورط معهم الزمخشرى على نفاذ بصيرته فحكم بأن الآية جاءت على طريقة التمثيل والتعريض دون التصريح لكونها أبلغ فى التوبيخ من قبيل أن المتأمل إذا أداه إلى الشعور بالتعريض به كان أوقع فى نفسه وأشد تمكنا من قلبه وأعظم أثرا فيه وأجلب لاحتشامه وحيائه وأدعى إلى التنبيه على الخطأ فيه من أن يباده به صريحا مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة » فصاحب الكشاف إذن قد صدق الفرية القائلة - فى أهون رواياتها - بأن داود قد أحب زوجة قائده فبعث به إلى المهالك ليتزوجها من بعده ، وهو تخرص كاذب ما أنزل الله به من سلطان ، وسياق النص القرآنى يدحضه ويرديه ، إذ أن الله عز وجل أراد مواساة محمد صلى الله عليه وسلم بسابقيه من الأنبياء حين أوغلوا فى تكذيبه وافتروا عليه الأراجيف فاختار فى مجال التأسى داود عليه السلام وقال مخاطبا نبيه « اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ، والطير محشورة كل له أواب ، وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » ! هذا النبى الذى أوتى الحكمة وفصل الخطاب وكان موضع الأسوة لرسول الله لا يعقل بحال أن يسعى فى قتل النفس جريا وراء شهوة هابطة ثم يكون قد أوتى الحكمة ذات

المحزم الوقور والترفع الرزين ، وكيف تكون قصته أسوة لرسول الله وقد أسف وهبط فيما حاول الزاعمون أن يلصقوه به من افتراء ، إن الرجل الأواب العابد كان قد أخذ على نفسه أن يخلو إلى ربه فى محرابه فى أيام من الأسبوع حددها للناس فلا يقطع الخلوة عليه قاطع ، ثم فوجىء برجلين يتسوران المحراب عليه ففزع من خوف مؤامرة تكون قد دبرت له ، فقالا له نحن خصمان نريد أن نحتكم إليك على عجل إذ أن أحدنا قد أخذ نعجة صاحبه مع أن له تسعا وتسعين نعجة، فرأى داود المسألة من الوضوح بحيث لا تحتمل طول نظر وقال للمدعى ﴿لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض﴾ وفكر داود فى أمره حين امتنع مخطئا عن لقاء المتقاضين وهم فى حاجة إليه حتى اضطر الخصمان إلى تسور المحراب عليه فظن أن الله قد وعظه بهذين فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب ! فأين ما يحمله النص القرآنى من اتهام غاشم ظلوم ؟ وكيف جاز لنا أن نلجأ إلى المجاز فى تفسير النعجة جريا وراء إسرائيليات حذر منها الامام على ، ووعد من يرويها بإقامة حد القذف عليه إذ اتهم الأبرياء ظلما دون دليل ! وإذا كان الله عز وجل يقول ﴿وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم﴾

والإفساد والإبطال بل التفسير المطابق للحق ولألفاظ القرآن الكريم والصواب أن نقول إن رباط الخيل كان مندوبا إليه فى دينهم كما أنه مندوب إليه فى دين محمد صلى الله عليه وسلم فاحتاج إلى الغزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وإجرائها ، وذكر أنه لا يحبها لأمر الدنيا ونصيب النفس وإنما يحبها لأمر الله تعالى وطلب تقوية دينه ، وهو المراد من قوله (عن ذكر ربى) ثم إنه عليه السلام أمر بإعدادها وتسييرها حتى توارت بالحجاب ، أى غابت عن بصره ، ثم أمر الرائضين أن يردوا تلك الخيل إليه فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها ، والغرض من ذلك المسح أمور :

الأول : تشريفها وإبانة عزتها لكونها من أعظم الأعوان لدفع العدو .

الثانى : أراد أن يظهر أنه فى ضبط سياسة الملك متضع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه .

الثالث : أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض ، فهذا التفسير الذى ذكرناه ينطبق إنطباقا موافقا مطابقا ، ولا يلزمنا

نسبة شيء من المنكرات إلى سليمان عليه السلام » .

ولعلنا بعد هذا التطواف السريع نقول في ثقة أن كتاب الله حافل بالمجاز البلاغي ، وقد صنفت كتب كثيرة تظهر روائعه المعجزة وتدعو القراء إلى مدراستها ووعيها ليوازنوا بين قوم ينظرون في تفسيرهم إلى السطح الظاهري فيقصرون وقوم يلجون إلى الأعماق فيبدعون ، للحقيقة إبداع في موضعها كإبداع المجاز في مكانه سواء بسواء .

قضية السجع

لو أن أديبا درس الأدب العربي دراسة متذوقة ، فألم بنصوصه النثرية في مختلف عصوره إلمام الدارس المتأمل ، ومنح الإدراك الجيد والوجدان البصير لما تردد لحظة في القول بأن السجع الفني في دنيا النثر الأدبي كان سمة بارزة لبعض النصوص الممتازة في أدبنا الحافل على مر العصور ، فلم يخل عهد ما من هذا اللون الجاد في حقل الإنتاج الفني ، إذ عرف في الجاهلية وصدر الإسلام وأول العهد العباسي قبل أن تفد عصور الصناعة بترفها الفني وتنميقها الأدبي ، وإذا كانت العصور المتأخرة قد أحالت لونه وكدرت صفوه ، فإن ذلك لم يطفيء

فهل كان نبي الله داود — وهو الأواب ، نعم العبد الذى أوتى الحكمة — بعيداً عنهم ، أو مندرجاً فيهم ؟ لا شك أنه فى طليعة الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ولو صدق المرجفون فيما وهموه لكان منهم بمكان بعيد ، وهو ما لا يتصور من قدوة مثالى أوتى الحكمة وسخر الله له الجبال والطير يسبحن معه بالعشى والإشراق كل له أواب ! وقد قال الله فى خاتمة أمره ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾

هذا هو المثال الأول ، أما المثال الثانى فلا يبعد كثيراً عن سابقه لأنه يتعلق بسليمان بن داود إذ قال الله فى أمره «ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب ، إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد ، فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب ردوها ، على فطفق مسحاً بالسوق والأعناق » فذهب كثير من المفسرين إلى المجاز فى تفسير قول الله ﴿فطفق مسحاً بالسوق والأعناق﴾ إذ جعل المسح فى رأيهم مجازاً عن ضرب الخيل بالسيف ذبحاً وتقتيلا ، متورطين فى تصديق أسطورة تقول أنه استعرض الخيل وقتاً طويلا حتى غابت الشمس ففاتته صلاة العصر ، ثم ندم على تفريطه فى حق ربه فأمر برد الخيل ليضرب سوقها وأعناقها بالسيف إذ اشتغل بها عن فريضة ربه ! وهو عمل — إن صح — كان مدعاة شطط ونزق ، وإهدار لما يجب أن يصان ، وأخذ للحيوان

الأعجم بجريرة لم يكن له يد فى اقترافها ، مع أن المسح باليد هنا حقيقة يعرفها أصحاب الخيل من نفوسهم حين يتحسسونها بأيديهم ليعرفوا مبلغها من القوة والضعف والصحة والمرض ، وقد آثر صاحب قصص الأنبياء المغفور له الأستاذ عبد الوهاب النجار أن يدحض هذه الفرية بإثبات ماقاله الفخر الرازى عنها فى تفسيره ، ونحن نتابع الأستاذ النجار حين نترك للفخر الرازى أن يدحضها بما لا مجال بعده للتخبط والتضليل .

يقول الرازى ـ نقلا عن النجار ـ (هذه القصص إنما ذكرها الله تعالى عقيب قوله « وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب » وأن الكفار لما بلغوا من السفاهة إلى هذا الحد قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ اصبر على مايقولون واذكر عبدنا داود ﴾ وذكر قصة داود ثم ذكر عقبها قصة سليمان ، وهذا الكلام لا يكون لائقا إلا بقولنا إن سليمان عليه السلام أتى فى هذه القصة بالأعمال الفاضلة والأخلاق الحميدة ، وصبر على طاعة الله وأعرض عن الشهوات والملذات ، فلو كان المقصود من قصة سليمان عليه السلام فى هذه المواضع أنه أقدم على الكبائر العظيمة والذنوب الجسيمة لم يكن ذكر القصة لائقا بهذا الموضع ، فثبت أن كتاب الله ينادى على هذه الأقوال بالرد

بريق الأصيل من إنتاجه فى سالف العهود الزاهرة ، ولم يذهب متعة المتذوقين لفنه الموسيقى ، والمتنشقين لعرفه الأدبى وما منا غير من يحفظ بعض روائعه فى حديث نبوى أو مثل حى أو رسالة ملهمة أو خطبة رنانة ، فهو أعلق بالحافظة من أساليب الترسل لذلك ضمن من البقاء حظا لم يتح للكلام المطلق ، إذ كان أدنى إلى الشعر بإحكام مقاطعه ورنة موسيقاه .

هذا كلام لا يختلف عليه أحد من جماعة الدارسين ، ولو تركت الأحكام الأدبية لأولى الفن وحدهم ما كانت للسجع القرآنى قضية يختلف فيها القول ويتشعب الحديث ، ولكن نفرا من أئمة الكلام قد تكلموا فى الإعجاز القرآنى دفاعاً وتأييدا فأبلوا بلاء حسنا فيما يكتبون ويؤيدون ، ثم بدا لهم أن يترفعوا بالقرآن عن السجع إذ كان فى رأيهم حلية متكلفة تدعو إلى الاعتمال المتصنع ، وهو مالا يليق بأفصح كتاب ، وأبلغ حديث ، ونحن لا ننكر فى مجال التحقيق العادل لهذه القضية مالهؤلاء الأئمة من جهد مشكور فى المحاجة والدفاع فإذا اتجهنا إلى نقض آرائهم فى قضية السجع القرآنى فلأنهم بشر مثلنا يخطئون ويصيبون .

ولا ننكر أن كثيرا من الباحثين قد ناقش الإمام أبا بكر

الباقلانى فى هذه القضية ، إذ كان أوفى من بقيت لدينا حججه الجهيرة من أولئك الأعلام ، وكان الأولى بنا أن نترك الترديد لما قيل فنكتفى بالإحالة على هؤلاء الناقدين ، ونعفى القارىء من حديث يستطيع أن يلم به فى مؤلفات السابقين ، كان الأولى بنا فى ظاهر الأمر أن نحيل ونلفت لا أن نشرح ونبسط ، إذ أن الكتب العلمية والدراسات الأدبية قد تضخمت تضخما كبيرا بما حملت من منقول القول ، ومكرر الحديث ، ولو اقتصر كل كاتب على توضيح ما من الله به عليه من طريف الرأى وجديد النقاش لأراح من عبء وأنجى من هم ، ولكننا رأينا المسألة تثار ثانيا فى هذا العصر ويتعرض لتأييد رأى الإمام الباقلانى ومن شايعه نفر من ذوى المكانة يضيفون الجديد إلى حجج السابقين فى قضية السجع القرآنى وإذن فقد عادت الحرب جذعة ولا بد أن نرد بما يفيد :

وقبل أن نقتحم الموضوع فى صميمه . نقرر أن السجع المطبوع فى البيان العربى كافة ليس كما فهم بعض هؤلاء حلية لفظية تقف عند الشكل وحده ، ولو كان كذلك ما استطاع أن يتخطى العصور القديمة من أبعد عهود العربية إلى عصور الثقافة المترفة محتفظا بطابعه الآسر وبأنصاره الملهمين وقرائه المتذوقين ، ولكنه فى خالص أمره

عمل أدبي وجداني يكون صدى لأحاسيس حية يزيد في تجليتها ويترجم عنها ترجمة ذات إيحاء وتأثير ، لأن الكاتب الفني لا ينقل عن خاطره كما يلخص العالم النظرى نتيجة بحثه بعيدا عن منافذ إحساسه ومنازع خواطره ولكنه يقدم قدر الطاقة صورة ناطقة بما يمور في نفسه من انفعال ، وإذا كانت الألفاظ وحدها لا تستطيع الترجمة الدقيقة عن الخواطر إلا إذا نسقت تنسيقاً يحفل بالاشعاع ويومض باللمح ، ويستجيش القارىء بما يجمع من تلاؤم واتساق فان السجع المطبوع هنا عمل ضرورى يزيد في الافصاح عن المشاعر ويوسع مجال الضوء نقل الخواطر فتظهر ساطعة بايحائها ، وضيئة بألوانها ، وما يستريح القارىء للفاصلة الجيدة والمقطع القوى لأنه أمتع أذنه وحدها بل لأنه صادف من نفسه هزة وروى من غليله ظمأ ، فالسجع المطبوع إذن ذو دور أساسى في الترجمة الصادقة عن المشاعر والنقل الحى عن الخواطر ، وما كان السجع حلية شكلية إلا لدى الأدعياء من ذوى الرصف الحجرى ، والبناء المعجمى ، ومثل هؤلاء لا يجدون من الاقبال والحظوة نصيباً ما إلا إذا تأخرت الأذواق في عصور النكسات الأدبية المظلمة ، وهى عصور قاتمة ولكنها لم تستقر إذ أن الأضواء قـــــد صارعتها في كل جانب حتى انقشعت دياجيرها عن صباح وهاج .

هذه ناحية نحب أن نشير إليها ثم نردفها بناحية ثانية لا تقل عنها أهمية وخطراً ، وهى أن بعض القارئين — والدارسين أيضاً — يظنون السجع المطبوع مقصوراً على الألوان العاطفية وحدها ، بحيث لا يحسن الترجمة لدى الحجاج العقلى ، والنقاش النظرى ، فهو لديهم يكاد ينكمش فى رسالة أخوية أو حديث عاطفى أو خطبة إنفعالية ، إذ أن فواصله تضيق عن الاقناع المفصل ، والترتيب المنطقى ، والتوضيح الكاشف ! ومن هنا جل القرآن الكريم فى رأيهم عن السجع لأن ميدانه ميدان النقاش المفحم والحجاج الملجم، وذلك مما يخالف الحق فيما يجور فيه من حكم ، لأن السجع المطبوع يقنع ويستميل ، يقنع بالمنطق الجاد والرأى النافذ والحجاج الناصع ويستميل بالتصوير الجيد والملاءمة المنسقة ، والايقاع المؤثر ، وهو بغير الاقناع الصادق لا يضمن بقاءه الخالد فى صفحات الأجيال ! فاذا أردت المثال المقنع على ذلك من كلام السماء وحديث الأرض فلنسمع أولا من قول الله عز وجل .

﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون ، أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا

تذكرون ، أفرأيتم ما تحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون ، إنا لمغرمون بل نحن محرومون ، أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ، أفرأيتم النار التى تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين ، فسبح باسم ربك العظيم ﴾ .

فاذا تركنا الكتاب الخالد إلى كلام الناس ، سنجد من آثار الجاهلية ذات الاقناع والامتاع روائع قوية ! كوصية أوس بن حارثة لابنه مالك ومنافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة وما خلص من أحاديث الوفود العربية على كسرى ، وقد جلجت فى الناس خطبة قس بن ساعدة ذات الاقناع الملجم التى يقول فى بعض ما روى منها :

أيها الناس اسمعوا وعوا ، وإذا وعيتم فانتفعوا ، إنه من عاش مات ؛ ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ! ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر وبحار تزخر ، إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا ، ما بال الناس يذهبون

ولا يرجعون أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا هناك فناموا ؟ ﴾

وهى أسئلة عقليـــة صارمة تشغل المنطق الجاد ، كما أنها ذات فواصل رائعة رصينة تمتع الوجدان البصير ، ولئن حاول بعض المتشككين أن يصف بإسنادها وبعدها تلفيق ملفق فى العصور الإسلامية فذلك فى مجالنا الاستشهادى الآن لايزحزح مكانها من التدليل إذ هى مثال من السجع المقنع ذى التأثير الحى بمبناه ومعناه ! وإذا كان قس من الإشتهار بحيث ضرب المثل بفصاحته ، فإنا نجد لغير المشتهرين فى مجال السجع الفنى من الإقناع الملجم ، والتدليل المفحم ما يرتفع بهذا اللون إلى أبهى مجالى التعبير الأدبى، ونقدم المثال لذلك من نقاش حار جاد أثاره أعرابى لم يعرف اسمه بمجلس عبد الملك ابن مروان ، إذ خطب فى قوة وإفحام فقال « مهلا بنى مروان، تأمرون ولاتأتمرون ، وتنهون ولا تنتهون ، وتعظون ولاتتعظون ، أفنقتدى بسيرتكم فى أنفسكم ، أم نطيع أمركم بألسنتكم ، فإن قلتم اقتدوا بسيرتنا ، فأنى وكيف ؟ وما الحجة ، وما المصير إلى الله ؟ أنقتدى بسيرة الفسقة الظلمة ، الجورة الخونة ، الذين اتخذوا مال الله دولا ، وعبيده خولا ، وإن قلتم استمعوا نصيحتنا ، وأطيعوا أمرنا ، فكيف

ينصح لغيره من يغش نفسه ، أم كيف تجب الطاعة لمن لم تثبت عند الله عدالته ، وإن قلتم خذوا الحكمة من حيث وجدتموها ، واقبلوا العظة ممن سمعتموها ، فعلام وليناكم أمرنا ، وحكمناكم في دمائنا وأموالنا ، أما علمتم أن فينا من هو أنطق منكم باللغات ، وأفصح بالعظات ، فتخلوا عنها ، وأطلقوا عقالها ، وخلوا سبيلها ، ينتدب إليها آل رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين شردتموهم في البلاد ، ومزقتموهم في كل واد ، بل تثبت في أيديكم لانقضاء المدة ، وبلوغ المهلة ، وعظم المحنة ، فإن لكل قائم قدرا لا يعدوه ويوما لا يخطوه ، وكتابا بعده يتلوه ،

وسواء خطب بهذا القول في مجلس عبد الملك أو صنع فيما بعد بلسان عربي مبين ، فإنه يقدم الشاهد الحي على تأثير السجع المفحم ، فقد حلل القائل أمر بني مروان على شتى وجوهه ، وقلبه في مختلف اتجاهاته حتى كشف سوءاتهم بما فصل من قول وشقق من حديث ، فرنت أسجاعه في سمع الزمن لتلقى النذير لكل من حاد وخالف ، وتكشف العاقبة لمن شذ وتجانف .

وإذا ثبت أن السجع المطبوع فن ضروري لا زينة شكلية ،

وأنه يقدم من ألوان الحجاج والإقناع قدر مايتيح من فنون البهجة والإمتاع فإن تقرير ذلك مما يفيد في مناقشة القائلين بنفي السجع عن القرآن لنواجههم بالرأي عن دراية تامة بأهمية السجع المطبوع ، ورسالته القوية في عالم البيان وقد آن لنا أن نفسح المجال لتوضيح رأيهم كما سطروه ، ثم لنعقب عليه بأهم ما وجه إليه من انتقاد .

ولئن كان الباقلاني رحمه الله أوفى من أفاض في نفي السجع عن أسلوب الذكر الحكيم بأدلة سجلها في إعجاز القرآن فها نحن أولاء نجمل أدلته لنرد عليها بما نراه .

١ -- قال الباقلاني : «ولو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك إعجاز ، ولو جاز أن يقال هو سجع معجز لجاز لهم أن يقولوا ، شعر معجز ، وكيف والسجع مما كان يألفه الكهان من العرب ، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر ، لأن الكهانة تنافي النبوات ، وليس كذلك الشعر » ص ٩٠ .

وهذا حجاج جدلي يصطنع أساليب المنطق في ظاهره ، ولكن فحواه لا يخضع لتحليل استقرائي كاشف لأن القول بأن القرآن لو كان

سجعا لـكان غير خارج عن أساليب كلامهم يوهمنا أن القرآن قد خرج عن الأسلوب العربي في ديباجته الرائعة ، والحقيقة أنه كتاب عربي أنزل بلسان عربي ، وقد قال الله عز وجل في ذلك «ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي» ؟ فهو داخل لا محالة في الأسلوب العربي وقد وقع الإعجاز بصياغته العربية التي يتعلق بلغتها الفصحاء دون أن يستطيعوا الأتيان بسورة مثله ، أما قوله « لو جاز أن يقال هو سجع معجز لجاز لهم أن يقولوا شعر معجز» فمما يقع موقع العجب ! لأن للشعر أوزانه وقوافيه التي تمنع أن ينتسب إليها القرآن والذين قالوا عن رسول الله «شاعر نتربص به ريب المنون» لم يقولوا ذلك عن اعتقاد وإيقان فهم يعرفون ضروب الشعر وأوزانه إنما غلبتهم العصبية ، فطفقوا يهرفون بما لا يوقنون فمرة ينسبونه للكهانة وثانية للسحر وثالثة للشعر لا لأنهم يعتقدون ذلك بل ليوحوا إلى العامة بما يغرس بذور الشك في نفوسهم فلا يؤمنون ، فهم إذن ممن قال الله فيهم «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » فلكل قارىء للذكر الحكيم أن يقول سجع معجز دون أن يلحق القرآن في ذلك هباءة من ريب ! وإذا كان السجع مما ألفه الكهان من العرب في الجاهلية ، فذلك لا يمنع أن تأتي بعض الآيات

الكريمة مسجوعة دون اشتباه بينها وبين سجع الكهان لأن السجع الجاهلى لم يكن حجراً محجوراً على الكهنة والمتكهنين حتى يلحق به كل سجع يقال إنما تداوله الخطباء والمنافرون والمتحدثون تداولا لا يشتبه فى شىء بما تنطق به الكهان من سجعات، ولذلك لم يجرؤ جاحد من أعداء الرسالة أن يلحق أسلوب القرآن بسجع هؤلاء عن صدق موقن، وإنما هو تخبط ضال كتخبط من نسب القرآن للشعر سواء بسواء .

٢ — قال الباقلانى « والذى يقدرونه أنه سجع فهو وهم ، لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعاً ، لأن ما يكون الكلام به سجعاً يختص ببعض الوجوه دون بعض ، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو فى تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ يقع فيه تابعاً المعنى ، وفصل بين أن ينتظم الكلام فى نفسه بألفاظه التى تؤدى المعنى المقصود فيه ، وبين أن يكون المعنى منتظماً دون اللفظ ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كإفادة غيره ، ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع كان مستجلبا لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى » ص ٩١ .

أما قول أبى بكر « قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن

سجعا ؟ فمحاولة لتعريف السجع تعريفا لا ينطبق على واقعه إذ أراد أن يجعل السجع موقوفا على كل فاصلة يتبع فيها المعنى اللفظ ، وما أظن أديبا يقدر سجعا ملفقا من هذا النوع إذ هو متكلف لا يفصح عن قدرة ما وفى استطاعة كل قائل أن يأتى به ، أما السجع المحمود لدى البلغاء فهو ما انتظم فيه الكلام بألفاظه التى تؤدى ما قصد من معناه وقد جاء سجع القرآن من هذا النمط البليغ ، فكأن الباقلانى رحمه الله قد اعترف بمفهوم السجع القرآنى دون أن يعترف باسمه فقط ، وهنا يكون الخلاف لفظيا لا حقيقيا ، لأن السجع المحمود لدى البلغاء هو ما انقاد فيه اللفظ إلى المعنى ، وقد جاء ذلك فى القرآن واعترف به الباقلانى على ألا يسمى بالسجع بل بالفواصل ! أفنكون إذن قد تجشمنا تعريف السجع على نحو لم يقل به البلغاء لنبتعد به عن القرآن ثم يضطرنا الواقع الملموس إلى الإعتراف به ، فنبحث عن اسم آخر سواه ، وإذا كانت الفواصل المتكلفة مما جاز أحيانا لبعض الناس أن يقع فيه أفينقذهم اسم الفاصلة من رميهم بالتكلف ، أم أن النص الأدبى هو مجال التقـــــدير الفنى مهما تنوعت المصطلحات .

٣ - قال الباقلانى : لو كان الذى فى القرآن على ما تقدروه

سجعاً لـكان مذموماً مرذولا ، لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه ، واختلفت طرقه ، كان قبيحاً فى الـكلام ، وللسجع منهج مرتب محفوظ وطريق مضبوط متى أخل به المتـكلم أوقع الخلل فى كلامه ، ونسب إلى الخروج عن الفصاحة كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئاً ، وكان شعره مرذولا ، وربما أخرجه عن كونه شعراً » ص ٩٢ . يرى الباقلانى أن للسجع منهجاً محفوظاً وطريقاً مضبوطاً ، متى أخل به المتـكلم أوقع الخلل فى كلامه ونسب إلى الخروج عن الفصاحة وقد شبهه فى ذلك بالشعر إذا خرج عن الوزن المعهود » . وهو قول لم نسمع به من غير أبى بكر ، إذ أن السجع لا يتقيد بوزن خاص كما يتقيد الشعر بالبحر ، فمع التسليم بأن الشعر إذا خرج عن الوزن المعهود لا يعد شعراً فإن الفارق بينه وبين السجع واضح جلى ، إذ أن للساجع أن يطول بعض الفقرات مستهدياً بذوقه الفنى دون أن يخضع للوم ، وما روى من النثر الجاهلى يشهد بذلك ، ولا أدرى من افترض أن تـكون السجعة موازنة لأختها فإذا زادت حرفاً أو كلمة سقط اعتبارها الفنى كما يسقط اعتبار الشعر المختل ، أليس ما بأيدينا من صحف البلغاء يقدم الأنموذج لحرية الناثر ، ويمنحه من السعة ما يجعل قول الباقلانى ضربا من التعسف

الغريب ، لنا أن نسمع مثالا أول من قول الله :

« والذاريات ذورا ، فالحاملات وقـرا ، فالجاريات يسرا فالمقسمات أمرا » لنجد النظام المطرد ، والقياس المضبوط فى بعض الآيات ثم لنا أن نستمع ثانية إلى قول الله : « الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان، الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ،والسماء رفعها ووضع الميزان، ألا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » لنجد الفقرات قد اختلفت قصرا وطولا دون أن يحول ذلك من روعة النظم وقوة الإيقاع ، يخيل إلى أن مثل الإمام الباقلانى لم يكن فى حاجة إلى من يقول له إن الوزن الشعرى شىء والنهج النثرى شىء آخر ، ولـكنه تصدر للدفاع عن قضية أدبية بمنهج جدلى لا يخضع للاستقراء الفاحص ، بل يكتفى بالآراء العامة وإن عزت على التطبيق وحرنت على المثال .

٤ — قال الباقلانى : « لو كان الـكلام الذى هو فى صورة السجع منه [من السجع] لما تحيروا فيه وكانت الطباع تدعو إلى المعارضه لأن السجع غير ممتنع عليهم بل هو عادتهم فـكيف تنقض العادة بما هو نفس العادة ، وهو غير خارج عنها ولا مميز لها . . .

ولو كان ذلك عندهم سجعاً لم يتحيروا فيه ذلك التحير ، حتى سماه بعضهم سحراً وتصرفوا فيما كانوا يسمونه به ، ويصرفونه إليه ، ويتوهمونه فيه ، وهم فى الجملة عارفون بعجزهم على طريقته وليس القوم بعاجزين عن تلك الأساليب المعتادة عندهم المألوفة لديهم »
ص ٩٣ .

لا نزال بصدد جدل نظرى يبتعد عن الواقع دون أن يرجع إليه ، لأن القول بأن العرب لو علموا أنهم يتحدون بالسجع لاندفعوا إلى معارضته بما لا يتعذر عليهم كما قال أبو بكر ، هذا القول يدىء بأن تأليف الكلام على طريقة السجع القرآنى فى مكنة من يقدر على السجع فى خطبه ومفافرته ، فما عليه إلا أن يؤلف بين الكلمات المتشابهة الأواخر ليبلغ مبلغه من المعارضة ! ولكن الحقيقة أن العرب يعلمون أن فى القرآن ما هو مسجوع العبارة ، وأنهم مهما حاولوا معارضة هذه الأسجاع لن يبلغوا بعض ما يريدون لأن المسألة ليست هى المعرفة لصفة الكلام — فما أسهل أن يتحقق ذلك — ولكن المسألة مسألة المحاكاة والمعارضة ، أما تحيرهم فى وصف القرآن بين السحر والشعر فليس لأنهم لم يفطنوا إلى أسجاعه البليغة ولكن شدة تأثيره النفسى قد قذفت بهم فى حيرة جعلتهم يمسكون بأذيال

الـكلمات متحيرين دون أن يهتـدوا إلى ما يريدون من شغب وتضليل ، وإذا كانوا قد ألفوا السجع فقد ألفوا الـكلام المرسل أيضاً وعجزوا عن محاكاة هذين اللونين معا من فنون القول فلماذا يكون الإلمام بحقيقة السجع وحده مما يسهل طريق للمارضة فى منطق الإمام الجليل .

٥ — ثم قال أبو بكر (وأما ما ذكروه من تقديم موسى على هارون عليهما السلام فى موضع ، وتأخيره عنه فى موضع لمـكان السجع وتساوى مقاطع الـكلام فليس بصحيح لأن الفائدة عندنا غير ما ذكروه وهى إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدى معنى واحداً من الأمر الصعب الذى تظهر فيه الفصاحة وتتبين فيه البلاغة ، وأعيد كثير من القصص فى مواضع مختلفة على ترتيبات متفاوتة . ونبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ به ومكرراً ، ولو كان فيهم تمكن من المعارضة لقصدوا تلك القصة فعبروا عنها بألفاظ لهم ، تؤدى تلك المعانى ونحوها ، وجعلوها بإزاء ما جاء به وتوصلوا بذلك إلى تـكذيبه ، وإلى مساواته فيما جاء به ، فعلى هذا يكون المقصد — بتقديم بعض الـكلمات وتأخيرها — إظهار الإعجاز على الطريقين جميعاً دون التسجيع الذى توهموه » ص ٩٥ .

أتعب الرجل نفسه فى غير طائل ، فقد اجتهد فى تسطير ما تقدم ليثبت أن التقديم والتأخير فى كلمتين ذكرتا فى أسلوبين مختلفين ليعجزا قوماً تصدوا للمعارضة فضلوا ، إذ لو قدروا على ذلك لأتوا بألفاظ مماثلة تؤدى تلك المعانى ونحويها ؛ وقد نسى الباقلانى رحمه الله أن المعجز يكون بتأليف القصة جميعها فى نسق يقرب من نسق القرآن ، أما تقديم لفظ على لفظ فليس وحده دليل الإعجاز ، ومتى نظرنا إلى الأسلوب القرآنى هذه النظرات الجزئية المبتورة فقد أخطأنا طريق الإعجاز ، هذا بعض ما أقوله فى الرد على الباقلانى ، ومن الخير أن أنص على أنى اهتديت فيما رددت به بصاحب سر الفصاحة ابن سنان الخفاجى حيث أوجز آراء علماء الكلام من الأشاعرة فى القول بنفى السجع عن القرآن مقتصراً على كلام على بن عيسى الرمانى وموجهاً رده عليه ، وإذا كان الرمانى قد سبق الباقلانى برسالته الموجزة فى إعجاز القرآن فلا نجد مناصاً من القول بأن الباقلانى قد حذا حذوه واتكأ عليه فى أكثر ما قال ، ولذلك فإن ما كتبه ابن سنان الخفاجى فى سر الفصاحة يصلح أن يكون رداً على أبى بكر الباقلانى وأكبر الظن أنه قرأ كتابه فى الإعجاز وإن لم يشر إليه ، لأن دفاع الباقلانى عن الإعجاز قد ترك بصماته الواضحة فى أكثر ما تدوول بعده من المؤلفات ، فكيف يخفى مكانه على أديب جهير كابن

سنان وقد جمعهما قرن واحد من الزمان وقد تعرض ابن سنان إلى ناحية دقيقة فى رده المقنع حين أجاب عن اعتراض هام يحتمل توجيهه فى موضوعه ، فقال فى سر الفصاحة :

« فإن قال قائل إذا كان عندكم أن السجع محمود ، فهلا ورد القرآن كله مسجوعا ، وما الوجه فى ورود بعضه مسجوعا وبعضه غير مسجوع ، قيل إن القرآن أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعادتهم ، وكان الفصيح من كلامهم لا يكون كله مسجوعا لما فى ذلك من أمارات التكلف والاستكراه والتصنع ، ولا سيما فيما يطول من الكلام فلم يرد مسجوعا جريا به على عرفهم فى الطبقة العالية من كلامهم ولم يخل من السجع لأنه يحسن فى بعض الكلام على الصنعة التى قدمناها ، وعليها ورد الفصيح فى كلامهم فلم يجز أن يكون عاليا فى الفصاحة وقد أخل فيه بشرط من شروطها ، فهذا هو السبب فى ورود القرآن مسجوعا وغير مسجوع » . وهـــذا الرد لا يشفى كثيراً من ريب معترضة ، لأن القول بأن العرب قد ألفت المسجوع وغير المسجوع فى كلامها فجاء القرآن ليوافق بذلك طبقتها العالية فى القول ، هذا القول موجز يبلغ بصاحبه مبلغ الضيق ، والأولى أن نعمل على تفصيله بما يوضح غامضه ويجلو مبهمه فنقول : إن السجع ليس زينة يؤتى بها

فى كل موضع كما يشاء الكاتب ، ولكنه مما يناسب غرضاً دون غرض ، ويليق بموضوع دون موضوع ، فإذا حمد فى الترغيب والترهيب والوعد والوعيد ، وذكر الجنة والنار والزراية بالأصنام والأوثان ، وسرد القصص التاريخية المتقدمى الأنبياء والمرسلين وسابقى البررة والمفسدين فإنه لا يصلح بحالة فى بعض الأغراض الهامة ، والتشريعات الجازمة ، لأن الدقة القرآنية تتطلب اتصال السرد بما لا يشتت الفهم فى مجال الإدراك العقلى والاستنباط الفقهى ، لذلك نجد أن آيات الأحكام تطول بعض الطول نسبياً عما يجاورها من الآيات ، وأطول آية فى القرآن هى التى تحدثت عن كتابة الدين إذا تداين المسلمون إلى أجل مسمى ، فذكرت شهادة الشهود وعدالتهم ، ودقة الكاتب وصدقه ، وأصرت أن يملى الذى عليه الحق أو وليه إذا كان سفيها أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يملى لسبب من الأسباب ، كما اشترطت عدداً معيناً من الشهود رجالا أو نساء ، وعللت الكثرة المطلوبة فى النساء دون الرجال ، ووضحت ما يحسم النزاع لدى الخلاف ، والتجارة الحاضرة وداعية الإشهاد لدى المبايعة ! وكلها قوانين دقيقة لم يتح لها أن تصاغ فى بيان أرق من هذا البيان ، وشبيه بهذه الآية فى سياقها الدقيق آيتا الميراث فى سورة النساء حيث توالت أحكام الأولاد والبنات والأخوة والأم والزوج

والزوجة والكلالة فى أسلوب حاسم واضح يرفع الشبهة ويجلو الإرتياب، ومثل هذه الروائع القانونية لا يسأل عن السجع فيها بحال، إذ لكل مقام مقال، إن إختلاف الأغراض فى الأسلوب القرآنى هو علة التزام السجع فى مكان دون مكان ، وكأنى بابن سنان الخفاجى وقد لحظ ذلك ولكن قصر به القول عن التوضيح والاستشهاد ، أما ابن الأثير وقد ورث ثقافات سابقيه من بلغاء النقاد فقد تورط فى تعليل لا ندرى وجهاً سديداً لصحته ، وذلك حين قال بعد أن ساق هذا الافتراض « إن أكثر القرآن مسجوع حتى إن السورة لتأتى كلها مسجوعة وما منع أن يأتى القرآن كله مسجوعا إلا أنه سلك مسلك الإيجاز والاختصار والسجع لا يؤاتى فى كل موضع من الكلام على حد الإيجاز والاختصار فترك استعماله فى القرآن لهذا السبب ،وهنا وجه آخر — هو أقوى من الأول — وذلك أنه ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع، وإنما تضمن القرآن غير المسجوع لأن ورود غير المسجوع معجزا أبلغ فى باب الإعجاز من ورود المسجوع ومن أجل ذلك تضمن القرآن القسمين جميعاً (ص ٧٤) .

فهذا الرد متشابه الخطأ أولا وأخيراً ، إذ أن القرآن لم يترك السجع فى بعض آياته لسلوكه مسلك الإيجاز والاختصار كما توهم صاحب المثل السائر أولا ، لأن الإيجاز لا يمنع السجع بحال ، وما عرف الإيجاز

فى كلام العرب بأبلغ مما عرف فى كلمات قصار مسجوعة هى ما يسمى بالحكم والأمثال ، مثل قولهم (المنية ولا الدنيه) ، (رب قول أنفذ من صول) ، فالقول بأن الإيجاز ينافى السجع قول لا ينطق به من درس أسجاع العرب الشاردة وأمثالها السائرة فى الجاهلية والإسلام معا ، أما رده القائل بأن المسجوع أبلغ من غيره وقد ترك القرآن السجع ليكون فى غير المسجوع معجزا كمهده بالمسجوع ، فهو إغراق فى تقدير السجع نمهده فى أمثال ابن الأثير ممن فتنوا به أكبر افتتان ، وكان عليهم أن يعلموا أن السجع فى موضعه جميل والترسل فى مكانه جميل ! وكتاب الله أدرى بموقع الجمال فى هذين وأحرص على مراعاة المقتضيات ومناسبات الأحوال المتجهة به إلى السجع أو الترسل وإلى الإيجاز أو الإطناب .

على أن مما يكمل به البحث أن نعرض إلى الناحية التطبيقية فنختار إحدى السور الكريمة ، لنرى أثر السجع المطبوع فى إبراز معانيها وإحكام مبانيها وإشباعها باللمح واحتفائها بالإيقاع ، ولتكن سورة ، المدثر فقد تعددت معانيها واختلفت أسجاعها باختلاف هذه المعانى لتؤكد أن لكل منحى إيقاعه ، ولكل حديث نبره وموسيقاه ، إذ أن اللحن لا يمضى على وتيرة واحدة إلا إذا اتحد الغرض فوافق

الثوب الجسم موافقة تنطق بالتلاؤم والتجانس وتقرن المثيل بالمثيل :
لقد بدئت السورة الكريمة بنداء قوى للرسول يدفعه لإنذار قومه وعبادة ربه مذكرة إياه بالآخرة حين ينفخ فى الصور فذلك يومئذ عسير ، ومتنقلا إلى الحديث عن عاند وكابر وكافر من المشركين، منذرا إياه بلواحة للبشر عليها تسعة عشر ، ومطيلا بعض الشيء فى الحديث عن أصحاب النار وعدتهم ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ، ثم تتجه السورة إلى حديث المؤمنين عن المجرمين وسؤالهم عن أسباب عذابهم فى جهنم لتسوق العبرة والتذكرة لمن ينفرون من سماع الذكر الحكيم كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة ، وتنتهى الآيات بالاعتبار والتذكير بالله فهو وحده أهل التقوى والمغفرة ، تلك ست وخمسون من الآيات المسجوعة ذات الإيقاع المعبر عن المراد والمختلف فى صداه المنغم باختلاف ما يتوجه إليه من معان !
فحين أراد الله أن يصل الوحى إلى نبيه بعد انقطاع صاح به فى قوة ﴿ياأيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر﴾ فاذا انتهت هذه الإرشادات الحاسمة بأسلوبها الطلبى الجازم ، ونبرها المتحد المنتهى بالراء انتقل إلى التذكير باليوم الآخر فى إيقاع جديد ينبىء عنه قول الله :﴿ فاذا نقر فى الناقور ، فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير ﴾

وكأن التعميم يجمل حين يردف بالتخصيص ، فيعرض القرآن من نماذج هؤلاء الكفرة من قال الله فى شأنه : ﴿ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا﴾ جاءت هذه الأوصاف منتهية فقراتها بالدال الممتدة ليتحدث عن هذا الطاغية العنيد المغتر بماله وجاهه وبنيه ، فإذا قدمت صورته العامة للقارىء أبلغ تقديم ، أتبع القرآن ذلك بتصوير موقف خاص من مواقفه فانتقل النبر من حرف إلى حرف ، ليظهر الموقف الجديد مختلفا بإيقاعه وإيحائه فيكون أجذب للسمع وأدعى للالتفات وبخاصة إذا اتجه الحديث إلى تصوير موقف ذائع مشتهر عرفه العامة والخاصة من المسلمين والمشركين على السواء ، حين اضطر الوليد بن المغيرة إلى الافتراء على القرآن بعد أن صدع فيه بكلمة الحق ، فأتى بما عبر عنه القرآن فى قوله « انه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، ان هذا إلا قول البشر » ويجىء الرد على قوله فى نبر يتفق مع حديثه إذ يقول الله عنه : ﴿سأصليه سقر﴾ وما أدراك ما سقر ، لا تبقى ولا تذر ، لواحة للبشر ، عليها تسعة عشر !! وهنا نشير إلى ظاهرة أسلوبية هامة : هى أن الله عز وجل حين

أراد أن يتحدث عن عدة أصحاب النار من الملائكة ترك السجع إلى الترسل ليبين صدق قوله لدى الكافرين إذ يفتنون ، والمؤمنين إذ يزدادون إيمانا وليحكي قول الكافرين والذين في قلوبهم مرض ، وذلك مما يستدعي البسط المتصل إذ لا يناسبه السجع المتواتر ، فأعطى الشاهد الواضح على أن المعاني هي التي تسير بالأسلوب سجعا وترسلا حيث تبلغ به مبلغ الإعجاز وستجد ذلك واضحا حين تقرأ قول الله « وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ، وماهي إلا ذكرى للبشر » فإذا ترك حديث المؤمنين والكافرين عاد إلى السجع القصير ثانية إذا أقسم كلا والقمر ، والليل إذ أدبر ، والصبح إذا أسفر، إنها لإحدى الكبر، نذيرا للبشر ، لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ منتقلا إلى الحديث عن أصحاب اليمين حين يتساءلون عن المجرمين ﴿ما سلككم في سقر﴾ فتكون الإجابة : ﴿لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين، وكنا نكذب بيوم الدين، حتى أتانا اليقين﴾ وهي إجابة تطرد على نسق خاص متفق الفقرات، فإذا تركت الآخرة

إلى الدنيا تغير هذا النسق إلى فقرات أخرى مناسبة للمعنى المراد إذ يقول الله ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين، كأنهم حمر مستنفرة، فرت من قسورة ، بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشرة كلا بل لا يخافون الآخرة ﴾ ثم يهددهم القرآن بما يتفق مع السياق البيانى إذ يقول ﴿ كلا انه تذكرة، فمن شاء ذكره ؛ وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾

لك أن تقرأ سورة المدثر ثانية وثالثة فى ضوء ما أومأت إليه من التفسير لتعلم أن السجع يتبع المعنى ويوائم الغرض ويزيد فى رسالة البيان إيضاحا وتلوينا وإيحاء وهكذا جاء سجع القرآن .

الوحدة فى السورة القرانية

(الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد) [(١)].

يقرأ المؤمنون كتاب الله فتقشعر جلودهم خشية لدى مواقف الترهيب ، وتنبسط نفوسهم شوقا لدى مواقف الترغيب ، وهم أثناء التلاوة يستشعرون روحا قويا يسيطر عليهم بسلطانه ، وضوءا باهرا

(١) سورة الزمر — الآية ٢٣

يغمر الآيات فيجتذب أرواحهم بشعاعه ، هـذا الروح الآسر ينتظم آيات القرآن جميعها ، ويرفرف عليها رفرفة عاطرة ، فيكون بمثابة وحدة جامعة للآيات رابطة بين المعانى والتعبيرات ، فأنت تنتقل فى السورة الـكريمة من معنى إلى معنى ومن قصة إلى خبر دون أن يفارقك هذا الروح الآسر فلا تحس اقتضابا أو انقطاعا إذا تركت غرضا إلى غرض وعهدنا بالمؤلف البشرى تختل أبوابه ، وتتفكك عراه ، إذا كانت موضوعات الباب الواحد متناثرة لا تجمعها وحدة تامة ، فما بالنا نقرأ السورة الطويلة فنجدها ذات موضوعات عدة ، وهى على تعدد موضوعاتها ملتئمة ملتحمة تنتقل بك من غرض إلى غرض ، ومن معنى إلى معنى دون أن تحس فجوة أو خللا ودون أن تشعر أنك فارقت مكانا إلى مكان ، ذلك لأن روح القرآن الآسر بروعته ، الناصع بقوته قد سيطر على الأسلوب سيطرة كانت من المعانى مكان السلك من الدرر ، يجمع نظامها ، ويضم لألاءها فتبدو ساطعة فاتنة متناسقة على المنحر الوضىء .

لقـد قال الأقدمون فى ذلك ما قالوا ، ولـكن الأستاذ مصطفى صادق الرافعى قد جلى الحديث فى هذه الناحية تجلية واضحة أصابت الهدف إصابة لم تجعل القائل أن يزيد ، وكان مما فتح الله به عليه أن قال مهتديا الى هذا السر الرائع من نظام القرآن الـكريم .

« و هذه الروح - وقد سماها الرافعى روح التركيب - لم تعرف قط فى كلام عربى غير القرآن ، وبها انفرد نظمه وخرج مما يطيقه الناس ، ولولاها لم يكن بحيث هو كأنما وضع جملة واحدة ، ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين اذ تراه ينظر فى التركيب الى نظم الكلمة وتأليفها ، ، ثم الى تأليف هذا النظم فمن هنا تعلق بعضه على بعض[1] ، وخرج فى معنى تلك الروح صفة واحدة هى صفة اعجازه فى جملة التركيب كما عرفت ، ولولا تلك الروح لخرج أجزاء متفاوتة على مقدار مابين هذه المعانى ومواقعها فى النفوس وعلى مقدار مابين الألفاظ والأساليب التى تؤديها حقيقة ومجازا ، كما نعرفه من كلام البلغاء عند تباين الوجوه التى يتصرف فيها ، على أنهم قد رفهوا عن أنفسهم وكفوها أكبر المؤنة فلا يألون أن يتوخوا بكلامهم الى أغراض ومعان يعذب فيها القول ثم هم مع هذا يستوفون المعنى الواحد على وجهه فإذا تحولوا الى غيره وأفضوا بالكلام الى سواه رأيت من اقتضابهم فى الأسلوب ومن التناكر فى وضع المعنى إلى المعنى مايشبه فى اثنين متقابلين من الناس منظر قفا الى وجه »

ولكن ما اهتدى إليه الرافعى من روح التركيب الجامع لروعة الذكر قد غاب عن سواه، حين رأى القرآن يتنقل فى السورة الواحدة

من غرض إلى غرض دون أن يقتصر على موضوع واحد ، فأخذ يتلمس الوسائل البعيدة والقريبة فى عقد الصلات بين المعانى المتجاورة، وقد يخالفه التوفيق فى بعض ما يحاول من هذا الربط ولكن الطابع العام للسياق القرآنى لا يأخذ بناصره ، ونحن نعرف أن فريقا من المفسرين ـ وأظهرهم فى ذلك الفخر الرازى ـ قد أخذوا على أنفسهم إيضاح الصلات بين الآيات القرآنية وكتبوا فى ذلك كتابة واعية تدل على فطنة واجتهاد ، ولكننا نخالف هؤلاء حين نقول إن محاولة الربط الوثيق بين أغراض السورة الواحدة مهارة عقلية فائقة وهى وإن ظهرت بين الآيتين المتجاورتين على نحو من التأويل فى بعض ما تختلف به وجوه القول من آيات الذكر الحكيم فإن بعض السور الكريمة لا تكاد تدور على فكرة خاصة بما يساق من هذه المعانى ، لأن الربط الذى برع فيه بعض المفسرين كان ربطا جزئيا ينظر إلى الآية المجاورة دون أن يحدد هدفا واحدا للسورة إلا بتكلف خاص فيه الخائضون من اجتهاد يخطىء ويصيب .

ونحن لا ننكر الجهود المخلصة التى دفعت بعض الكبار فى القديم والحديث إلى التماس الوحدة فى السورة القرآنية ، لأن كل محاولة من هذه المحاولات الكريمة تدل على اخلاص حى وتفكير طامح ،

وتصدر عن اعتقاد تام بإعجاز القرآن وروعته . وهو ما أجمع عليه المسلمون من الفاقهين الدارسين ، ونذكر فى هذا المضمار القاضى أبا بكر بن العربى الأندلسى الشهير حيث قال فى كتاب « سراج المريدين » « إن ارتباط آى القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعانى منتظمة علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ثم فتح الله لنا فيه فلما لم نجد له حملة ، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه » وهو قول لا يخلو من نقاش لأن القاضى أبا بكر بن العربى صاحب جهارة وبيان وتدفق ، وكان عليه إذا فتح الله له مجالا من القول فى كتاب الله ألا يسارع إلى إيصاده ، أما التعلة بانصراف الناس عن طلب هذه الأغراض العالية واتصافهم بأوصاف البطلة فما لا يمنع التأليف لأن مثل ابن العربى فى إمامته وفضله لا يجهل أن العالم الكبير لا يضع مؤلفه لوقته فحسب ، بل يتركه إلى الأجيال اللاحقة وإن تعدم قارئا فقيها يدرس ويتخصص فينتفع ! وكأنى بالرجل وقد أحس خطر الرسالة فيما يحاول فانصرف متعللا بانصراف الناس عن العلم وجعل ما فتح الله به عليه بينه وبين ربه وحده ، ولو فعل كل عالم ذلك ما أدى رسالة العلم وخلت المكتبة القرآنية من نفائس المصنفات .

هذا عن ابن العربى ، أما أبو بكر النيسابورى فقد برع فى إيراد المناسبات بين الآية والآية والسورة والسورة ، وهو ما اتجه اليه نفر جم من المفسرين ، وأحسب الذين يعدونه قمة فى بابه لم يلتفتوا إلى الحديث عن الغرض الواحد للسورة الواحدة كما فعل برهان الدين البقاعى فى كتابه « نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور » حيث اتجه هذه الوجهة الصريحة فى مخطوطه الحافل إذ قال فى مقدمته : « وقال شيخنا أبو الفضل محمد بن محمد المشدالى المغربى : الأمر الكلى المفيد لعرفان مناسبات الآيات فى جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذى سيقت له هذه السورة ، وتنظر ما يحتاج إليه هذا الغرض من المقدمات وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات فى القرب والبعد من المطلوب ، وتنظر انجرار الكلام فى المقدمات إلى ما تستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التى تقتضى البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الإستشراف إلى الوقوف عليها فهذا هو الأمر الكلى المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن فإذا فعلته تبين لك إن شاء الله وجه النظم مفصلا بين كل آية فى كل سورة »

ولو كان كتاب البقاعى مطبوعا غير مخطوط ، لاستطعنا أن نرصد جهوده العقلية التى وجهها إلى الحديث عن الوحدة الموضوعية

للسورة الكريمة وهى جهوده نباركها مهما اختلفنا عليها ، إذ لا يحق لباحث ما أن يضائل من جهد بذل فيه صاحبه غاية ما يملك من درس وتفكير ، فحسبه أن قام بواجبه العلمى كما يتراءى له ، ولكننا لا نمتنع مع ذلك عن مناقشة الفكرة الأساسية التى اتجه اليها البقاعى كما أعلنها فى مقدمة كتابه ، لأن فكرة البقاعى رحمه الله وجدت من يحاول تنفيذها فى عصرنا الراهن ، وان فكرة تمتد من عهد صاحبها إلى ما وليه من العهود لجديرة بالنقاش والتحليل ، لا سيما إذا كان بين من أخذوا على أنفسهم تطبيقها أساتذة يقولون فيسمعون .

انتشرت الترجمات الأوربية للقرآن الكريم فى العصور الأخيرة انتشارا جعلها كثيرة التداول بين الدارسين هناك . فأتاحت لنفر منهم أن يقولوا كلمتهم فيما يقرءون من هـــذه الترجمات ، وأكثرها من وضع قسس لا يعرفون براعة النظم فى العربية فعمدوا إلى الترجمة الحرفية التى تجعل كلام الله بعيداً عن روحه البلاغى الآسر ، بحيث تصبح الترجمة أمشاجا من المعانى منبتة الصلة ، حائرة المكان ، فيرى الأوربى من ذلك ما يدفعه إلى النقد الجازف ، وإذا كان غلاة المتعصبين من هؤلاء قد بلغوا بالنقد إلى نهايته ، فجزموا بأن كتاب الله ضعيف الترتيب ، مبتوت الأواصر ، مفكك الأغراض ،

فان كلامهم المجحف قد وجد صداه بين المنصفين منهم ، فأصبحنا نجد مفكراً لامعاً قوى الانصاف معتدل النظر مثل جوستاف لوبون يخبط مع الخابطين حين يزعم فى كتابه الخاص بحضارة العرب أن عدم الترتيب فى القرآن جعل مواده وأحكامه المماثلة تساق متفرقة مبتورة دون أن تجمع فى موضوع واحد كما نعهد فى الكتب العلمية وما تورط جوستاف لوبون فى هذا القول إلا بعد قراءته الترجمات السقيمة التى تغفل روح النص القرآنى ، ولا تستطيع أن تدلى بأقرب الصور لإعجازه البليغ ، كما أن اعتقاده أن القرآن الكريم لا يبلغ الطريقة المثلى فى القول إلا اذا جمع مواد الموضوع الواحد فى باب معين كما تقوم الكتب البشرية بذلك ، هذا الاعتقاد قد دفعه الى نقد مجحف ينأى عن الصواب ، إذ أن القرآن الكريم وهو هدية السماء إلى الأرض لم ولن يسلك سبيل التأليف العلمى فيما يقدم من خير للناس .

فالكتب العلمية كتب للخاصة تخاطب العقل وحده ، أما كتب السماء فللخاصة والعامة معا . وهى لا تخاطب العقل وحده وإلا كانت ذات جفاف وجمود يضائلان من لذة قراءتها المتتابعه بل تجمع الى مخاطبة العقل مخاطبة الشعور وتفتح الإدراك كما توقظ الوجدان

ولذلك ابتعدت عن المنهج البشرى فى التأليف العلمى ، وسلكت سبيلا خاصا يجذب القارىء ويشغله ويستحوذ عليه حين يرى البيان السماوى يتنقل من تشريع عادل إلى وعظ حان إلى مثل ناهض ، إلى قصة ذات عبرة فى نسق بيانى تشمله روح واحدة هى ما أشار إليه الرافعى رحمه الله بوحدة التركيب ، بحيث أصبحت هذه الروح إطارا جميلا يجمع المعانى والصور والأفكار ويغذى العقل والشعور ويمتع الحس والإدراك فصارت السورة الواحدة بهذه الروح ذات طابع مستقل متميز ، ولو أنك أدغمت آيات من سورة كريمة إلى آيات من سورة أخرى لوجدت ـ حتى مع اتحاد الموضوع ـ نشازا منكرا لا يقبله ذوق أو يستسيغه منطق ، واقرأ إن شئت سورة القمر وسورة هود وميدانهما معا الحديث عن أنبياء الله السابقين كنوح وهود وصالح وموسى ثم حاول أن تلحق نصًّا من هذه بنص من تلك فستجد من الإنفصام والتخاذل ما يمنعك أن تقوم جادا بهذه المحاولة ، هذا والموضوع هو الموضوع .

والعبرة هى العبرة ، ولكن الروح التركيبية للبلاغة القرآنية تمنع هذا الخلط الكريه ، وتهتف بأصحاب الموضوع الواحد متعجبة لنظرهم القاصر ، وتفكيرهم المحدود ، ثم أن القرآن فى لبابه كتاب رسالة

إصلاحية شاملة ودعوة إنسانية عامه تحتاج إلى ما تحتاج إليه أعظم الرسالات قاطبة من الجدل والرد والتحريض والوعد والوعيد والترغيب والترهيب، معتمدا على ما يتأثر به الشعور الإنسانى من التكرار الهادف، والاستطراد المرفه، والتأسى البالغ، وكل ذلك يحتم أن ينأى كتاب الله عن جفاف البحث العلمى، وما رأينا دعوة أرضية من دعوات الإصلاح الدنيوى قد اعتمدت على الأسلوب العلمى الجاف فى توضيح أهدافها، وتيسير أغراضها، فكيف نجعل كتاب الدعوة الكبرى لإنقاذ الإنسانية مجموعة مواد محدودة ذات أبواب ضيقه، وفصول محدودة. لنوافق قوما يرون الترتيب العلمى المحدود أنجع الأمثلة للتأليف ؟ وقد يكون هذا الترتيب العلمى من أنفع ما يتبع فى ميدان البحث الأكاديمى الخالص. ولكنه لا يرجع بطائل ما فى مجال الدعوات العالية التى رسمت رسما سماويا رائعا لتنقذ الناس من الظلمات إلى النور .

تناقل أشياع الغرب ومعاميده بعض هذه الأراجيف الظالمة عن كتاب الله، فأخذوا ينظرون إلى تعدد الأغراض فى السورة الواحدة بعين النقد، وهب رجال البيان من معتنقى الاعجاز القرآنى ينفحون عما يؤمنون بروعته وإعجازه، وإذا كان الله عز وجل قد جعل من

اختلاف المدارك وتنوع الأفهام مجالا للتقابل والتعارض ، فإن هؤلاء الذين نهضوا يذودون عن كتاب الله قد اختلفوا فى الرد على ما قيل اختلافا يصور عقلية الكاتب ومنحاه ، وهو إختلاف لا بد لنا فى هذا المجال من الالمام بحقائقه ، وترجيح ما يستحق الترجيح فى رأينا من اتجاهاته ، وحين نميل إلى الأخذ بقول دون قول فإن نفرض ميلنا الخاص على أحد ، ولكننا نؤيد من نرى الصواب قريبا إليه من سواه ، لاسيما إذا كان هؤلاء المختلفون أساتذة أعلاما خلصت نياتهم فى العمل والقول فنطقوا بما يعتقدون .

نختار السيد محمد رشيد رضا والأستاذ محمد فريد وجدى ليتحدثا عن وجهة النظر القائلة بتعدد الأغراض فى السورة الواحدة ، فننقل عن كتاب الوحى المحمدى ص ١٢٣ للسيد رشيد رضا ببعض التصرف قوله :

« لو أن عقائد الاسلام المنزلة فى القرآن من الإيمان بالله وصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء ودار الثواب والعقاب جمعت مرتبة فى ثلاث سور أو أربع أو خمس مثلا ككتب العقائد المدونة ، ولو أن عباداته من الطهارة والصلاة

والزكاة والحج والدعاء والأذكار وضع كل منهما فى بضع سور أيضا مبوبة مفصلة ككتب الفقه المصنفة ، ولو أن آدابه وحكمه وفضائله المندوبة والمكروهة أفردت فى عشر سور ككتب الأخلاق والآداب ، ولو أن قواعده التشريعية وأحكامه الشخصية والمالية والحربية والقانونية رتبت فى سور خاصة بها ، ولو أن قصص النبيين والمرسلين وما فيها من العبر والمواعظ سردت فى سورها مرتبة كدواوين التاريخ ، لو أن كل ما ذكر وما لم يذكر من مقاصد القرآن جمع كل نوع منها وحده لفقد القرآن بذلك أعظم مزايا هويته المقصودة بالقصد الأول من التشريع وحكمة التنزيل وهو التعبد به واستفادة كل حافظ للكثير أو القليل من سوره من مسائل الايمان والفضائل المنبثة فى جميع السور ولفقد أعظم مزايا هدايته وهو مزج مقاصده بعضها ببعض وتفريقها فى السور الكثيرة بالمناسبات المختلفة ، وتكرارها بالعبارات البليغة المؤثرة فى القلوب . المحركة للشعور النافية للسآمة والملل من المواظبة على ترتيلها بنغمات نظمه الخاص به ، وفواصله المتعددة القابلة لأنواع من التغنى والنغم المحرك فى القلب وجدان الخشوع وخشية الإجلال للرب المعبود والاعتبار لسنته فى خلقه والمقابلة لأنواع أخرى من الإلقاء الخطابى فى الترغيب والترهيب والتعجب والتعجيب والزجر والتأنيب

واستفهام الإنكار والتقرير والتهكم والتوبيخ بما لا نظير له من كلام البشر من خطابة وشعر ورجز وسجع » فبهذا الأسلوب الرفيع فى النظم البديع كان القرآن كما ورد فى معنى وصفه «لا تبلى جدته ولا تخلقه كثرة الترديد » وكلام السيد واضح يمكن إيجازه بقولنا أن القرآن قد خلق للتلاوة والترتيل، والهداية والتأثير ولن يتحقق ذلك بتأليف علمى ذى منهج عقلى يغفل الإشباع الوجدانى وأدواته البيانية ذات التأثير الخطابى باعتمادها على أدوات الترغيب والزجر كالتنقل بالقول من إنكار إلى تقرير إلى تهكم وتوبيخ ليكون بذلك جديدا غضا لا تخلق نضارته على الترديد .

(٢)

وأما الأستاذ محمد فريد وجدى فقد تصدّى لدفع هذه الشبهة بقوله ص ٢٦٥ من كتاب «الإسلام دين عام خالد» (مع بعض التصرف فى النقل) .

« وقاله — صاحب مسائل فى الدين — أن القرآن لو كان مُختلقا لتوخى فيه مؤلفه الترتيب المطلوب ، فقد جرت العادة أن يجلس من يريد تأليف كتاب إلى ناحية فيفكر فى مواد الكتاب وأغراضه ليجعل لكل طائفة من المواد أصلا ، ولكن القرآن ليس بكتاب وضعى ، إنه وحى نزل عند حدوث الحوادث وطروء الطوارىء فنه آيات نزلت للدعوة للدين ، وأخرى للردّ على المنكرين ، وغيرها للإجابة عن السائلين ، وسواها للفصل بين المتنازعين ، وطائفة للحث على الجهاد ، ومثلها للحض على مكارم الأخلاق ، وكلها نزلت نجوما ومرتبة على الحوادث الوقتية إذ كان الوحى لدى الطائفة التى أخذت بالإسلام لأول عهدها بمنزلة العقل المدبر لها تستهدى به فى المشكلات ، وتسترشد به فى تذليل العقبات . فهو مجموع إشراقات من الوحى اقتضتها الحوادث

التي تتكرر في كل جيل وفي كل مجتمع ، وهذا المجموع من إشرافات الوحي متى قرىء أو سمع استولى على مآخذ النفوس ، وتسلط على كل مآرب العقول فلا يجد تاليه محيصا من الإذعان إليه والاستخذاء له لأنه يحرك جميع الأوتار في الروح الإنساني دفعة واحدة فيؤخذ سامعه به أخذا كأنه قد غمرته موجة من السحر فلم تدع له متنفسا في غيره من الأمور ولم تترك له متملصا إلى سواه من الشئون» .

وهذا الكلام يحتاج إلى نظر ، لأن قول الأستاذ محمد فريد وجدى في علة عدم الترتيب «أنه وحي نزل عند حدوث الحوادث وطروء الطوارىء وآياته نزلت نجوما على الحوادث الوقتية» هذا القول لاينهض تعليلا لعدم الوحدة الموضوعية لأن الثابت الأكيد أن ترتيب الآيات في السورة ترتيب توقيفي من السماء ، إذ كانت تنزل الآية في شأن من الشئون فيأمر الرسول كاتبه بوضعها في المكان الذي اختاره الله لها ، وكان جبريل عليه السلام يعارض رسول الله بقراءة القرآن كما رتب في كل رمضان ، والآثار في ذلك أشهر من أن تذكر ونكتفي منها بما روى البخاري عن عائشة عن فاطمة أنها قالت «أسر إلىّ النبي صلى الله عليه وسلم

أن جبريل يعارضني بالقرآن كل سنة مرة وأنه عارضني هـذا العام مرتين ، ولا أراه إلا حضر أجلي » كما روى أحمد وأبو داود والترمذي من عثمان أنه قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب له فيقول ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا » فقول الأستاذ أن القرآن قد نزل منجما وفق الحوادث إنما يصلح لو لم يكن الترتيب توقيفيا يبلغه جبريل عن ربه ، وقد أحسن الأستاذ فريد وجدى حين فرغ عاجلا من هذا القول المتسرع ليعلن أن إشراقات الوحي تتسلط على كل مسارب العقول فلا يجد تاليه محيصا من الإذعان له ، وهو بعض ما عاناه الرافعي رحمه الله حين تحدث عن روحانية التركيب .

أما الذين رفضوا القول بعدم الوحدة الموضوعية من العلماء فقد شد أزرهم ما قرأوه لأمثال ابن العربي والنيسابوري والبقاعي في ذلك ، وذهبوا يدبجون المقالات والكتب في إثبات هذه الوحدة الموضوعية عن ذكاء يتلمس الفرص القريبة والبعيدة ، ويتكلف للجزئيات الكثيرة دائرة كبرى تنتهي إليها ، وهو جهد مشكور يدل على صبر مطمئن ، وإن كنا لا نذهب مذهبه إذ ثبت لدينا كثير من التكلف

في رصده وتثبيته ، ولا نحب أن نهيء القارىء إلى رفضه بل نترك أمامه مجالا لتفهم ما يعنيه هؤلاء ، وسنختار منهم أستاذينا المغفور لهما الدكتور محمد عبد الله دراز والشيخ عبد المتعال الصعيدى . حيث ألح الأول على تأكيد هذه الوحدة فى كتابه « النبأ العظيم » كما أفرد الثانى كتابا برأسه لدراسة النظم الفنى فى القرآن ناحيا منحى الوحدة الموضوعية ، مما يؤكد أن حديث الترتيب الأسلوبى لديهما لم يكن فكرة طارئة قدر ما كان نظرية علمية تتطلب البحث الوئيد .

أصدر الدكتور دراز كتابه النبأ العظيم ليتحدث عن القرآن حديث الفاقه الدارس الألمعى فجاء كتابه آية الآيات فى ميدان الدراسات القرآنية بما ملك من ناصية القول وقوة المنطق وجهارة الدليل ولئن قال الزعيم سعد زغلول عن كتاب الرافعى فى الاعجاز « إنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم » فما أحرى النبأ العظيم بمثل هذا القول من زعيم كبير ، وإذا كنت لا أرى رأى الأستاذ الكبير دراز فى الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية فمن الإنصاف له أن نتركه يتحدث عن رأيه بأسلوبه الممتاز الذى يصلصل فى آفاق البلاغة العربية كل مصلصل ، ليسعد القراء بنمط من التصوير الأدبى لا يعهدونه لغير الأفذاذ من أئمة الكلام ، قال رحمه الله عن النبأ العظيم ص ١٧٤ :

أجل إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثا من المعانى حشيت حشوا ! وأوزاعا من المبانى جمعت عنوا ، فإذا هى لو تدبرت بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول ، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر وتطول فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية فى موضوع واحد ، قد وضع رسمه مرة واحدة ، لا تحس بشىء من تناكر الأوضاع فى التقسيم والتنسيق ولا بشىء من الانفصال فى الخروج من طريق إلى طريق ، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة ، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحام كل ذلك بغير تكلف ولا استعانة بأمر خارج من المعانى أنفسها ، وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد فى مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه يريك المنفصل متصلا ، والمختلف مؤتلفا ، ولماذا نقول إن هذه المعانى تتسق فى السورة كما تتسق الحجرات فى البنيان ، لا بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء فى جسم الإنسان ، فبين كل قطعة وجاراتها رباط موضعى من أنفسها كما يلتقى العظمان عند المفصل ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كثب ، كما يشتبك العضوان بالشرايين والعروق والأعصاب ، ومن وراء ذلك كله يسرى فى

السورة اتجاه معين ، وتؤدى بمجموعها غرضا خاصا كما يأخذ الجسم قواما واحدا ، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد مع اختلاف وظائفه العضوية » .

هذا بعض ما قاله الدكتور دراز ، وقد كدت أميل بعض الميل إلى أنه يقصد التلاحم الجزئى بين الآية والآية جريا وراء ما يذكره بعض المفسرين من المناسبات المتصيدة ، لأن قوله فيما سبق « بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحام » هذا القول يشعرك أن المقصود بالأجناس المختلفة الأغراض المتباعدة ولكن السياق العام يوحى بغير ذلك إيحاء قويا يؤكده قول الدكتور « ومن وراء ذلك كله يسرى فى السورة اتجاه معين ، وتؤدى بمجموعها غرضا خاصا » كما تؤكده محاولته التمثيلية فى تطبيق هذا الاتجاه على سورة البقرة وهى أطول سور القرآن جميعا حيث اختارها الأستاذ للتدليل على وحدة الغرض فقال فى ص ١٨٤ تحت عنوان « نظام عقد المعانى فى سورة البقرة » ما نصه :

« اعلم أن هذه السورة على طولها تتألف وحداتها من مقدمة وأربعة مقاصد وخاتمة على هذا الترتيب ، فالمقدمة فى التعريف بشأن

هذا القرآن وبيان أن ما فيه من الهداية قد بلغ حدا من الوضوح لا يتردد فيه ذو قلب سليم ، وإنما يعرض عنه من لا قلب له أو من كان فى قلبه مرض ، والمقصد الأول فى دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام ، والمقصد الثانى فى دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة إلى ترك باطلهم والدخول فى هذا الدين الحق ، والمقصد الثالث فى عرض شرائع هذا الدين تفصيلا ، والمقصد الرابع فى ذكر الوازع والنازع الدينى الذى يبعث على ملازمة تلك الشرائع ويعصم من مخالفتها ، أما الخاتمة ففى التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد وبيان مايرجى لهم فى عاجلهم وآجلهم » .

هذه هى العناصر التى رآها الدكتور تكوّن سورة البقرة مبتدئة بمقدمة هادفة ومختتمة بنتيجة لازمة ، وقد حاول تفصيل ذلك فى صفحات طوال توضح مايندرج تحت كل عنصر من الآيات ، وهى محاولة ذكية تدل على جهد يبذل فى تأييد قضية يؤمن بها ، ولكننا فى حل من أن نقول إن محاولة هذا التحديد الجامع لهذه العناصر لم تكن موضع اتفاق بين الدارسين إذ أنها تجاهلت عناصر أخرى جاءت بها سورة البقرة دون أن يطمئن دارس محايد إلى اندراجها فيما حدّد الأستاذ من المقاصد إلا بتكلف كبير ،

وقد أتاح الدكتور بذلك لكل مبتدىء أن يعمد إلى سورة من السور الكريمة فيختار بعض عناصرها المتقاربة ويهمل ما لا سبيل إلى انضمامه ، ثم يخرج على الناس برأى يهتف بوحدة الموضوع فى السورة القرآنية ! إن الرجل الكبير قد صدر عن نظر مخلص واعتقاد نزيه ، ولن يعدم جزاءه الأوفى عند الله ، أما المغفور له الأستاذ عبد المتعال الصعيدى فقد أصدر كتابه « النظم الفنى فى القرآن » فيما يقرب من أربعمائة صفحة كبيرة ليثبت هذه الوحدة فى كل سورة من سور الكتاب العزيز ، وقد قال المؤلف الفاضل فى مقدمة كتابه ص ٣ « إنه لجد خطير أن نسلم لأولئك الزاعمين أن القرآن لا ترتيب فيه ولا إتصال بين آياته ولا ارتباط بين أجزائه لأنهم يطعنون به على القرآن أنه سىء الترتيب مفكك الأجزاء مشتت المعانى والأغراض ولا يقنعهم أن نقول أن الترتيب يحسن فى كلام البشر ولا يحسن فى كلام الله لأن الترتيب مطلوب فى كل كلام بليغ ، وحسنه فى كل كلام من البداهة بمكان » والأستاذ يقصد بالقائلين جماعة المستشرقين ممن يطعنون على القرآن بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، أما القائلون بتعدد الأغراض فى السورة الواحدة فلا يقولون بداهة إنه مفكك الأجزاء سيء الترتيب مشتت المعانى لأنهم يؤمنون بالروح التركيبية المهيمنة التى تسيطر على السورة فتجعلها نمطا واحدا من البيان مهما

تعددّت أغراضها ، هذه الروح التى لاتوجد فى كلام بشرى ، ووجودها فى القرآن وحده يصّور إحدى مناحى الإعجاز البلاغى فى تأليفه ا وقد دعونا الرافضين لهذا الرأى إلى محاولة إدماج آية من سورة كالرحمن فى سورة تجاورها كالواقعة مثلا ثم النظر إلى مايسمع من النشاز الصريح حين تنتقل آية من سورة كريمة إلىسورة أخرى ، ولن يقول قائل أن انطباع الذاكرة على وضع معين للآيات فى سورها المعهودة هو الذى يحدث هذا النشاز ، لأن الجو الموسيقى والإيحاء البيانى والتصوير البلاغى فى كل سورة من السور الكريمة هو نسيج وحده بحيث إذا انتقلت آية كريمة من سورة كان ذلك بمثابة انتقال عضو من جسم حيوانى إلى جسم آخر إذ يدل على عاهته الشائهة أكثر مما يدل على شىء آخر ، ومادام الأستاذان دراز والصعيدى قد التقيا على رأى واحد ، وحاولا محاولة واحدة فى تجميع العناصر فى السورة الواحدة فى دائرة خاصة ملتئمة الغرض فإننا نقدّم للقارىء ماأثبته الأستاذ الصعيدى لسورة البقرة من العناصر لنرى كيف اختلف الأستاذان فى التطبيق اختلافا يدل على أن اتجاههما التطبيق لا يستند إلى أصول موضوعية قدر ما يستند إلى استنتاج ذاتى بحت ، وفى هذا الاختلاف على يسره ما يؤيد رأينا

فى تجديب القرآن أمثال هـــذه التـكلفات الذكية ذات الجهد والإجهاد .

قال الأستاذ الصعيدى فى كتابه ص ٤٣ تحت عنوان سورة البقرة : الغرض منها وترتيبها لما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة نصبت أحبار اليهود حالة العداوة بغيا وحسداً ، ومال إليهم المنافقون من الأوس والخزرج ، فكان أولئك الأحبار يسألونه ويعنتونه ، ويأتونه باللبس ليلبسوا الحق بالباطل فنزلت سورة البقرة فى أولئك الأحبار وفيما يسألون عنه وفى أولئك المنافقين الذين مالوا إليهم وفيما نزل من أحكام العبادات والمعاملات بعد استقرار الإسلام بالمدينة وقد صار بها المسلمين جماعة تحتاج إلى هذه الأحكام فى أمر دينها ودنياها ، فيكون الغرض المقصود من هذه السورة الرد على أولئك الأحبار ومَن مال إليهم من المنافقين وبيان فساد ما شغبوا به فى أمر القرآن ، وفى أمر النبى صلى الله عليه وسلم وقد جرّ هذا إلى ذكر كثير من أمورهم جرى بعضها مجرى الترغيب وجرى بعضها مجرى الترهيب ، ثم تخلص من هذا إلى بيان مانزل على المسلمين فى هذا العهد من الأحكام اللازمة لهم فى عباداتهم ومعاملاتهم وقد بدئت السورة بإثبات نزول القرآن من عند الله لتكون تمهيدا لبيان فساد

فلك الشعب الذى قام فى أمره وفى أمر النبى صلى الله عليه وسلم » .

ونحن نرى أن ما نص عليه الدكتور دراز قد بدأ أكثر تماسكا والتئاما مما نص عليه الأستاذ الصعيدى مع اتفاقهما فى بعض العناصر دون البعض مما يؤكد أن المسألة مسألة استنتاج ذاتى لا تحليل موضوعى إ ولو أتيح لدارس ثالث يذهب مذهبهما فى وحدة الغرض بالسورة أن يلخص عناصر سورة البقرة لوافق فى شىء وخالف فى شىء ، ونحن نستريح من هذا العناء حين نعلن أن كتاب السماء لا يخضع للنهج الأرضى فى التأليف ، وأن هذا الكتاب قد كان موضع الاعجاز والتحدى بين قوم عرفوا بالفصاحة ، وظلت له صدارته المعجزة فى دنيا البيان على تناسل الأحقاب دون أن تخضع كل سورة منه لغرض معين ، بل كان تنوع الأغراض فى السورة الواحدة موضع روعة وإعجاب وتأثر وانجذاب ! وقد قال الله عز وجل عنه فى محكم آياته « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

القصة القرآنية

أخذت كتب النقد الأدبي المعاصر تتحدث عن القصة العربية ، فتذكر أنواعها وخصائصها ، وتضع أصولها الفنية شارحة مقوماتها من أحداث وأشخاص وحوار ومناجاة ، ومطابقة ذلك على ما تخرجه المطبعة العربية لأفذاذ الكتاب من المعاصرين، وإذا كان الفن القصصي بهيئته الأخيرة يعتبر من الفنون الحديثة التي تشق طريقها محاولة اللحاق بما سبقها من الفنون الأدبية ، فإن هذه الدراسات النقدية تؤتي ثمرتها في التقويم والتقييم ، وحيث كانت القصة الأدبية إحدى الأساليب المؤثرة التي اهتم بصوغها القرآن الكريم فيما نقلوه من سورة الرائعة فقد حلا لنفر من المسلمين أن يتعرضوا للقصص القرآني بالدراسة والتحليل عن نية خالصة دون شك ، وقد أحسنوا القصد حين رأوا في القصص القرآني مجالا يتطلب الإيضاح والتحليل ، ولكن بعضهم تنكب الجادة إذ ظن القصص القرآني نمطا من القصص المعاصر، فاتجه للمقاييس النقدية الذائعة محاولا تطبيقها على القصص القرآني ومتكلفا شتى ضروب المنطق ، ليثبت أن كتاب الله عز وجل قد جاء في هذا المضمار الفني بما تشهد له أحكامنا النقدية الحديثة ، وقد غفل بذلك عن حقيقة واضحة هي أن الأسلوب القرآني ينفرد بطابعه الخاص المعجز

سواء فى القصة أو غيرها من فنون القول ، وأن كل محاولة لتطبيق المقاييس المشتهرة عليه لا ترقى إلى تفسير إعجازه الصريح .

نحن لا ننكر أن التطور الفكرى فى المجال النقدى قد ساعد على إرتقاء الأدب ، وعاون على فهم التراث العربى إذ ندعو جاهدين إلى دراسة كل ما يجد من النظريات النقدية من شرقية وغربية ، ولكننا فى مجال الدراسة القرآنية بالذات ندعو الدارس إلى التسلح بهذه الدراسة عن بصر وتجربة ليتسع أفقه الفكرى ، وينمو تذوقه الوجدانى حتى إذا تعرض للنص القرآنى بالتحليل والتفسير وجد من هذه الدراسة الجادة ما يساعده على الصعود إلى الأوج المنشود ، على أن يعرف أنه أمام نمط من القول لا يخضع لمقاييس فنية تروج حينا وتكسد حينا آخر ، بل يسمو عليها بسمو مصدره ، فإذا وافقها فى ناحية فذلك كسب قوى لها يزيدها أصالة وقوة وإذا خالفها فى ناحية فلأنه أعلى من أن يحد بمقياس يخطىء ويصيب .

قد يظن قارىء ما أنى أكتب هذا عن حماسة عاطفية لا عن نظر فكرى ، ولكن الحقيقة تنطق بأن مقاييس النقد القصصى تتغير وتتبدل وذلك مما يجعلها ذات خطر ضار إذا طبقت على أسلوب لا يتغير إعجازه ، ولا تختلف روعته باختلاف الأجيال والأزمان ، فنحن مثلا مكثنا

زمنا طويلا نعتقد أن القصة المثلى تتكون من العرض والعقدة والحل ونستشهد بذلك بما نعرف لأساطين القصاص فى الشرق والغرب ثم جد وقت ينكر أن تلتزم القصة بهذا المنهج التقليدى إذ ليس من الضرورى أن يكون لكل قصة عقدة تتطلب الحل عند قوم ، كما ليس من الضرورى عند قوم آخرين أن يكون لكل قصة حل نهائى يتم به الفصل الأخير إذ أن من الجائز فنياً لدى هؤلاء أن تظل النهاية مفتوحة غير مغلقة ليذهب كل قارىء فى تصويرها كما يشاء ، فماذا تصنع إذا عمد ناقد فى زمن ما إلى قصة قرآنية ليبحث عن خطواتها الثلاث ، محاولا اكتشافها ولم يهتد إلى خطوة منها قد يراها ناقد لاحق لا يقل عنه فى مرتبته الفنية شيئا غير ذى بال إن القصة القرآنية حينئذ ستكون جيدة عند ناقد دون ناقد وفق تطور مقاييسنا النقدية ، وقد ينتقل بها هذا التطور من النقيض إلى النقيض فتصبح ممتازة فى عصر ومنحدرة فى عصر سواه ! إذن فمصدر الخطر على بعض الدارسين للقصة القرآنية هو شغفهم بالتطبيق المنهجى الذى لا يستقر على نهج راسخ ومحاولة إخضاع الأثر المعجز لما يعرفون من مقياس رجراج ، مع أن المسألة هنا ذات وضوح لا يتحمل التكرار ، مسألة انفراد القرآن بطابعه الأسلوبى انفرادا ينادى بعلوه عن كل مقياس ، فما بالنا نرى أحد

هؤلاء الدارسين يعمد إلى القصة القرآنية ليتلمس كل ما يقرره النقد المعاصر من عناصر القصة الفنية، فيجتهد كل الاجتهاد ليوضح الأحداث والأشخاص والحوار والمفاجأة فى جميع ما يعرض له من نص قرآنى ينحو منحى القصة فى التعبير ، بل قد يصل به التفنن التقليدى إلى أن يكتب بعض آيات القرآن الكريم على نحو ما نشهد فى كتابة التمثيليات المعاصرة ، معتقداً أنه يبرز نمطا من الحوار القرآنى على النحو المألوف لكل قارىء للقصة ، وأضرب المثل هنا بأستاذ كريم -أحترمه وأجله- وقد راق له أن يكتب النص القرآنى كما يلى :

إذ قال ابراهيم لأبيه وقومه .

— ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون .

— قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين .

— قال :

— لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين .

قالوا

— أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين .

قال :

— بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين .

غير نصوص أخرى ساقها هذا المساق ! فإذا كنا من الناحية الشكلية وحدها قد حرصنا على هذا النمط المسرحي ، فكيف نظن بكاتب آخر يتحدث عن الحدث فى قصة لا تبلغ ستة أسطر لا ايجهله السمة الغالبة على الأقصوصة بل ليشرك معه الشخصية والحوار والمناجاة مفكرا فى الحل والعقدة والمفاجأة ! وتلك مهارة عقلية دون شك ولكنها فى المجال القرآنى تكلف واحتيال .

إن ولوعنا بالمقاييس الجديدة للقصة المعاصرة هو الذى حمل باحثا جامعياً كبيرا يعلن أن القصص القرآنى لا يتقيد بالواقع التاريخى إذ يصطنع فى رواية الأحداث أسلوبا فنيا تقتضيه حرية الفن ! وقد نسى أن القرآن الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن القاص البشرى يلجأ إلى الخيال فى فنه حين يجد الواقع محدوداً لا يسمح له بما يمتع ويروق ، ولكن الله جل شأنه لا يعجزه شيء فيبحث عن بديله وهو القائل فى كتابه « إن هذا لهو القصص الحق » ، لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ، وإذا صح لدى

قوم أن الخيال يزين الواقع ويكمله فقد فاتهم أن بعض حقائق الحياة يفوق الخيال روعة وتأثيرا بل يفوق ما يتصوره أعرق الموغلين فى الخيالات ؟ أفيشترط بعد هذا فى القصة أن تكون ذات خيال ثم نتمحل وجود هذا الخيال فى القصص القرآنى تمحلا ليخضع لما أمليناه من اشتراط !

ويزيد القوم على ذلك فيذكرون « أن تصوير الشخصيات فى القصص القرآنى وخاصة فى عهده الأول لم يكن بالأمر الذى يعنى به القرآن لأن القرآن - كما يقولون - فى هذا اللون يمثل المذهب الفنى فى رسم الأشخاص عند قصاص العربية إذ كانوا يهتمون بالحادثة أكثر من اهتمامهم بالبطل ويهتمون بالفكرة والرأى أكثر من اهتمامهم بالأشخاص » وهو قول ينقصه التحقيق لأن التصوير سمة عامة للبيان القرآنى فى كل مجالاته التعبيرية وهو فى القصة القرآنية على أتم ما يعهد ، فأنت تعرف الشخصيات القرآنية معرفة متميزة حتى لتفرق بوضوح بين سمات يوسف وموسى وابراهيم وسليمان وبلقيس وامرأة العزيز لا أقول السمات الظاهرية وحدها بل السمات الخافية التى تمور فى مسارب الدم واللحم ، وإذا لم يكن ذلك لبراعة التصوير الادبى للشخصية القرآنية فلأى شيء يكون ؟ ثم من قال أن القصص العربى

القديم كان يهتم بالحادثة أكثر من اهتمامه بالبطل وبالفكرة والرأى أكثر من الشخص ، وما عشق الأدباء القصص العربى القديم إلا لبراعته التصويرية وسياقه البيانى ذى الأبحاء بحيث أكب عشاق البلاغة على حفظ ما روى الأصمعى وأبو الفرج من منثوره فى عبارات تنفث بالسحر وتجرى مجرى الأمثال .

إن التصوير الأدبى سمة القرآن فى كل ما يقول حتى أن آيات التشريع الخالص لا تخلو من تصوير بلاغى يضفى عليها الروعة والتأثير ، وهو فى القصة القرآنية أوفى وأتم إذ أنه ينقل المشاهد والحركات ، ويصور أدق الملامح وأعمق الخلجات بحيث يكون إيحاؤه تعبيرا آخر يرفرف على الألفاظ فيكسبها من المعانى ما لا ينحصر فى حدود القواميس ، ولو وقف القول فى ذلك عند الأسلوب التقريرى لما ترك القصص القرآنى أثره البالغ فى قلوب المنكرين حتى كان أشدهم إنكاراً للدعوة الإسلامية يتحاشى أن يبتدىء الرسول بتلاوة شىء من قصص السابقين كيلا يعرض نفسه لهزة طاحنة ، وهذا عتبة بن ربيعة أخذ يتسمع إلى رسول الله قارئا سورة السجدة فى روعة ودهشة حتى بلغ قوله عز وجل «فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » فتوقع عتبه أن يرى من حديث هذين ما يخلع قلبه فسارع

بوضع يده على فم النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقول مأخوذاً «أمسك عليك يا ابن أخى» وكأنه يقول بتعبيرنا المعاصر «كفى كفى فأنا لا أتحمل ما سيجىء» هذا التصوير المشخص المعبر قد كان إحدى وسائل الربط البليغ للقصة القرآنية بحيث يقرؤها القارىء العربى الذواق فلا يحس بما يتخللها من مواعظ سماوية وإرشادات دينية إذ جاءت فى سياق مطرد متشاكل، وأبلغ القصاصين من الكتاب لو ترك القصة إلى منحى إرشادى أو إعلامى لسقط فنه الأدبى، وتحولت القصة فى عين القارىء خطبة منبرية تحشد ما تحشد من الأقوال، ولكن القرآن وحده ينتقل بك هذه التنقلات التوجيهية فى ثنايا القصة فلا تحس بانقطاع ما يفجؤك لأن بلاغة الأداء، وتتابع التصوير مما يرسم إطاراً واحداً للسرد القرآنى البليغ، فأنت تقرأ مثلا قصة أصحاب الكهف فتجد تسلسل الأحداث وتتابع الصور يسيران على أبدع ما يتخيل من الاتفاق فإذا انتقل بك الذكر الحكيم إلى توجيه دينى فى مثل قول الله عز وجل «ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشدا» فإنك لا تشعر أن الآية الكريمة دخيلة على السياق القصصى للقرآن إذ أنها تحمل الروح التركيبية الرائعة التى تشمل ما قبلها

وما بعدها من الآيات، كما تقرأ سورة يوسف على طولها الممتع المشبع فلا يدهشك فى شىء أن يشرح الرسول الكريم أصول دعوته فيقول مثلا « يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » بل تجد لذلك صلة قوية باتجاه يوسف النفسى ومنحاه الاجتماعى وتفكيره الخلقى بحيث لا يتوقع منه إلا أن يكون صاحب رسالة مثالية يحتذيها الفاضلون ا على أن بعضنا فى مجال التطبيق النقدى لما يعرض له من القصص القرآنى ينسى شيئا هاماً ، هو أن القصة القرآنية قد ساقها الله لتأكيد قيم دينية شتى فهى تحارب الوثنية ، وتؤصل المبادىء الخلقية ، فتدعو الى العزة النفسية والكرامة الانسانية ، كما تطمئن صاحب الرسالة وتواسيه فى شدائده إذ يرى أنه ختام رائع لأناس حملوا أمانة الدعوة ، ولاقوا صعاب الرسالة فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله من عنت الضالين وبغى الكافرين ، وقد أفصح القرآن عن بعض ذلك حين قال مخاطبا النبى الكريم « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » وان قصصاً توجيهيا يتحمل دوره

فى النهوض بهذه الأعباء الثقيلة لنظامه أو فى الظلم حين نغله بأصفاد مصطنعة تكون لامعة فى زمن ثم يأكلها الصدأ فتتهاوى فى زمن آخر وإذ ذاك نضطر إلى البحث عن غل جديد !

نستطيع أن نترك أكثر هذه المقاييس المؤقتة لنعيش مع القصة القرآنية كما نعيش مع أروع النصوص الأدبية اذ نقرؤها قراءة متذوقة كاشفة لنتمتع بإيحائها وتصويرها وموافقتها مقتضيات الحال المناسبة موافقة تؤنس القارىء وتعدد ألوان البهجة فى عقله وحسه حتى ليستطيع بعد قراءة أو قراءتين أن يحفظ أكثر عباراتها الجميلة وأن ينتقل إلى رصيده الأدبى أقباس من لألائها الساطع لفظاً ومعنى وتركيبا فيحس للقرآن من ذلك مالا يحسه لأعظم الآثار الأدبية مهما سمت بانتسابها إلى أبلغ القائلين وأفصح الكتاب، وفى اعتقادى أن هذه الدراسة الخالصة للنص المباشر بعيداً عن مصطلحات النقد المعاصر ترسم من ألوان الجمال الفنى مالا ينهض به مصطلح نقدى أو حكم تقريرى تسبقه الحيثيات المطبوعة حينا والملفقة حينا آخر ، واذا كانت القصة القرآنية تختلف ايجازا واطنابا ، وتتنوع قصرا وطولا فاننا سنلم بثلاث من هذه القصص السماوية تمثل إحداها الايجاز اللامح وتميل الثانية إلى التوسط بين الايجاز والاطناب على حين

تأتى الثالثة مثالا للاسهاب الجيد ، وإذا أخذنا باصطلاحات النقد الواضحة السهلة ذات البعد الخالص من التوعر القاعدى فلنا أن نجعل القصة الموجزة أقصوصة والثانية قصة قصيرة والثالثة رواية مع بعض التساهل المقصود فى التطبيق الإصطلاحى ، لنصل إلى حقيقة رائعة تكاد تكون غريبة فى بابها وهى أن القصص القرآنى يحمل طابعه التصويرى المؤثر إيجازا وإطنابا ، بحيث تحمل الأقصوصة القصيرة من المتعة الفنية نصيبها الكبير ، وبحيث تتسارى الإجادة الفنية فى الأنواع الثلاثة مساواة لا نجدها فى غير النص القرآنى إذ أننا نرى من الكاتبين من تتوقف براعته القوية عند نوع واحد من هذه الأنواع ، أما أن يكتبها كلها محافظا على مستواه الفنى دون هبوط فى نوع وارتفاع فى نوع آخر فهذا مالا نجده فى غير كتاب الله، وستؤيدنا الأمثلة الشاهدة فيما نقول، سنبدأ بالأقصوصة فنختار لها هذا النموذج من قول الله « إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم فتنادوا مصبحين . أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون ، ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وغدوا على حرد قادرين ، فلما رأوها قالوا إنا لضالون،

بل نحن محرومون ، قال أوسطهم ألم أقل لكم لو لا تسبحون ، قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين ، عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون » فكيف تتابع سرد هذه العبرة البالغة ، وكيف جاء هذا السرد حافلا بالحركة جياشاً بالحياة ، ناطقا بالملامح الظاهرة ، ومفصحا عن الخوالج المستترة ، انظر :

إن القصة قد ذكرت فى سورة نون لتقرن سورة بسورة ، إذ سبقها تصوير جيد لحلاف مهين هماز مشاء بنميم غره أن كان ذا مال وبنين فاستكبر وعتى ، وأعرض عن ذكر ربه زاعما أنه بعض أساطير الأولين وغافلا عن عقوبة منتظرة تختتم بها نهايته الأليمة على مسرح الحياة ! فهو وأمثاله من هؤلاء الذين ازدهاهم الثراء بجبروته ذوو إبتلاء بالنعمة وامتحان بالخير كما ابتلى أصحاب الجنة سواء بسواء ، إذ أنكروا حق الفقير فيما تنتج من رزق ، وأقسموا أن يجنوا ثمارها قبيل الشروق قبل أن ينتبه ذوو الحاجة إلى حقهم المعلوم فيهرعون إلى الجنة سائلين ، وتلك كانت عادتهم قبل أن يموت صاحب الجنة الرحيم تاركا إرثه الطيب لأبناء قساة لا يعطفون ! أقسموا أن يجنوا

جميع الثمار دون استثناء ، وبادروا أن طائفاً من ربك قد طاف على الجنة بليل فلم يُبق من ثمرها خيراً يتاح ! حتى أصبحت يباباً ينذر بالوحشة والافتقار ! هكذا تتابع السرد المعجز ، ولو احتكمنا فيه إلى بعض المقاييس الفنية الضيقة لقالت لنا هذه المقاييس المتسرعة إن القارىء قد عرف النتيجة قبل أن يتهيأ أصحاب القصة لتمثيل أدوارهم فأفقدته جاذبية التشويق وحرمته لذاذة الاستطلاع ، هكذا يقول بعض الناقدين فيما يتشابه مع هذا النمط من الأداء ، ولو علم هؤلاء المنهجيون أن المبادرة بإعلان النتيجة لا يحرم من لذة استطلاعية بل يزيدها توقداً وارتقاباً لدى من يصرّ على أن يرى القوم في عمايتهم الغاشية يتصرفون مسرورين دون أن يعلموا أيّ هوة توشك أن تنفجر تحت أقدامهم فيما يسلكون من طريق ! هاهم أولاء يتنادون مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ، وقد صوّر القرآن حركاتهم الظاهرة وخلجاتهم المضمرة حين قال هذا القول الموجز « فانطلقوا وهم يتخافتون ألاّ يدخلنها اليوم عليكم مسكين » . لله كم تقذف هذه الكلمة « يتخافتون » من الصور والأخيلة في نفس القارىء إنه ليتصور الهمس وعض الشفاه في تربص ، وميل الرقاب في حذر ، وتخفيف الوطء في قلق ، ودوران العيون في تنبه كيلا يعرف أحد عنهم له

شيئا ، يتصوّر ذلك كله من هذا اللفظ « يتخافتون » الوامض بأحفل الأضواء والراقص بأقوى الظلال ! ثم تكون المفاجأة لهم لا للقارىء فقد فوجىء قبل ذلك بما استحلاه وترقب نتائجه فى يقظة وحرص — إذ يصلون إلى مكانهم المعهود فلا يجدون شيئا ! لم يقل القرآن أنهم لم يجدوا شيئا كما قلت أنا الآن ولكنه قال فى تصوير نابض جياش « فلما رأوها قالوا إنا لضالون » لم يصدقوا أن المكان مكانهم بادىء ذى بدء حتى إذا ارتدت عقولهم إليهم بعد ذهول المفاجأة أدركوا عقاب الله فيما يحاولون فصاحوا فى مرارة « بل نحن محرومون » وإذا كانت كل جماعة من الجماعات لا تخلو من ذى ضمير يغلب على أمره فينقاد فإن صاحب هذا الضمير بين هؤلاء قد صاح بهم منفعلا « ألم أقل لكم لولا تسبحون » ! لقد نسيتم الله إذ حرمتم الفقير حقه المعلوم ، هنا لا مجال للتبجح واللجاج بل لابد من الإستسلام المذعن يفصح عنه قولهم الضارع « سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ياويلنا إنا كنا طاغين » ولن نجد تصويرا لهذا الموقف الحائر أقوى من قول الله « فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون » تاركا للقارىء أن يمضى بخياله متصورا مايقع فى هذا التلاوم من إسقاط تبعات من نفر منهم لإلقائها على آخرين كانوا أشد حماسة وأعظم إصرارا حتى إذا جبههم اليأس بمرارته

لم يجدوا بدا من التسليم المذعن فصاحوا ضارعين «عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون» .

أعد قراءة السطور القرآنية التى تتحدث عن أصحاب الجنة مرة ثانية واسأل نفسك عن تأثيرها النافذ بعمق بعيد إلى أطوائك، وتذكر هل قرأت فى القصص البشرية القصيرة ما يبلغ مبلغها من النفاذ والتأثير ! ثم حاذر أن تصدّق كل ما يقوله بعض ما تناولها بالتحليل الأدبى فى ضوء مقاييسه المنهجية إذ ذهب إلى أنها مثال جيد للأقصوصة التى تدور على الحدث كما اختار قصة قرآنية ثانية لتكون مثالا للأقصوصة التى تدور على الشخص واهما أنه بذلك يقيم المعالم النقدية ذات الحدود والأبعاد ، ولا أدرى لماذا أشفق من بعض هذه المعالم ، بدليل أنه لا توجد فى الآداب جميعها قصة تنفرد بالحدث وأخرى تنفرد بالشخص لأن الحدث لا يصدر إطلاقا إلا عن شخص يقوم به ، وفى أقصوصة أصحاب الجنة أناس أصروا واعتزموا وحاولوا التنفيذ فباءوا بالخذلان ثم لم يجدوا فى النهاية بدّا من الإذعان والنكوص عن العناد ! فكيف تكون مثالا للقصة القائمة على الحدث وحده ، كما أن قصص الأشخاص مجموعة أحداث قام بها البطل ، ولو قدر له ألا يقوم بهذه الأحداث ما كان بطلا ذا وقائع ! إن التقسيم المنهجى فى

مجال النقد القصصي إذا أتيح له أن يبلغ مبلغه المنطقي من التحديد والتركيز يجب ألا يكون ذا اشتباه واختلاط تتدانى فيه الفوارق إلى درجة الاقتراب كما نرى الآن وقد يكون من الجائز أن يطغى الحدث على الشخصية في بعض القصص أو تطغى الشخصية على ما يحيط بها من الأحداث ، ولكنه طغيان يتضاءل عن علته بحيث تتلمس له التبريرات لا أن يكون منهجا من مناهج الأسلوب ؟

فإذا تركنا أنموذج الأقصوصة القرآنية إلى أنموذج القصة القصيرة فإننا نختار له قصة موسى والعبد الصالح في سورة الكهف تلك التي تبتدىء بقول الله عز وجل « وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا » وتنتهى بقوله تعالى(وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا » متضمنة ثلاثا وعشرين آية قرآنية سيقت في نسق معجز يجل عن الاحتذاء ، وسنحاول أن نشير إلى بعض ما يتمتع به القارىء في مجال القصة الفنية من جلال التصوير وكمال الإيحاء !

لقد ذكرت الآيات الكريمة قبل هذه القصة أن الإنسان أكثر شيء جدلا ، يثق في آرائه ولا يعتد بغيره ، وحين تأتيه الرسل بالآيات مبشرين ومنذرين يلجأ إلى الجدال بالباطل ليدحض به الحق معرضاً عنه استهزاء وسخرية ثقة فيما يتعاطى من الجدل والمراء ناسيا أن لكل علم نهاية ، وأن ذوى اللجاج من هؤلاء لا يبلغون من العلم شيئا مهما ادعوه ، وهاهو ذا موسى أفضل رجل يظن به العلم والمعرفة في عصره . فهو نبي الله المختار ، وكليمه المجتبي لم يصل بعد إلى مبلغ ما تمكن به سواه من البصر والنفاذ ، وهو نفسه بعد أن اجتباه الله بالرسالة لم يكن ليرى أحدا بلغ مبلغه من العلم ! حتى أخبر أن رجلا لدى مجمع البحرين قد سبقه بآماد ، فتهيأ للقائه مستفيدا متوسلا لا شامخا متكبرا ورسم الخطة لرحلة علمية تكشف له عما يجهل من الأمور ، فها هو ذا يقول لفتاه — وما أجمل التعبير بكلمة الفتى عن الخادم ، إن الناس سواسية وفي لفظ الخادم والعبد والأمة ما يرفضه الخلق القرآني وينبو عنه الذوق الاسلامي إذ عبّر عن ذلك رسول الله في قوله « ليقل أحدكم فتاى وفتاتى ولا يقل عبدى وأمتى » .

يقول موسى « لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا » .

أرأيت التصميم الحازم فى قوله لا أبرح ، أرأيت العزيمة على احتمال المشاق فى قوله (أو أمضى حقبا) أصل بها الليل بالنهار لا أتكاسل ؛ ونال منهما السير مناله حتى أرهقهما الجوع فصاح بصاحبه آتنا غداءنا لم يقل (غدائى) فالطعام مشترك بينهما لا يختص به السيد تفضلا ثم يلقى نفايته إلى الخادم إذ ليس هذا من خلق الهداة ، حتى إذا بحث الفتى عن الغداء راعه أن ينسياه فى الطريق إذ أويا من قبل إلى الصخرة فقال فى اعتذار (إنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) قال إنى نسيت ولم يقل إنا نسينا تمثلا بأخلاق صاحبه المهذب الذى يدرك حكمة الله فى كل أمر ، فردّ فى تؤدة (ذلك ما كنا نبغى) لنرجع إذن ، وقد رجعا ليجدا الأمنية المرغوبة التى اعتزما طىّ الحقب نصها وراءها ، وجدا عبدا من عباد الله أوتى رحمته وعلمه ! يالله أعلمُ رجل على وجه البسيطة لا يخرج عن كونه عبدا صالحا ؟ أين المتفطرسون بقشورهم العلمية ليأخذوا من تعبير القصة ماينزعهم عن التفطرس والإستعلاء !

وهنا يحتجب الفتى عن مسرح القصة إذ أدى دوره ، وينقلب السيد فتى للعبد الصالح يقول فى ضراعة (هل اتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا) فتنكشف الحقيقة للعبد المتبتل ويقول فى جزم وإلك لن تستطيع معى صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا » ! ويالهما آيتان تصوّران إتساع الهوة المنفرجة بين عالمى الغيب والشهادة ! هذا إنسان يقف وراء أسوار المحدود المشاهد وذلك إنسان يتخطى الأسوار المحدودة إلى فضاء اللانهائية الرحيب ليرى ما لا يراه الناظرون ثم لا يسعه إلا أن يعبر عن هذا المدى اللانهائى بقوله المتواضع (لن تستطيع معى صبرا) لم يقل له فى تشامخ من أنت ومن تكون ، بل اكتفى بما قال ، أما صاحب الرحلة ذو العزم الحازم فقد لجأ إلى الإذعان المتوسل فقال فى ضراعة (ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا »، ولم يشأ العالم أن يذود طالب معرفة عنها مهما بدا له من ضيق حيلته وعجز تحمله فلم يزد على أن قدم له هذا الشرط الجازم « إن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا » ، وظن موسى أن الأمر سهل هين فمن اليسير فى وهمه أن يمسك لسانه عن السؤال حتى يحين الوقت بالجواب ، وقد وعده صاحبه بأن يحدث له ذكرا منه !

ولكن الأعاصير ترميه بخوارق رهيبة تذبهم وجوه الرأى فيها على كل مفكر، وإن كان موسى كليم الله إنهما يتوجهان إلى سفينة متواضعة تحملهما إلى حيث يريدان فيلقاهما أصحابها بالتجلة والترحيب وكان عليهما أن يقابلا ذلك بالشكر والثناء، ولكن صاحبه يعمد إلى بعض الألواح الخشبية فينزعها، حتى ليكاد الماء يلج إليها ! فيصيح به موسى فزعا «أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا» وينتظر الرد السريع من شيخه فلا يجد غير ابتسامة هادئة تصحب قوله «ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا) فيتدارك تسرعه ويذكر عهده فيقول فى اعتذار (لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا) فيغفر الرجل تسرعه الأول ثم يمضيان حتى إذا بلغا بعض الطريق لقيا غلاما فقتله : أى إنسان يصبر على هذه الخارقة الغريبة ولو كان موسى الحذر الدءوب ! ؟

لقد هاله أن يرى هذا الخطب الهائل فنسى كل تحذير وصاح بصاحبه مستنكرا (أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا) !! ثم نظر فوجد الابتسامة الهادئة تصحب الرد الهاتف (ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا) وكأن موسى قد أدرك تسرعه فعجل معتذرا (إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من

لدنى عذرا » وهنا يغفر الرجل تسرعه الثانى ثم يمضيان إلى قرية يسألان أهلها الطعام فيمنعونهما فيعمد الرجل إلى جدار بها يكاد أن ينقض ليقيمه فلم يعجل موسى بالإنكار الصارخ كدأبه فيما قبل ولكنه لجأ إلى الإنكار المقنع فى قوله (لو شئت لاتخذت عليه أجرا) ! وهنا وقع التسرع الثالث ! ولا غفران بعده إذ فاجأه شيخه بقوله (هذا فراق بينى وبينك) ثم لم يتركه نهب الهواجس بل عجل يقول : (سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا) وأخذ يتحدث عن السفينة والغلام والجدار منتهيا إلى قوله الحاسم ﴿ وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا ﴾ .

والقارئ ـ قارئ القصة ـ لايستطيع أن يأخذ أنفاسه مرتاحا بعض الراحة بعد أن يبتدئها ، بل يشعر بدافع يسوقه إلى التطلع السريع لحل مايفجؤه من الألغاز الخارقة ! وقد ألف أصحاب النقد القصصى أن يقولوا فى مثل هذا اللون من القصص إن عنصر المفاجأة كان مصدر الجاذبية والتشويق ، والقصة حقا تحوطها المفاجآت من مطلعها إلى نهايتها ، بل إن المفاجأة قد أعلنت عن نفسها قبل أن يلتقى التلميذ والأستاذ لأن موسى فوجىء على غير توقع منتظر بأنه وهو نبى الله ورسوله لايبلغ مبلغ بشر سواه فى المعرفة والاستبصار وتلك مفاجأة

كانت شديدة الوقع على حسه فبادر يتحقق ويقف بنفسه على من بلغ المبلغ الأعلى من المعرفة الإنسانية ، وما درى أنه سيتعرض لمفاجآت أخرى ، تصبح معها المفاجأة الأولى كلا شيء وأى مفاجأة أكبر من أن يعمد أكبر علماء الأرض وأتقياؤها إلى قتل نفس زكية حرم الله قتلها بدون جريرة ! أو أن يعمد إلى خرق سفينة لمساكين يعملون فى البحر ! إن موسى لصبار دءوب ومن أولى العزم الصارم ولو لم يكن كذلك ماتحمل الصبر بعد مقتل الغلام ولعجل بالانسحاب الصارخ المستنكر ، ولكن الثقة التامة فى صاحبه قد أسلست قياده إلى حيث علم مالم يعلم ، والقصة من وراء ذلك كله ترمز إلى حقيقة عميقة تلك هى حقيقة القدر الذى يسيطر على الكون بتدبيره الخاص وإرادته العليا فإذا زعم إنسان ما أنه يخط طريقته فى الحياة وفق مشيئته العاقلة معللا المسببات بالأسباب ومرتقبا النتائج بعد المقدمات فإنه سيصادف لامحالة فى طريق حياته الطويل مايعجز عن تأويله من مجريات الصعود والهبوط والحركة والسكون والنعيم والشقاء حيث يرى الماء من غير نهره ، والثمرة من غير أغصانها ! فكم من خامل رزق الحظوة وكم من نبيه نال الجفوة ، ولو كشفت الأسباب لإنسان كما كشفت للعبد الصالح لأراحت من لغط كثير ! أرأيت إلى هذه الرحلة السريعة كيف غمرتك بطوفان

من الأحاسيس تصطخب فى نفسك وتجيش ثم أرأيت إليها كيف قذفت بعقلك إلى متاهة شاسعة لاتجد الفرار من فضائها العريض إلا بالتسليم .

هذا هو أنموذج القصة القصيرة ، أما أنموذج الرواية التامة الحلقات المتسلسلة السرد ، المصورة للحوادث والأشخاص فتقدمه لنا سورة يوسف ، وكأن الله عز وجل قد صاغ قصة هذا النبى الكريم فى سورة مستقلة ليعلم هؤلاء الذين يشترطون مايشترطون فى الإبداع القصصى أن القرآن لو شاء أن يفرد كل نبي بقصة خاصة فى سورة خاصة لفعل ، ولكنه يكرر قصص الأنبياء فى مختلف السور لحكمة عليا تقتضيها الدعوة الإلهية التى نهض برسالتها القرآن ، على أن هذا التكرار الخاضع للغرض الدينى الذى تدور حوله السورة الكريمة يزيد فى جاذبية الحديث دون أن ينقص شيئا من لألائه وتلك فيماأرى معجزة خاصة بالقرآن إذ لاتقاح بجاذبيتها اللامعة لإنسان .

تقدّم لنا سورة يوسف شخصيات وأحداثا مختلفة، ولكن بطل القصة الحقيق يوسف وحده وكل من حوله من الأشخاص وما حوله من الأحداث يتجه إليه مؤثرا أو متأثرا ، وقد أحكمت حبكتها الفنية على نحو واقعى لايرقى إليه خيال متفنن بحيث يتبع العقدة حلّها

الطبيعى المسرحى ، وإذا كان لنا أن نجمل من رؤيا العزيز ملاطا يمسك اللبنات فى دور القصة الأول ، فإن صواع الملك واتهام الأخ بسرقته هو الملاط الآخر فى الدور الثانى ، إذ دارت حولها الأحداث فى تتابع منطقى منظم متتابع ، والسرد من خلفها فى هدوء يبتعد عن الصخب فى أكثر مواقعه إلا ما شدّ من احتدام العاطفة لدى امرأة العزيز .

وإذا كانت شخصية يوسف هى الشخصية الأولى فإن شخصية والده وشخصية امرأة العزيز قد تعاونتا تعاونا قويا على جلاء البطل فى وضوح ! وإننا لنتمثل يعقوب يستشف نوازع أولاده الماكرة بابنه قبل أن تتجسد على مسرح الحياة فيقول فى حـــذر ايوسف (لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للانسان عدو مبين) ، ثم تزداد هواجسه قلقا وحيرة حين يقول له المتآمرون (مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون)فيرد عليهم فى إشفاق حذر (إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) حتى إذا تمت المؤامرة ورجعوا إلى أبيهم عشاء يبكون تأكدت هواجسه الراجفة فقال فى ألم « بل سوّلت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون » ويكتم الأب لوعته فى أحشائه

صابرا متأسيا حتى إذا جاء أولاده يطلبون الشقيق الأثير بعد يوسف هاجت نوازعه فصاح بهم متوجعا (هل آمنكم عليه إلا كما امنتكم على أخيه من قبل) ثم يتعاظمه الأمر فيقول لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتننى به إلا أن يحاط بكم » وتحدث الحادثة فيحتجز الشقيق ويسعى الأبناء حذرين إلى أبيهم فيكرر قوله السابق (بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل) ثم يلهمه الإحساس الصادق فيهتف (عسى الله أن يأتينى بهم جميعا)! ويخلو لنفسه لا ليذكر الغائب الجديد وحده بل ليصرخ من أعماقه ياأسفا على يوسف! وإن تجد صورة أبلغ فى تصوير وجده من قول الله :

«وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم» ! ثم يقول لأبنائه (اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله) : أى والله لم ييأس الرجل من روح الله حين رجا لقاء يوسف بعد تصرم الأعوام الطوال ! حتى إذا رجع القوم بقميص يوسف وجد ريحه قبل أن يسمع بمقدمهم فصاح بمن حوله (إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) فأجاب قائلهم متعجبا من سبحات هذا الحالم (تالله إنك لفى ضلالك القديم) ثم تتحقق النبوءة فيهتف مسرورا (ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون)!

هذا ما كان من أمر الوالد ، أما امرأة العزيز فقد صورت الأنثى الوامقة حين غلقت الأبواب وقالت هيت لك ، ثم حين استبقا الباب وقدت قميصه من دبر ، ثم حين حاولت أن تلصق به الجريمة وحده فقالت (ماجزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم) كما صورت اقتدار الغاضبة الثائرة حين جمعت نسوة المدينة وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن ! وحين أعلنت لهن حبها المائج فى غير تحفظ فقالت (فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين) ! كما عبرت عن ضعفها اليائس حين قالت فى النهاية (أنا راودته عن نفسه وأنه لمن الصادقين) الآن :

فإذا اتجهنا إلى البطل نجده يأخذ دوره الطبيعى فى خطوات حياته ، نراه لأول وهلة فتى صغير السن يجلس إلى أبيه ليقول له فى بساطة (إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) ثم نراه فى موقف آخر يرمى فى غيابة الجب لتلتقطه السيارة فيباع بثمن بخس دراهم معدودة ، ثم ينزل أكرم منزل فى بيت العزيز فيبلغ أشده ويؤتى الحكمة والعلم ، ومعهما العفة والأمانة إذ يعرف لصاحب ا[illegible]ت

نعمته فيصد امرأته ، ويرى المؤامرات تحاك حوله فيلجأ إلى المناجاة ويصيح من أعماقه « رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين » .

ثم يتعرض لامتحان آخر فيدخل السجن صابرا محتسبا ويرى السجناء من مسلكه الطاهر ما يجذبهم إليه فيطلبون إليه تفسير الرؤى وتأويل الأحلام ، وينتهز هذه الثقة المكينة فيقوم بدعوته الدينية شارحا عقيدة الأنبياء جميعا فى وحدانية الخالق وهاتفا بمستمعيه « أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » ثم يقول لمن ظن أنه ناج من رفقائه « اذكرنى عند ربك » فتحين ساعة الذكرى بعد إبطاء حين يرى العزيز حلما غريبا لا يقدر على تفسيره أحد ! فيتذكر السجين السالف براءة يوسف ويشير به ثم ينهض إلى استفتائه فينطق بالتأويل الصريح ، وحين يعجب الملك بذكائه يصيح « ائتونى به » ، ولو كان السجين غير يوسف لطار لساعته دون انتظار إذ حانت ساعة الفرج بعد لأى ولكن النبى الهادى الصبور يريد أن يثبت براءته قبل كل شىء ، فيقول للرسول فى تؤدة « ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن » وتظهر براءته فيرجع إلى حريته ليكون أمينا على خزائن الأرض !

ثم تمضى الأمور على نحوها المعروف حتى يلتقى بأبيه وإخوته فيرفع أبويه إلى العرش ويخر الإخوة ساجدين فلا يزيد البطل المنتصر عن أن يقول لأبيه «يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا» ثم يتجه إلى صاحب الفضل الأول عليه فيناجيه متوسلا «رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين».

نماذج ثلاثة من القصص القرآنى تشملها جميعا بلاغة التصوير وتتابع السرد وصدق الأداء وقوة الإيحاء، ولئن انفرد كل أنموذج بسمات تحددها الأحداث طولا وقصرا والأشخاص عوجا واستقامة، والسياق استقلالا واندماجا فقد جاءت جميعها نمطا من الوحى الهادف، وطرازا من القصص الحق ومذهبا من القول البليغ!

موازنات

لم يترك الكاتبون جهدا فى تحليل البيان القرآنى وتفسيره إذ بذلوا فى ذلك مانشهد عليه المكتبة العربيـــة بروائع أسفارها ، وعظيم مؤلفاتها ، وكان لهؤلاء الكرام من الطرق والمناهج فى اطراد القول، واتساق الرأى ما يتفق ويختلف ، لأن كل باحث أصيل يصدر عن ذاتيته الخاصة ، وعقليته المنفردة فيأتى فيما يؤكد هذه الذاتية بمالا يشتبه مع سواه فى منحاه ، وإذا كان من اتفاق فى أكثر النتائج فهو اتفاق الأجوبة فى المسائل الحسابية الصحيحةالتى تكون نتيجة طبيعية لجهد فكرى سليم سارت خطواته المتأنية فى دربها المستقيم .

ودارس البلاغة القرآنية إذا منح الاستعداد القـــوى والذوق البصير والإخلاص المنصف لايضل فى أكثر ما يحاول ، لأن موازين الأسلوب الجيد معروفة غير مجهولة من الناحية النظرية ، وقوانين الصور والأفكار والتراكيب أصالة وإنسجاما وجدة ليست مما يدق خفاؤه على المتخصصين ، فالسبيل مأمونة ممهدة لاسيما بعد أن رفدت البلاغة بجداول صافية من العلوم المعاصرة أنارت مصابيحها ، وأصلت قواعدها وفتحت نوافذها على آفاق واسعة رحيبة ، فاتجه الدارسون

إلى تحليل قوى العقل والشعور والإرادة فعرفوا أن عمل البليغ ازاء القوة العقلية هو أن يجيد إيضاح المعانى فى أذهان القارئين على أحسن وجه وأوفاه ، وصنيعه إزاء القوة الشعورية أن يثيرها بما يبدع من صور ، ويترجم من عواطف ، وشأنه مع القوة الإرادية أن يقودها إلى أحسن مايقول فتسير وراءه مهتدية مقتدية عن إقناع وتأثير ، ولعل فيما كتبناه عن بلاغة الإقناع ، وبراعة التصوير ، وجزالة البيان ورقته ما يدل على الاهتداء التطبيقى ـ قدر الطاقة ـ بما ائتلقت به البلاغة حديثا وقديما من أضواء .

ولكن نفرا من الدارسين فى المجال القرآنى قد بذلوا الجهد كل الجهـد فى دراستهم الجادة ، ثم التوى بهم الطريق فى بعض خطواتهم إلى منعرجات كان من الأوفق أن يتخطوها دون التواء ، ذلك أنهم اعتقدوا روعة القرآن وإعجازه كما يعتقد جميع المنصفين ، ثم حاولوا التدليل على ذلك بموازنات بعيدة لا تصيب الهدف فى شىء ، وجاء من بعدهم من أطال القول وشققه ، فجال فى غير ميدان ، ومابنا علم الله أن نضائل من جهد أحد ، ولكننا نرى ما قاموا به من الموازنات قد جانب الطريق الصحيح فلم يأت بطائل ، ومن الحق أن نصدع برأينا فيه .

سنختار الباقلانى من دارسى القدماء ، إذ أراد أن يستدل على إعجاز القرآن فى بعض وجوهه ، بالموازنة بين كلام الله وكلام البشر ، وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أفصح البلغاء قاطبة فقد بدأ به بعد مقدمة جليلة عنيت بمسائل نقدية هامة لها خطرها فى عالم البيان ، فقال ص ٥ « والذى يصور عندك ما ضمنا تصويره ، ويحصل عندك معرفته إذا كنت فى صنعة الأدب متوسطا ، وفى علم العربية متبينا أن تنظر أولا فى نظم القرآن ثم فى شىء من كلام النبى صلى الله عليه وسلم فتعرف الفصل بين النظمين ، والفرق بين الكلامين فإن تبين لك الفصل ، ووقعت على جلية الأمر ، وحقيقة الفرق ، فقد أدركت الغرض وصادفت المقصد وإن لم تفهم الفرق ولم تقع على القصد فلابد لك من التقليد وعلمت أنك من جملة العامة وأن سبيلك سبيل مَن هو خارج عن أهل اللسان » ثم أتبع ذلك بعدة خطب مشهورة من خطب رسول الله وبضعة كتب من رسائله ليقول عقب ذلك ص ١٦٤ « فإن كان لك فى الصنعة حظ أو كان لك فى هذا المعنى حس أو كنت تضرب فى الأدب بسهم أو فى العربية بقسط وإن قلّ ذلك السهم أو نقص ذلك النصيب فما أحسب أنه يشتبه عليك الفرق بين براعة القرآن وبين ما نسخناه لك من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبه ورسائله، وما عساك تسمعه

من كلام . ومايتساقط إليك من ألفاظه ، وأقدر أنك ترى بين الكلامين بونا بعيدا وأمدا مديدا وميدانا واسعا ومكانا شاسعا ».

وموضع النقد فى هذا الصنيع — وما يليه من ضروب الموازنات بين القرآن وخطاب البشر وقصائد الشعراء ، أن الباقلانى قد اتسع بالموازنة اتساعاً رمى بها فى أبعاد شاسعة ، إذ لا بد فى الموازنة الأدبية من أن ينحصر مجالها فى موضوع معين يتعاقب عليه قائلان أو أكثر ، إذ يجولون فى مسافة محدودة مضبوطة لاتشط بالقارىء من أفق إلى أفق ومن ميدان إلى ميدان ، ولكن الباقلانى قد نسى ذلك حين أتى ببعض ما وقع عليه من قول الرسول وخطب الصحابة وشعر الشعراء ، ليقول أن ذلك كله لا يشبه نمط القرآن ، ونحن لا ننكر أن ذلك كله بداهة لا يشبه نمط القرآن فى قليل أو كثير ، ولكن طريق الباقلانى لا يقيم موازنة صحيحة بين قول وقول ، وكان فى قدرته أن يأتى بخطبة نبوية فى موضوع كالموت مثلا ليقرنها بنص قرآنى يتحدث عن الموت لينجلى وجه الإعجاز القرآنى فى ضوابط معلومة لاتتسع بها الفرجات ، أما إذا أراد أن يثبت أن المنحى القرآنى فى إحكام فواصله ، وقوة أسره ،وانصباب معانيه نمط وحده غير أنماط البلغاء فكل قارىء — حتى الأعاجم — يلمس ذلك لمساً

لا يحتاج إلى نقاش ، وقـــد أطال الـكاتبون قديماً وحديثاً فى إيضاح الفوارق بين كلام الله وكلام الرسول ، ومن أحسن ماقيل فى ذلك ما كتبه صاحب النبأ العظيم حين قال ص ١٠٦ :

« ونحن نرى الأسلوب القرآنى فنراه ضربا وحده ونرى الأسلوب النبوى فنراه ضرباً وحـــده لا يجرى مع القرآن فى ميدان إلا كما تجرى محلقات الطير فى جو السماء لاتستطيع إليها صعودا ثم نرى أساليب الناس فنراها على إختلافها ضربا واحدا لا تعلو عن سطح الأرض ، فمنها ما يحبو حبوا ، ومنها ما يشتد عودا ونسبة أقواها إلى القرآن كنسبة هذه السيارات الأرضية إلى تلك السيارات السماوية ، نعم لقد تقرأ القطعة من الـكلام النبوى فتطمع فى اقتناصها ومجاراتها كما تطمع فى اقتناص المـكاثر أو مجاراته ، ولقد تقرأ الـكلمة من الحـكمة فيشتبه عليك أمرها ، أمِن الـكلمات النبوية هى أم كلمات الصحابة أو التابعين ، ذلك على ما علمت من امتياز الأسلوب النبوى بمزيد الفصاحة ونقاء الديباجة وإحـكام السرد ، ولـكنه امتياز قد يدق على غير المتفقهين فى هـــذا الفن وقد يقصر الذوق وحده عن إدراكه فيلجأ إلى النقل يستعينه فى تمييز بعض الحديث المرفوع من الحديث الموقوف أو المقطوع ، أما الأسلوب القرآنى فإنه يحمل طابعا لا يلتبس مع غيره ولا يجعل

طامعا يطمع أن يحوم حول حماه بل يدع الأعناق تشرئب إليه ثم يردها ناكسة الأذقان على الصدور » .

هذا الكلام على إجماله أقوى من كلام الباقلانى على تفصيله ، ثم إن كان لديه مجال ما الموازنة بين القرآن والحديث النبوى أوما هو بسبيله من بعض الروائع النثرية للصحابة والتابعين ، فكيف يتسع المجال لمقارنة القرآن بمعلقة امرىء القيس الشهيرة فى صفحات طوال تنتهى به إلى قوله ص ٢١٠ :

« ولم نحب أن نفسح لك ما سطره الأدباء فى خطأ امرىء القيس فى العروض والنحو والمعانى وماعابوه عليه فى أشعاره ، وتكلموا به على ديوانه لأن ذلك أيضا خارج عن غرض كتابنا ومجانب لمقصوده ، وإنما أردنا أن نبين الجملة التى تبيّناها لتعرف أن طريقة الشعر طريقة مورودة ومنزلة مشهوده يأخذ منها أصحابها على مقادير أسبابهم ويتناول منها ذووها على حسب أحوالهم ، وأنت تجد المتقدم معنى قد طمسه المتأخر بما أبر عليه فيه ، وتجد للمتأخر معنى قد أغفله المتقدم، وتجد معنى قد توافدا عليه وتوافيا إليه فهما فيه شريكا عنان وكأنهما فيه رضيعا لبان ، والله يؤتى فضله من يشاء » إذا كان الباقلانى قد بذل

كل هذا الجهد ليقول أن طريقة الشعر طريقة موروودة ومنزلة مشهودة وأن المتقدم يفوق المتأخر آنا ويفوقه المتأخر آنا آخر ، فقد والله عنى نفسه ليقرر بديهية لا تخرج عن قولنا « السماء فوقنا » وما كان أحراه أن يجمل هذه الصفحات الطوال فى سطور معدودات !

هذا عن الباقلانى من قدامى الدارسين ، أمّا معاصرنا المغفور له الدكتور أحمد أحمد بدوى فقد طرق باب الموازنة القرآنية على غير وجهه فى فصل خاص من كتابه (من بلاغة القرآن) متابعا فى أمثلة ومبتكرا فى أمثلة أخرى ، فكان سبيله أن يأتى بمعنى قرآنى ليقرنه بمعنى بشرى ، موازنا بينهما بما يراه من أوجه الترجيح ، ومن أمثلته فى ذلك .

١ — قال الله تعالى : « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » .

وقال ابن المعتز :

ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا مثل القلامة قد قدّت من الظفر

وقال :

أنظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

وقال :

انظر إلى حسن هلال بدا يهديك من أنواره الحندسا
كمنجل قــــد صيغ من فضة يحصد من زهر الدجى نرجسا

٢ — قال الله تعالى : « والصبح إذا تنفس » .

وقال الرفاء :

انظر إلى الليل كيف تصدعه راية صبح مبيضة العــــذب
كراهب جن للهوى طربا فشق جلبابا به من الطرب

٣ — قال الله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فماله من هاد » .

وقال صلى الله عليه وسلم : إن أحسن الحديث كتاب الله قد أفلح من زينه الله فى قلبه وأدخله فى الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس أنه أحسن الحديث وأبلغه .

٤ — قال الله تعالى : ﴿ قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور ﴾ .

وقال حسان :

وهل يستوى ضلال قوم تسفهوا عمى وهداة يهتدون بمهتدى

٥ — قال الله تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ .

وقال حسان :

عزيز عليه أن يحيدوا عن الهدى، حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

إلى أمثلة غيرها فى الكتاب المذكور .

ومع التسليم المبدئى بإعجاز النصوص القرآنية وتفوقها لا محالة ، فإن الموازنة فى اتجاهها غير صحيحة ولا مقبولة ، إذ لا يكفى أن يتحدث شاعر كابن المعتز عن الهلال فى وضع وفى مناسبة خاصة لنقرن حديثه بآية قرآنية سيقت مساقا آخر غير ما اتجه إليه النص الشعرى ، فالآية — كما ذكر الدكتور أحمد بدوى — تتحدث عن التنقلات التى تحدث للقمر بقدرة الله ، فبينا هو وليد إذا به ينمو رويدا حتى يصبح بدراً مكتملا ثم يعود أدراجه وينقص قليلا

حتى يعود كعود الكناسة القديم دقيقا معوجا لا يكاد يرى ، هذا عن الآية ، أما البيت الأول لابن المعتز فلا صلة له بما تريد الآية من الحديث عن دورات القمر بدءا وخاتمة .

إنما أراد ابن المعتز أن يصوّر هواجس العاشق ومخاوفه لأول بادرة يظن منها الفضيحة ، فقد اجتمع مع صاحبته فى ظلام الليل مرتاحا إلى ستاره الحائل ثم رأى فى الأفق ضوء الهلال النحيل يوشك أن يظهر ، فتجسدت مخاوفه ، وتوهم أن هذا الهلال النحيل وهو قدر القلامة يوشك أن يأتى بشر عاصف ! وهو مايتوجس منه كل عاشق يقف موقفه المريب مجداً ظنونه متخوفا أوهامه ، فكيف يغفل الدكتور بدوى ذلك كله أو يتناساه ليقول إن كون الهلال مثل قلامة الظفر لا دخل له فى الفضيحة بل يُقلل من شأن الفكرة ويضعفها ! إذا كان يرى ذلك فإن أصحاب هـــذه المواقف يعرفون أنه عنها بعيد بعيد ! ثم لماذا هـذا الشطط فى اقتران صورة بصورة وهما متباعدتا الاتجاه ! ألأن القمر جعل مشبها فى المثالين لزم أن تقوم الموازنة دون أى اعتبار !

هذا ما اتجه إليه الدكتور فى سائر الأبيات الخاصة بالهلال .

وهو اتجاه يجعل مقارنات التشبيه مرفقا عاما لكل عابر طريق ! أما قول الله « والصبح إذا تنفس » فهو من معجز الكلام إذ صور دبيب الحياة فى الكون بعد سكون الهجوع بحركة التنفس التى تدل على الحياة وتشير إلى انبعاثها فى كائن كان يغط فى نومه ثم استيقظ ، ولامجال إلى مقارنة هذه الصورة الواقعية بصورة ذهنية ملفقة لراهب ذى ثوب أسود قد طرب حتى شق سواد الثوب عن بياض القميص ، لأن كل تشبيه ملفق لاتستجيب له النفس مهما اتفقت صورتاه ، والإعجاب به — إذا وجد — لا يتعدى نفرا من أصحاب الأذواق الهابطة الذين يظنون التصوير الأدبى مجرد اقتران لون بلون لامواءمة نفسية صادقة بين وضع ووضع ، وإذا كان رسول الله قد عدّد بعض مزايا الكتاب الكريم فى خطبته التى بدأها بقوله « إن أحسن الحديث كتاب الله » فإن الآية المعجزة قد صورت شدة سطوة القرآن ونفاذهُ بما لا يبلغه كلام بشرى، واقتران كلام الرسول بها يخرج لدى الدكتور بنتيجة هى من قبيل تحصيل الحاصل كما يقال، ففيم العناء دون غناء ، كما أن الدكتور إذا التمس باب الموازنة فيما تقدم على نشوزه البعيد فليس له تبعا لذلك أن يذكر بيتى حسان السابقين ، إزاء ما قال القرآن ، لأن حسان — ومن حذا حذوه — قد اقتبس عن عمد فقصر به

المدى وكبا به المركب ، والموازنة الأدبية لا تكون بين أصل تام ، وفرع اشتق منه واقتبس من ثمره لأن الفضل مقطوع به للأصل التام دون الفرع المبتسر ، وإذا كان الشاعر أو الأديب يعمد إلى الاقتباس القرآنى ليزين انتاجه ببعض ما يخلع عليه البهاء ففى ذلك من التواضع العاجز ما يقطع كل سبيل الموازنات .

ولنا أن نسأل بعد ذلك : ألا تتيسر موازنة ما بين نص قرآنى ونص أدبى آخر ؟ وإذا تيسرت هذه الموازنة فكيف تنهض راسخة على وجهها النقدى الصحيح ! ! ؟

إن القرآن من الناحية البلاغية وحدها أثر أدبى لدارسه أن يشبعه تحليلا وشرحا كما يريد ، ولن تمتنع الموازنة بين نصوصه ، والنصوص الأخرى إذا جرت خطوات هذه الموازنة فى سبيلها الصحيح وأول هذه الخطوات أن يختار نص كامل فى موضوع معين ليقف بإزاء نص كامل يتفق معه فى موضوعه ، ثم تسلط الأضواء على كل نص على حدة لتوضح مبلغه من صدق الأداء وقوة الفكرة وشمول المعنى واكتمال الصورة واتساق التعبير مع ما يشع به من ظلال ويومىء إليه من إيحاء ، فإذا تم ذلك اتضحت للقارىء أسباب الجودة فى كلا

النصين اتضاحا يميل به إلى ترجيح أثر على أثر مقدما بما لديه من الشواهد الصريحة المحددة ، تلك هى السبيل فى مضمار الموازنات البشرية نثرا وشعراً ، فاذا نظرنا إلى القرآن باعتباره نصا أدبيا فلن نجد ما يعدمنا بإزائه من سلوك هذه السبيل ، بل نجد ما يطمئننا إلى الوقوف على روعته البيانية وقوفا يهتف بالشاهد ويعتز بالدليل ، وإذا كان لابد من مثال توضيحى لما نعنى ، فسنلقى ضوءا يسيرا على ما نقصد لا لنقيم موازنة بين نص ونص ، بل لندفع القارىء المتذوق لأن يقيم هذه الموازنة تلقائيا عندما نحدد له الدائرة فى وضعها المستريح .

لقد كتب بعض البلغاء فى القديم والحديث سيرة رسول الله كتابة رصينة ذات عمق ونفاذ ، فسجلوا روائع خالدة من مواقفه ، وكان من هذه الروائع ما تحدث به القرآن الكريم حديثا مكتمل النص قوى الأداء باهر الملامح ، فإذا أردنا من الناحية التطبيقية أن نقدم مثالا قرآنيا لتصوير موقف نبوى ذائع ـ كوقعة الخندق مثلا ـ مقارنا بأحسن ما كتبه الأدباء فى موضوعه ، فعلينا أن نرجع إلى أمهات الكتب التاريخية من خاصة بالسيرة وشاملة لها ولغيرها من سير الناس ! لنلم بالأحداث المتتابعة كما دونها المؤرخون ، لنستطيع

على ضوئها أن نعرف الحقائق فى سردها الواقعى لنتهيأ لاستقبالها بعد فى نسجها الأدبى ، فإذا تم ذلك فلنعمد إلى أحسن ما نعتز به من آثار مؤلفى السيرة النبوية لنقرأ ما كتب صاحبه عن غزوة الخندق قراءة مستأنية تقف عند كل عنصر ، وتتأمل كل صورة ، وتراعى كل خاطرة فإذا امتلأ الدارس بما قرأ انتقل إلى ماقاله الله عز وجل فى سورة الأحزاب ، ليقف أمام أسلوبين فى موضع واحد وقفة الدارس الأمين .

لقد دفع نفر من اليهود قريشاً لمحاربة رسول الله ، وزادوا فاندفعوا إلى تأليب القبائل من قيس بن عيلان وبنى مرة وبنى فزارة وأشجع وسليم وبنى سعد وأسد حتى فوجىء المسلمون بجموع كثيفة تزحف على المدينة ، فكانت عدة قريش أربعة آلاف معهم ثلاثمائة فرس وألف وخمسمائة بعير ، ولاقتهم بنو سليم وعددهم سبعمائة تحت قيادة سفيان بن عبد شمس وتبعهم بنو أسد تحت قيادة طلحة بن خويلد وخرجت غطفان تحت قيادة عيينة بن حصن ، وبنو مرة تحت قيادة الحارث بن عوف ، وبنو أشجع تحت قيادة مسعر بن رخيلة حتى بلغ عدد الزاحفين عشرة آلاف تنضم جميعها تحت قيادة سفيان بن حرب قائد قريش ! وكان عدد المقاتلين من المسلمين ثلاثة آلاف ومعهم

ست وثلاثون فرسا ، وليت الأمر وقف عند ذلك بل إن جماعة بنى قريظة فى المدينة قد طمنتهم من الخلف حين غدرت بهم وانضمت إلى الأعداء ، فوقع المسلمون بين المطرقة والسندان ، وتوقعوا كارثة ماحقة تلقاهم من كل طريق ، وقف المسلمون فى قلة قليلة أمام ثلاثة خصوم ألداء ، وإذا كان الفريق المهاجم من الخارج مما لا حيلة فى دفعه فإن غدر بنى قريظة من خلفهم وهم فى بلدهم لا يفصل دونهم خندق أو يمنع منهم حصن قد ضاعف الكارثة هولا إذ جاءهم الأعداء من فوقهم ومن أسفل منهم حتى حصل من الفزع مالا يعبر عنه بأفصح من قول الله « وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر » ، « هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا » ، أما الخصم الثالث فهو الطابور الخامس من المنافقين الذين تظاهروا بالإسلام ليخذلوا نبيه ساعة الهول فأخذو يذيعون الأراجيف ويكذبون النبى فى دعوته الخالصة إلى الله ، ثم يقولون: لا طاقة لنا اليوم بهذه الجموع ، وينادون أهل يثرب أن لا مقام لكم فارجعوا ، فإذا لم يجدوا الكثرة تصغى إليهم بدءوا بالخذلان فأخذوا يستأذنون النبى فى الانسحاب ليحموا فى زعمهم بيوتهم بالمدينة ، وهى بعد ليست فى خطر يخشى عليها منه ، ولكنهم يريدون الخذلان بتبرير كاذب أفاك ، هؤلاء الذين يدعون حماية بيوتهم فى

المدينة لو فوجئوا باقتحامها ما وقفوا دونها مدافعين بل لأعلنوا شماتتهم الخبيث وارتدوا كافرين! مع أنهم عاهدوا الله ألا يفروا ساعة الهول، إن هذا الخصم الثالث من اشد الأعداء ضراوة وأثراً، لأنه عدو يلبس ثياب الصديق فيخدع الضعفاء بما يبهرج من إفك، والله ورسوله والمؤمنون يعلمون المعوقين من هؤلاء إذ يقولون لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس، وهم فى ساحة القتال أولو جبن راعد يعصف بثباتهم فلا يستقرون فاذا خرجوا من المعركة تشجعوا بالقول وأخذوا ينحون باللائمة على الشرفاء مرجفين آثمين مؤكدين أن الأحزاب قوة لا تهزم، وهم لسوء نياتهم يودون لو تركوا المدينة بمن فيها وما فيها ساعة الحرب وتوغلوا فى الصحراء حتى تدور الدائرة على المسلمين! إن الحديث عن هؤلاء الكفرة المفتنين يحتاج إلى بسط يفضح ما استتر ويكشف ما التبس فايقذف بهم النفاق إلى ضلال القهقرى وفضيحة النكوص، أما المسلمون الخالصون فقد صدقوا ماعاهدوا الله عليه والتفوا حول الرسول التفاف من يفديه بأعز ما يملك حتى أرسل الريح العاصف فاقتلعت خيام المهاجمين وشردت أممهم فولوا الأدبار ولم ينالوا خيرا وكفى المسلمون شر القتال، فحانت ساعة الإنتقام ممن نقضوا العهد وهموا بمواجهة

للمسلمين من الخلف ، فسارت الجموع إليهم لترث ديارهم وتستأصل شأفتهم ، وتنيلهم شر الجزاء !

تلك خلاصة واقعة الخندق كما رواها كتاب الله وكما سجلتها صحف البلغاء من كتاب السيرة فلننظر أولا كيف عبّر عنها القرآن حين قال :

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ، وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ، وإذ قالت طائفة منهم يأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا ، ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا ، ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان

المدينة لو فوجئوا باقتحامها ما وقفوا دونها مدافعين بل لأعلنوا شماتهم الخبيث وارتدوا كافرين! مع أنهم عاهدوا الله ألا يفروا ساعة الهول، إن هذا الخصم الثالث من اشد الأعداء ضراوة وأثراً ، لأنه عدو يلبس ثياب الصديق فيخدع الضعفاء بما يبهرج من إفك ، والله ورسوله والمؤمنون يعلمون المعوقين من هؤلاء إذ يقولون لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس ، وهم فى ساحة القتال أولو جبن راعد يعصف بثباتهم فلا يستقرون فاذا خرجوا من المعركة تشجعوا بالقول وأخذوا ينحون باللائمة على الشرفاء مرجفين آثمين مؤكدين أن الأحزاب قوة لا تهزم ، وهم لسوء نياتهم يودون لو تركوا المدينة بمن فيها وما فيها ساعة الحرب وتوغلوا فى الصحراء حتى تدور الدائرة على المسلمين! إن الحديث عن هؤلاء الكفرة المقنعين يحتاج إلى بسط يفضح ما استتر ويكشف ما التبس فليقذف بهم النفاق إلى ضلال القعقعة وفضيحة النكوص ، أما المسلمون الخالصون فقد صدقوا ماعاهدوا الله عليه والتفوا حول الرسول للتفاف من يفديه بأعز ما يملك حتى أرسل الريح العاصف فاقتلعت خيام المهاجمين وشردت أممهم فولوا الأدبار ولم ينالوا خيرا وكفى المسلمون شر القتال ، فحانت ساعة الإنتقام ممن نقضوا العهد وهمّوا بمهاجمة

للمسلمين من الخلف ، فسارت الجوع إليهم لترث ديارهم وتستأصل شأفتهم ، وتنيلهم شر الجزاء !

تلك خلاصة واقعة الخندق كما رواها كتاب الله وكما سجلتها صحف البلغاء من كتاب السيرة فلننظر أولا كيف عبّر عنها القرآن حين قال :

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ، وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ، وإذ قالت طائفة منهم يأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا ، ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا ، ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان

عهد الله مسئولا، قل ان ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل
وإذن لا تمتعون إلا قليلا ، قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن
أراد بكم سوء أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله
وليا ولا نصيرا، قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا
ولا يأتون البأس إلا قليلا ، أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم
ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب
الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط
الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا ، يحسبون الأحزاب لم يذهبوا
وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن
أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا ، لقد كان لكم فى
رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله
كثيرا ، ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هـــذا ما وعدنا الله
ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ، من المؤمنين
رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من
ينتظر وما بدلوا تبديلا ، ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب
المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما ، ورد الله
الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان

الله قويا عزيزا ، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا ، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها وكان الله على كل شىء قديرا[1] » .

ثم لنقرأ بعد ذلك ما نختار من حديث الأحزاب فى صحف السيرة الأدبية ، لنضع ما كتبته الصحيفة المختارة أمام النص القرآنى ، ولنقارن قولا بقول وبيانا ببيان غير ناسين أن الحديث القرآنى قد نزل مجملا غير مفصل لأنه يتحدث المسلمين عن غزوة كانوا أبطالها إذ ألموا بمواقفها وعرفوا أبعادها ، ورأوا مواقع الرعب البادى وعوامل الغدر الشائن ومظاهر النفاق الخادع ثم اعتصموا بالثبات حتى انجلت الموقعة عن فرار المعتدين دون قتال ، يتحدث القرآن بما كان القوم يعرفون ما كان ففاجأهم بالعديد من الصور ، والدقيق من التعليل ، والرائع من التفسير ، وكشف النقاب صريحا عن نور المؤمن وظلام الكافر ونتن المنافق فأتى فى ذلك بما عد كالجديد على قوم كانوا أبطال الحلبة وليوث العرين! هذا ما يجب معرفته قبل أن نبدأ الموازنة لندرك خفى الإشارة ، وقوى الإيحاء فيما أوجز من القول ونلمس جمال التصوير وروعة التهدى لمكنون الأحاسيس فيما

(١) الآيات ٩ — ٢٧ من سورة الأحزاب .

المدينة لو فوجئوا باقتحامها ما وقفوا دونها مدافعين بل لأعلنوا شماتتهم الخبيث وارتدوا كافرين! مع أنهم عاهدوا الله ألا يفروا ساعة الهول، إن هذا الخصم الثالث من اشد الأعداء ضراوة وأثراً، لأنه عدو يلبس ثياب الصديق فيخدع الضعفاء بما يبهرج من إفك، والله ورسوله والمؤمنون يعلمون المعوقين من هؤلاء إذ يقولون لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس، وهم فى ساحة القتال أولو جبن راعد يعصف بثباتهم فلا يستقرون فاذا خرجوا من المعركة تشجعوا بالقول وأخذوا ينحون باللائمة على الشرفاء مرجفين آثمين مؤكدين أن الأحزاب قوة لا تهزم، وهم لسوء نياتهم يودون لو تركوا المدينة بمن فيها وما فيها ساعة الحرب وتوغلوا فى الصحراء حتى تدور الدائرة على المسلمين! إن الحديث عن هؤلاء الكفرة المنعمين يحتاج إلى بسط يفضح ما استتر ويكشف ما التبس فايقذف بهم النفاق إلى ضلال التقهقر وفضيحة النكوص، أما المسلمون الخالصون فقد صدقوا ماعاهدوا الله عليه والتفوا حول الرسول التفاف من يفديه بأعز ما يملك حتى أرسل الريح العاصف فاقتلعت خيام المهاجمين وشردت أممهم فولوا الأدبار ولم ينالوا خيرا وكفى المسلمون شر القتال، فحانت ساعة الإنتقام ممن نقضوا العهد وهموا بمهاجمة

للمسلمين من الخلف ، فسارت الجموع إليهم لترث ديارهم وتستأصل شأفتهم ، وتنيلهم شر الجزاء !

تلك خلاصة واقعة الخندق كما رواها كتاب الله وكما سجلتها صحف البلغاء من كتاب السيرة فلننظر أولا كيف عبّر عنها القرآن حين قال :

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ، وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ، وإذ قالت طائفة منهم يأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا ، ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا ، ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان

عهد الله مسئولا ، قل ان ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذن لا تمتعون إلا قليلا ، قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوء أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا ، قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا ، أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا ، يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا ، لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ، ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هـــذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ، من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ، ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما ، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان

الله قويا عزيزا ، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا ، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها وكان الله على كل شىء قديرا[1] » .

ثم لنقرأ بعد ذلك ما نختار من حديث الأحزاب فى صحف السيرة الأدبية ، لنضع ما كتبته الصحيفة المختارة أمام النص القرآنى ، ولنقارن قولا بقول وبيانا ببيان غير ناسين أن الحديث القرآنى قد نزل مجملا غير مفصل لأنه يتحدث المسلمين عن غزوة كانوا أبطالها إذ ألموا بمواقفها وعرفوا أبعادها ، ورأوا موائج الرعب البادى وعوامل الغدر الشائن ومظاهر النفاق الخادع ثم اعتصموا بالثبات حتى انجلت الموقعة عن فرار المعتدين دون قتال ، يتحدث القرآن بما كان القوم يعرفون ما كان ففاجأهم بالعديد من الصور ، والدقيق من التعليل ، والرائع من التفسير ، وكشف النقاب صريحا عن نور المؤمن وظلام الكافر ونتن المنافق فأتى فى ذلك بما عد كالجديد على قوم كانوا أبطال الحلبة وليوث العرين ! هذا ما يجب معرفته قبل أن نبدأ الموازنة لندرك خفى الإشارة ، وقوى الإيحاء فيما أوجز من القول ونلمس جمال التصوير وروعة التهدى لمكنون الأحاسيس فيما

(١) الآيات ٩ — ٢٧ من سورة الأحزاب .

سلس من المنطق وسنعلم بعد ذلك أن الحديث معجز معجز وأنه وحي السماء .

ليست غزوة الأحزاب مثالا فريداً لما ندعو إليه ، فهناك غيرها من الغزوات قد نهجت هذا النهج البارع وصفا وتفسيرا وتصويرا وتعبيرا ، بل هناك غير الغزوات مما خصه القرآن بالحديث ! حتى الأحكام الشرعية ، والنواهي والأوامر الخلقية ، والوصايا الدينية تستطيع أن تقرأ نصوصها الكاملة لتقرنها بنظائرها في كتب التشريع والأخلاق لتقيم الموازنة في نطاق الأسلوب العلمي الدقيق كما أتيح لك أن تقيمها في نطاق الأسلوب الأدبي الرقيق .

إذا كان لنا أن نسلك طريق الموازنة العادلة فقد رسمنا الطريق لمن يريد أن يوازن دون جهرح ، أما أن نقتصر في مجالها الفني على سرد الخطب والقصائد كما فعل (صاحب إعجاز القرآن) أو نقتطع معنى قرآنيا جزئيا لنقرنه بمعنى بشرى آخر كما فعل صاحب (من بلاغة القرآن) فذلك مايبعد بالقول عن غايته ، ويضل الساري عن هداه .

آراء معاصرة فى الإعجاز

قام المتكلمون والبلاغيون فى القديم بدراسات جيدة للاعجاز القرآنى ، فبذلوا ما استطاعوا من جهد فى تجلية نواحى الإعجاز ، وأفردوا كتباً خاصة تفصح عن آرائهم أكمل إفصاح، حتى اكتمل لدينا فى هذا المضمار تراث حفيل نرجع إليه ونوفيه حقه من الدرس والتحصيل

ولم يكتف علماء اليوم بما ردده السابقون فى باب الإعجاز ، بل أضافوا إليه ما فتح الله به عليهم من آراء لها وزنها الأدبى ، وهكذا تظل الدراسات البيانية للقرآن متصلة غير منقطعة ، إذ أن قارىء هذا الكتاب المبين يظل متشوفا إلى سماع الجديد عنه ، كما أن دارسه الباحث يعمل فكره الدائب ليهتدى إلى بعض أسراره البيانية فيسطرها للناس قدر ما يستطيع .

وإذا كان الأستاذ مصطفى صادق الرافعى رحمه الله قد أفرد كتابا برأسه عن إعجاز القرآن فإن كتابه البليغ قد وجد من الذيوع التام ما تعددت به طبعاته الكثيرة بحيث أصبح الرجوع إليه فى مسكنة كل باحث ، ولن نحاول أن نتعرض له فى هذا البحث الموجز إذ نترك الحديث عنه إلى مناسبة قد تعن ، إنما نتعرض الآن لنفر من باحثى العصر كتبوا عن الإعجاز صفحات يسيرة من كتب كثيرة فلم يتح لها أن

تنال حظها من الذيوع، إذ خفيت بعض الخفاء على جمهرة الدارسين، وفى الإشارة إليها تحليلا ونقدا ما يقدم الجديد امشاف الدراسات القرآنية بل بيسر خطوات تالية لمن يريد أن يكمل الشوط إلى نهايته، وكاتبو هذه الصفحات اليسيرة أفذاذ كبارهم موضع الثقة لدى الناس لذلك نخصهم بالحديث .

ونبدأ بالعلامة الكبير المغفور له الأستاذ محمد فريد وجدى فقد تعرض للاعجاز القرآنى فيما كتبه بالجزء السابع من دائرة المعارف فى القرن العشرين ، « فقال إن المتكلمين فى إعجاز القرآن قد حصروا كل عنايتهم فى الناحية البلاغية ، ونحن وإن كنا نعتقد أن القرآن قد بلغ الغاية من هذه الوجهة إلا أننا نرى أنها ليست الجهة الوحيدة لإعجازه ، بل ولا هى أكثر جهات الإعجاز تسلطا على النفس فإن البلاغة على الشعور الإنسانى تسلطا محدوداً لا يتعدى حد الإعجاب بالكلام والإقبال عليه ثم يأخذ هذا الإعجاب والإقبال يضعف شيئاً فشيئاً بتكرار سماعه حتى تستأنس به النفس فلا يعود يحدث فيها ما كان يحدثه فى مبدأ ورود عليها ، وليس هذا شأن القرآن فانه قد ثبت أن تكرار تلاوته تزيده تأثيراً فوجب على الناظر فى ذلك أن يبحث عن وجه إعجازه فى مجال آخر » ثم قال « أن العلة فى نظرنا لا تحتاج إلى كثير تأمل وهى أن القرآن روح من أمر الله تعالى ، فهو يؤثر

بهذا الإعتبار تأثير الروح فى الأجساد فيحركها ويتسلط على أهوائها، وأما تأثير الكلام فى الشعور فلا يتعدى سلطانه حـــــد إطرابها والحصول على إعجابها ، وقوله تعالى ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ يكفى وحده فى إرشادنا إلى جهة إعجاز القرآن ، وقصور الإنس والجن عن الاتيان بمثله وبقائه إلى اليوم معجزة خالدة تتلألأ فى نورها الإلهى ، وتتألق فى جمالها القدسى فلا جرم كانت له روحانية خاصة هى عندنا جهة إعجازه ، والسبب الأكبر فى انقطاع الإنس والجن عن محاكاة أقصر سورة من سوره وارتعاد فرائص الصناديد والجبابرة عند سماعه ، وناهيك بروحانية الكلام الآلهى »

إلى أن قال « ولا مشاحة فى أن القرآن فصيح قد أخـــــرس بفصاحته فرسان الخطابة وقادة البلاغة وهو حكيم بهر الفلاسفة وهو حق ألزم كل ضال الحجة وهو هدى وشفاء لما فى الصدور ، وكل هذه صفات جليلة تؤثر فى العقل والشعور والعواطف والميول فتتحكم فيها تحكم المالك فى ملكه ، ولكنه فوق ذلك روح من أمر الله تصل من روح الإنسان إلى حيث لا تصل إليه أشعة البلاغة والبيان ولا سيالات الحكمة والعرفان ، وتسرى من صميم معناه إلى حيث

تنال حظها من الذيوع، إذ خفيت بعض الخفاء على جمهرة الدارسين، وفى الإشارة إليها تحليلا ونقدا ما يقدم الجديد لعشاق الدراسات القرآنية بل ييسر خطوات تالية لمن يريد أن يكمل الشوط إلى نهايته، وكاتبو هذه الصفحات اليسيرة أفذاذ كبارهم موضع الثقة لدى الناس لذلك نخصهم بالحديث .

ونبدأ بالعلامة الكبير المغفور له الأستاذ محمد فريد وجدى فقد تعرض للاعجاز القرآنى فيما كتبه بالجزء السابع من دائرة المعارف فى القرن العشرين ، « فقال إن المتكلمين فى إعجاز القرآن قد حصروا كل عنايتهم فى الناحية البلاغية ، ونحن وإن كنا نعتقد أن القرآن قد بلغ الغاية من هذه الوجهة إلا أننا نرى أنها ليست الجهة الوحيدة لإعجازه ، بل ولا هى أكثر جهات الإعجاز تسلطا على النفس فإن البلاغة على الشعور الإنسانى تسلطا محدوداً لايتعدى حد الإعجاب بالكلام والإقبال عليه ثم يأخذ هذا الإعجاب والإقبال يضعف شيئاً فشيئاً بتكرار سماعه حتى تستأنس به النفس فلايعود يحدث فيها ما كان يحدثه فى مبدأ توارده عليها ، وليس هذا شأن القرآن فانه قد ثبت أن تكرار تلاوته تزيده تأثيراً فوجب على الناظر فى ذلك أن يبحث عن وجه إعجازه فى مجال آخر » ثم قال « أن العلة فى نظرنا لاتحتاج إلى كثير تأمل وهى أن القرآن روح من أمر الله تعالى ، فهو يؤثر

بهذا الإعتبار تأثير الروح فى الأجساد فيحركها ويتسلط على أهوائها، وأما تأثير الكلام فى الشعور فلا يتعدى سلطانه حد إطرابها والحصول على إعجابها ، وقوله تعالى ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ يكفى وحده فى إرشادنا إلى جهة إعجاز القرآن ، وقصور الإنس والجن عن الاتيان بمثله وبقائه إلى اليوم معجزة خالدة تتلألأ فى نورها الإلهى ، وتتألق فى جلالها القدسى فلا جرم كانت له روحانية خاصة هى عندنا جهة إعجازه ، والسبب الأكبر فى انقطاع الإنس والجن عن محاكاة أقصر سورة من سوره وارتعاد فرائص الصناديد والجبابرة عند سماعه ، وناهيك بروحانية الكلام الآلهى .

إلى أن قال « ولا مشاحة فى أن القرآن فصيح قد أخرس بفصاحته فرسان الخطابة وقادة البلاغة وهو حكيم بهر الفلاسفة وهو حق ألزم كل ضال الحجة وهو هدى وشفاء لما فى الصدور ، وكل هذه صفات جليلة تؤثر فى العقل والشعور والعواطف والميول فتتحكم فيها تحكم المالك فى ملكه ، ولكنه فوق ذلك روح من أمر الله تصل من روح الإنسان إلى حيث لا تصل إليه أشعة البلاغة والبيان ولا سيالات الحكمة والعرفان ، وتسرى من صميم معناه إلى حيث

لا يحوم حوله فكر ولا خاطر ، ولا يتخيله خيال شاعر .

هذه الروحانية تظهر جلياً عند ما تكون آية من آياته جاءت على سبيل الاستشهاد والاقتباس فى صفحة كبيرة فإنك ترى تلك تتجلى لك من بين السطور وخلال التراكيب كأنها الشمس فى رائعة النهار مهما كانت درجة تلك الصفحة من البيان ، ومنزلتها من جمال الأسلوب وجزالة الألفاظ » .

هذا بعض ما قاله الأستاذ فريد وجدى ، ومما يمت إلى الأمانة العلمية بأكبر أسبابها أن نذكر أن الباحث المفضال الأستاذ عبد الكريم الخطيب هو الذى نبهنا إلى مراجعة رأى الأستاذ وجدى بدائرة المعارف بعد أن تحدث عنه حديثاً تحليلياً بالجزء الأول من كتابه (إعجاز القرآن) وإن كنا نسلك الآن فى مناقشته مسلكاً غير طريق الأستاذ عبد الكريم الخطيب فنقول :

لقد جعل الأستاذ العلامة محمد فريد وجدى روحانية القرآن سر إعجازه راداً بذلك على من يجعلون إعجاز القرآن فى بلاغته ونظمه وفصاحة أسلوبه ومتعللا بأن الأسلوب البليغ يفقد أثره القوى متى اتصلت تلاوته حتى يصبح فى نظر قارئه المتعهد شيئاً غير ذى جدة ،

ولا كذلك القرآن فإن أثره النفسي يتجدد باتصال قراءاته مهما كثرت تلاوته ، ونحن نتساءل في الرد على ذلك أيمكن أن تظهر روحانية القرآن دون أسلوب بليغ يحملها للناس ؟ فيستحيل علينا بداهة أن نتصور هذا الظهور ، دون كلام يقال ؟ وإذا ثبت أن الأسلوب القرآني هو موضع هذه الروحانية النافذة فقد صارت الشقة قريبة بين من يقولون بالإعجاز البلاغي وبين الأستاذ الكبير إن لم تكن هناك شقة على الإطلاق ! وإذا كانت بلاغة البشر تفقد تأثيرها باستمرار التلاوة دون بلاغة القرآن فلأن الأسلوب القرآني يحمل من وسائل إعجازه ما يرتفع به عن بلاغة البشر وعلينا أن نبحث عن ذلك في مطاوي نظمه وطريقة تعبيره وتصويره ، وكون القرآن روحاً من أمر الله لا يحصر إعجازه البياني في معنى كلي كما يريد الأستاذ بل يدفع الدارس إلى استشفاف هذا الروح فيما يتراءى من قوة أسره ودقة تدليله وبلاغة تصويره ، مما يسيطر على النفوس سيطرة تدفع إلى الإذعان المؤمن والاستسلام البصير ، ولعل الأستاذ وجدى لا يريد أن يحصر الإعجاز القرآني في بلاغته التعبيرية موافقة لمن يرى أن حصر الإعجاز في البلاغة التركيبية يدفعنا لطول النظر إلى اكتناه أسراره والوقوف على دقائقه ، ومتى عرفت هذه الأسرار وجليت تلك الدقائق

أمكنت محاكاته ، وسهلت معارضته فلم يبق وجه لإعجازه ، وهذا كلام براق فى ظاهره ولكنه لدى التدقيق لا ينهض على ساق ، لأن إدراك السر البلاغى فى قول معجز لا يجعل المدرك قادراً على الإتيان بمثل ما أدرك سره وجلا حقيقة وجهه ، والمسألة أوضح من أن يستدل عليها لأننا نرى الناقد الأدبى يدرك أسرار القصيدة الرائعة بيتاً بيتاً وكلمة كلمة ثم لا يستطيع بعد ذلك أن يأتى بمثلها لأنه غير شاعر بطبيعته ، فلو كان الولوج إلى أسرار الجمال فى البيان الأدبى داعياً إلى محاكاته لكان ناقد كبير شاعراً كبيراً أو قصاصاً شهيراً ولكن التذوق النقدى شىء وملكة الإبداع الفنى شىء سواه . . فليكن القرآن ذا روح قوية غالبة ولكن هذه الروح تستكن فى كلمات وآيات وسور وهى موضع الإعجاز .

ونترك أستاذنا العلامة محمد فريد وجدى إلى أستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز حيث أجاد صاحب النبأ العظيم إجادة مبدعة فى رصد الخصائص القرآنية العالية التى جعلت كتاب الله موضـــــع التحدى والإعجاز ، ففتح الله عليه بما نحاول تلخيصه فى روعته وقوته فلا نستطيع فنضطر إلى أن نقتطف منه قبساً يشير إلى نوره الوضىء .

من هذه الخصائص القرآنية (البيان والإجمال) وهما فى رأى الدكتور دراز عجيبة خارقة من عجائب التعبير إذ أن الناس إذا عمدوا إلى تحديد أغراضهم لم تتسع إلى تأويل، وإذا أجملوها ذهبوا إلى الإبهام أو الإلباس أو إلى اللغو الذى لا يفيد، ولا يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان فى كلام واحد، ولكنك تقرأ القطعة من القرآن فتجد فى ألفاظها من الشفوف والملاسة والإحكام والخلو من كل غريب عن الغرض ما يتسابق به مغزاها إلى نفسك دون كد خاطر ولا استعادة حديث، كأنك لا تسمع كلاماً ولغات بل ترى صوراً وحقائق ماثلة وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت به خبراً، ووقفت على معناه محدوداً، هذا ولو رجعت إليه كرة أخرى لرأيتك منه بإزاء معنى جديد غير الذى سبق إلى فهمك أول مرة حتى ترى للجملة الواحدة أو الكلمة الواحدة وجوها عدة كلها صحيح أو محتمل الصحة، كأنما هى فص من الماس يعطيك كل ضلع منه شعاعاً فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها فلا تدرى ماذا تأخذ عينك وما تدع ولعلك لو وكلت النظر فيها إلى غيرك، رأى منها أكثر مما رأيت وهكذا تجد كتاباً مفتوحاً مع الزمان يأخذ كل منه ما يسر له بل ترى محيطاً مترامى الأطراف لا تحده عقول الأفراد

ولا الأجيال ، ألم تر كيف وسع الفرق الإسلامية على اختلاف مذازعها فى الأصول والفروع ، وكيف وسع الآراء العلمية على اختلاف وسائلها فى القديم والحديث وهو على ليده للعقول والأفهام صلب متين ، لا يتناقض ولا يتبدل ، يحتج به كل فريق لرأيه ويدعيه لنفسه وهو فى سموه فوق الجميع يطل على معاركهم حوله ، وكأن لسان حاله يقول لهؤلاء وهؤلاء (قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا).

ومن الخصائص القرآنية التى بسطها الدكتور (إقناع العقل وإمتاع العاطفة) فقد تحدث عنهما حين قال « لقد عرفنا كلام العلماء والحكماء وعرفنا كلام الأدباء والشعراء فما وجدنا من هؤلاء ولا هؤلاء إلا غلوا فى جانب ، وقصوراً فى جانب ، فأما الحكماء فإنما يؤدون إليك ثمار عقولهم غذاء لعقلك ولا تتوجه نفوسهم إلى استهواء نفسك واختلاب عاطفتك فتراهم حين يقدمون إليك حقائق العلوم لا يأبهون لما فيها من جفاف وعرى ونبو عن الطباع . أما الشعراء فإنما يسعون إلى استثارة وجدانك وتحريك أوتار الشعور من نفسك فلا يبالون بما صوروه لك أن يكون غياً أو رشداً ، وأن يكون حقيقة أو تمثيلا فتراهم جادين وهم هازلون يستبكون وإن كانوا لا يبكون ، ويطربون وإن كانوا لا يطربون والشعراء يتبعهم

المفاوون) وكل امرىء حين يفكر فإنما هو فيلسوف صغير ، وكل امرىء حين يحس فإنما هو شاعر صغير ، فهل رأيتم أحداً تتكافأ فيه قوة التفكير وقوة الوجدان وسائر القوى النفسية على سواء ، وإذا كانت الإجابة بالنفي فكيف تطمع من إنسان فى أن يهب لك الطلبتين مما وهو لم يجمعها فى نفسه على سواء ، وما كلام المتكلم إلا صورة الحال الغالبة عليه بين تلك الأحوال .

هذا مقياس تستطيع أن تتبين به كل لسان وحكم أى القوتين كان خاضعاً لها حين قال وكيف ، فإذا رأيته يتجه إلى تقرير حقيقة نظرية أو وصف طريقة عملية قلت هذا ثمرة الفكرة ، وإذا رأيته يعمد إلى تحريض النفس أو تنفيرها وقبضها وبسطها واستثارة كوامن لذاتها وألمها ، قلت هذا ثمرة العاطفة ، وإذا رأيته قد انتقل من أحد هذين الضربين إلى الآخر فتفرغ له بعد ما قضى وطراً من سابقه كما ينتقل من غرض إلى غرض ، عرفت بذلك تعاقب التفكير والشعور على نفسه ، وأما أن أسلوباً واحداً يتجه اتجاهاً واحداً ويجمع فى يديك هذين الطرفين معاً كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة أثماراً وأوراقاً وأزهاراً معاً أو كما يسرى الروح فى الجسد ، والماء فى العود الأخضر فذلك ما لا تظفر به فى كلام بشر ، ولا هو من سنن الله فى النفس الإنسانية ، فمن لك إذن بهذا الكلام الذى يجىء من

الحقيقة البرهانية الصارمة بما يرضى حتى أولئك الفلاسفة المتعمقين ، ومن المتعة الوجدانية الطيبة بما يرضى حتى هؤلاء الشعراء المرحين ، ذلك الله رب العالمين ، فهذا الذى لا يشغله شأن عن شأن ، وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً بلسان ، وأن يمزج الحق والجمال معاً يلتقيان فلا يبغيان ، وأن يخرج من بينهما شراباً خالصاً سائغاً للشاربين ، وهذا هو ما تجده فى كتابه الكريم حيثما توجهت، ألا تراه فى نسجه قصصه وأخباره لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة ، أو لا تراه فى معمعة براهينه وأحكامه لا ينسى حظ القلب من تشويق وترفيق وتحذير وتنفير يبث ذلك فى مطالع آياته ومقاطعها وتضاعيفها ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، وإنه لقول الفصل»

وثالثة هذه الخصائص القرآنية لدى الدكتور دارز هى ما حصره الباحث فى (خطاب العامة والخاصة) إذ هذان الخطابان يمثلان غايتين أخريين متباعدتين عند الناس ، فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذى تخاطب به الأغبياء لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم فى الخطاب ، ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التى تخاطب بها الأذكياء لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم ، فلا غنى لك — إن أردت أن تعطى كلتا الطائفتين حظها كاملا من بيانك —

أن تخاطب كل واحدة منها بغير ما تخاطب به الأخرى ، كما تخاطب الأطفال ، بغير ما تخاطب به الرجال ، فأما أن جملة واحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء . وإلى الأذكياء والأغبياء وإلى السوقة والملوك فيراها كل منهم مقدرة على قياس عقله ، وعلى وفق حاجته فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم ، فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير ، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم لا يلتوى على أفهامهم ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة فهو متعة الخاصة والعامة على السواء ، ميسر لكل من أراده «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر» .

كما أفاض الدكتور في خاصة رابعة قال إنها هي القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى ، فأتى في تحليلها بما عهد عنه من قوة وبراعة وإتقان ، كما لأ كتابه بالاستشهاد الرائع على ما يقول بحيث أصبح (النبأ العظيم) دراسة طريفة مبتكرة ذات مكانة رفيعة في مكتبة القرآن ، وحديثه عن خاصية التأليف الصوتي في القرآن مما فتح الله به عليه وحده إذ أضاء للقارىء بنور صادق يتألق بشعاعه فيهدى القلوب ويفتح العيون ، وهو وجه من الإعجاز نؤثر أن نضيفه إلى الخصائص الأربعة المتقدمة ، ليكتمل رأى الأستاذ في عناصر الإعجاز ، وإلى لأشعر أن حديث الدكتور دارز عن التأليف الصوتي يتضاءل بتلخيصه فلأحيل

القارىء مباشرة إلى الأصل كيلا يفقد أثراً ذا بال من إبداع هذا الباحث الأصيل ...

وقد آن أن نترك صاحب النبأ العظيم لنلتقى بالأديب الكبير المغفور له الأستاذ عبد الله عفيفى حيث خص الإعجاز القرآنى بتحليل شاف فى كتابه (زهرات منثورة فى الأدب العربى) فذكر أن من وجوه هذا الإعجاز تلك القوة الروحية المسيطرة على الحروف والكلمات وهى التى تثير المشاعر وتملك القلوب وأكثر ما تتمثل حين يتحدث ذو الجلال عن ذاته وصفاته وقدرته وقوته ولطفه ورحمته حديثاً كان قوى الأثر فى رياضته العرب واجتذابهم إلى الإسلام وهو وجه لايكاد يخرج مما ذكره الأستاذ فريد وجدى وأظن تعليقنا السالف يصلح أن يوجه للأستاذ عبد الله عفيفى فنحيل إليه دون تطويل ، أما الوجه الثانى لدى الأستاذ فهو الإفاضة التاريخية فيما يجهل العرب من أنباء وهو وجه ذكره السابقون وأطالوا فى ترديده ممايكاد يخرج الأستاذ عفيفى عن ملكيته هذين الوجهين على ما تعرضنا له بالحديث ، ولكنه أفاض إفاضة جيدة فى إثبات وجه ثالث طريف اهتدى إليه مبسطاً محللا ، وصادف موقعه الطيب لدى قارئيه ، فقد ذكر الأستاذ — فى إيضاح رأيه — أن أكثر الكاتبين جعلوا الصياغة الفنية وجه الإعجاز وأنشئوا الكتب الفنية لتوضح السمات

البلاغية للقرآن فيما يتجلى أثره بين اللفظ واللفظ والجملة والجملة وذهبوا إلى الموازنة بين آيات الكتاب الكريم وماوقع على معناها من مأثور البيان العربي منتحلين أسباباً للقول حتى أتى بعضهم بأربعة عشر وجها من وجوه البلاغة في سورة الكوثر وهي لم تعدُ عشر كلمات ، وهذا تكلف سار بالقول على غير سننه ، والكاتب مع يقينه الجزم بأن القرآن راض البلاغة من أسمح أطرافها فبلغ الغاية كل الغاية في تأليف الكلمات وتفصيل الفقرات ، وحلاوة الإيقاع ومناسبة اللفظ للمعنى ، مع يقينه الجازم بذلك لا يرى أن الصياغة الفنية هي وجه الإعجاز ، وإنما يعتمد معها على وجوه أخرى أهمها ما دعاه الأستاذ بمراعاة الأسلوبين المنطقي والعلمي ، وقد أوجز ذلك فقال :

« لم يكن العرب يحسنون من فنون النثر إلا الأسلوب الخطابي الذي يعتمد على التأثير في النفس بالألفاظ الفخم الذي يملأ الآذان ، والأسماء المحببة التي تستثير المشاعر ، والفقرات المردّدة التي تستفز النفوس ولم يكونوا في كثير من الأسلوب المنطقي الذي ينتقل من المقدمات إلى النتائج ، وينفذ من المعلوم إلى المجهول ، أما الأسلوب العلمي الذي تساق فيه الحقائق العلمية من أيسر السبل وأقرب الموارد فذلك لم يكونوا في شيء منه لأن هذا الأسلوب وما سبقه لا يحتاجان إلى قوة لسن ولا روعة فن وإنما يحتاجان إلى نفاذ في العلم ودقة

فى الفهم وقوة فى التفكير ، وكل ذلك كان للعرب فى جاهليتهم بمنجاة منه أو كأنهم كانوا بمنجاة منه ، أما القرآن الكريم فقد واجههم بحديث النفس والمنطق والعلم فى سياق واحد وغرض واحد ومقالة وحدة وساق ذلك فى سلسلة مفرغة الصوغ محكمة الحلقات لا وهى فيها ، ولا انقطاع لها فوقفهم بذلك بين شعاب ثلاثة ، إن سلكوا واحداً التوى عليهم اثنان وما يلتوى عليهم أجلّ وأعظم مما سلكوه ﴾ ثم ضرب الأستاذ الأمثلة على ذلك بنماذج مختلفة نختار منها قول الله فى مفتتح سورة الحج .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنّ عذاب الله شديد . ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ، كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ، يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت

وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور »

وبعد أن بين الأستاذ خصائص الأسلوب الخطابى الذى استقام على الزجر والتنبيه والتهويل والتشبيه والتمثيل وأوضح الصور البلاغية فى الآيات الكريمة قال :

هذا هو الأسلوب الخطابى الذى بلغ الغاية العليا بكل ما فى الخطابة من قوة وتأثير ، فإذا ملأت منه يدك ورويت نفسك فالتفت إلى حديث المنطق والعلم فى قوله جل شأنه : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم ﴾ ، فقد ساق الله تبارك اسمه دليلين لايقبلان الشك فى الوجود بعد العدم ، والحياة بعد الممات ، وفى الحالتين استحال التراب بما فيه من قوة الحياة الكامنة إلى خلق حى يزداد على مـــدى الأيام نموا وسموا ، وتأمل كيف كشف الله حجاب العلم فى قوله تعالى : ﴿ ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ﴾ فهو تباركت قدرته يسقط بعض هذه المضغ من الأرحام ليشرح للإنسان كيف كانت أوليته ، وفى هذه الآيات بسط أدوار التكوين الإنسانى بما لا يمكن للعرب أن يأتوا بمثله لأنه أتى بعلم ما لم يكونوا يعلمون .

ومن الدقة البديعية فى الأسلوب العلمى الذى يخاطب الله به قوماً لا يعلمون ، تعبيره عن تضام ذرات الأرض المتشابهة واختمارها بعد الحرث والبذر والرىّ بقوله ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾ ثم انظر إلى ما وصل إليه المنطق من جمع الأدلة وسياق المدلول ، أو تقديم الأمثلة وتأخير الدعوى فى قوله تعالى بعد أن ساق الدليلين المنطقيين « ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور » .

وانتهى الأستاذ عبد الله عفيفى من ذلك كله إلى قوله :

﴿أليس ذلك وأشباهه مما لا يقبل للعرب به ولا طوق لهم بتحديه لأنه أبعد عن منال أفهامهم ، وغايات عقولهم ، وجهد أسلوبهم فلا هو مما يتداولونه بالفكر ، ولا مما يتناولونه بالعيان ﴾

هذا وجه من وجوه الإعجاز بسطه الأستاذ ليدل على أن دقة الأسلوب المنطقى وجدة الأسلوب العلمى تماوتا مع ما ألف العرب من الأسلوب الخطابى على تقرير هذا الإعجاز وتمكينه ، ولم يسلم رأيه الأستاذ من ناقد يدفعه بما يستدل به ، ولكل وجهة هو موليها ، ذلكم هو الأستاذ الجليل محمود مصطفى مؤرخ الأدب العربى الشهير .

قرأ أستاذنا الكبير محمود مصطفى رحمه الله رأى الأستاذ عبدالله عفيفى فى سر إعجاز القرآن، فنقده بأن العرب كانوا يعرفون الأسلوبين العلى والمنطقى على غير ما ادعى الأستاذ ، واستدل على ذلك بأنهم لو كانوا يجهلون هذين الأسلوبين ولم يألفوا القول فيهما ما كان لهما وقع فى نفوسهم إذ يكونون غافلين عن محاسنهما ومن جهل شيئاً لم يعبأ به ، وإنما يملك إعجاب المرء كل شيء حاوله فكان له فيه بلاء لم يبلغ غاية الكمال ، فهو لا يزال يحاول الوصول إلى هذه الغاية طامعاً فيها حتى إذا رآها تمت على يد غيره ، أسرع إلى الإقرار له بالفضل إن كان منصفاً ، أو اضطر إلى الإذعان حين يبهره جمال ما يتعشق من الفن إذ يراه فى صورة المثل الأعلى لما يريد .

ثم استدل على معرفة العرب بهذين الأسلوبين بخطبة قبيصة بن نعيم حين وفد على امرىء القيس بعد مصرع أبيه فقال فى بعض ما قال :

« إنك فى المحل والقدر من المعرفة بتصرف الدهر وما تحدثه أيامه ، وتنتقل به أحواله بحيث لا تحتاج إلى تذكير من واعظ ، ولا تبصير من مجرب ، ولك من سؤدد منصبك وكرم أعراقك محتد يحتمل ما حمل عليه من إقالة العثرة ورجوع عن الهفوة ، ولا تتجاوز

ومن الدقة البديعية فى الأسلوب العلمى الذى يخاطب الله به قوماً لا يعلمون ، تعبيره عن تضام ذرات الأرض المتشابهة واختمارها بعد الحرث والبذر والرىّ بقوله ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾ ثم انظر إلى ما وصل إليه المنطق من جمع الأدلة وسياق المدلول ، أو تقديم الأمثلة وتأخير الدعوى فى قوله تعالى بعد أن ساق الدليلين المنطقيين « ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور » .

وانتهى الأستاذ عبد الله عفيفى من ذلك كله إلى قوله :

﴿أليس ذلك وأشباهه مما لا يقبل للعرب به ولا طوق لهم بتحديه لأنه أبعد عن منال أفهامهم ، وغايات عقولهم ، وجهد أسلوبهم فلا هو مما يتداولونه بالفكر ، ولا مما يتناولونه بالبيان ﴾

هذا وجه من وجوه الإعجاز بسطه الأستاذ ليدل على أن دقة الأسلوب المنطقى وجدة الأسلوب العلمى تعاونتا مع ما ألف العرب من الأسلوب الخطابى على تقرير هذا الإعجاز وتمكينه ، ولم يسلم رأى الأستاذ من ناقد يدفعه بما يستدل به ، ولكل وجهة هو موليها ، ذلكم هو الأستاذ الجليل محمود مصطفى مؤرخ الأدب العربى الشهير ..

قرأ أستاذنا الكبير محمود مصطفى رحمه الله رأى الأستاذ عبدالله عفيفى فى سر إعجاز القرآن، فنقده بأن العرب كانوا يعرفون الأسلوبين العلى والمنطق على غير ما ادعى الأستاذ ، واستدل على ذلك بأنهم لو كانوا يجهلون هذين الأسلوبين ولم يأتوا القول فيهما ما كان لها وقع فى نفوسهم إذ يكونون غافلين عن محاسنهما ومن جهل شيئاً لم يعبأ به ، وإنما يملك إعجاب المرء كل شيء حاوله فكان له فيه بلاء لم يبلغ غاية الكمال ، فهو لا يزال يحاول الوصول إلى هذه الغاية طامعاً فيها حتى إذا رآها تمت على يد غيره ، أسرع إلى الإقرار له بالفضل إن كان منصفاً ، أو أضطر إلى الإذعان حين يبهره جمال ما يتعشق من الفن إذ يراه فى صورة المثل الأعلى لما يريد .

ثم استدل على معرفة العرب بهذين الأسلوبين بخطبة قبيصة بن نعيم حين وفد على امرىء القيس بعد مصرع أبيه فقال فى بعض ما قال :

« إنك فى المحل والقدر من المعرفة بتصرف الدهر وما تحدثه أيامه ، وتنتقل به أحواله بحيث لا تحتاج إلى تذكير من واعظ ، ولا تبصير من مجرب ، ولك من سؤدد منصبك وكرم أصلك محتد يحتمل ما حمل عليه من إقالة العثرة ورجوع عن الهفوة ، ولا تتجاوز

الهمم إلى غاية إلا رجعت إليك فوجدت عندك من فضيلة الرأى، وبصيرة الفهم وكرم الصفح ما يطول رغباتها ، ويستغرق طلباتها ، وقد كان من الخطب الذى عمت رزيته نزاراً واليمن ولم تخصص به كندة دوننا للشرف البارع الذى كان لحجر ولو كان يفدى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كرائمنا بها على مثله ولكنه مضى به سبيل لا يرجع أخراه على أولاه ولا يلحق أقصاه بأدناه ، فأحمد الحالات عندك أن تعرف الواجب عليك فى إحدى خلال ثلاث ، إما أن اخترت من بنى أسد أشرفها بيتاً ، وأعلاها فى بناء المكرمات صوتاً فقدناه إليك بنسعة تذهب مع شفرات حسامك بباقى قصرته ، فنقول :

رجل امتحن بهالك عزيز فلم يستل سخيمته إلا تمكينه من الانتقام ، أو فداء بما يروح على بنى أسد من نعمها وهى ألوف تجاوز الحسبة ، فكان ذلك فداء رجعت به القضب إلى أجفانها ، لم يردها تسليط الإحن على البرءاء ، وإما أن وادعتنا إلى أن تضع الحوامل فتسدل الأزر ، وتعقد الخمر فوق الرايات » .

ونحن بعد ما سبق من تلخيص نقد الأستاذ والاستدلال عليه فى رأيه ، نرى أن قوله إن العرب كانوا يعرفون الأسلوبين العلمى

والمنطقى إذ لو كانوا يجهلونها ما كانوا يستطيعون موقعهما فى القول ، ترى هذا الكلام لا يستقيم عند النظر الصحيح ، لأن الجديد الطريف لا يرفض بداهة عند ذوى العقول مع الجهل السابق بفحواه ، وقد جاء العصر الحاضر مثلا بأبواب من القول لم تكن مألوفة فى الأدب العربى القديم مثل الشعر التمثيلى فهشت لها العقول ، ورحبت بها أجمل ترحيب وما زالت العقول الناضجة تخترع الجديد المقبول بما ينقض دعوى الأستاذ من الأساس ، أما قوله إن الذى يملك إعجاب المرء هو ما حاول الوصول إليه فعجز حتى رآه على يد غيره ، فليس ضروريا فى كل أمر ، فقد يعجب الإنسان بتحقيق ما استكمل على يد سواه كما يعجب بروعة الشىء الطريف الذى تذوقه واستطعمه دون أن يتصوره من قبل أو تخطر بعض معانيه وتراكيبه على بال ، وكذلك جاء القرآن بأسلوبيه العلمى والمنطقى على نحو غير معهود فبلغ الإعجاز .

ثم إن الأستاذ قد استدل بخطبة واحدة رآها تجمع الأسلوب العلمى والمنطقى ، ولو ذكر الأستاذ أنها تفصح عن الأسلوب المنطقى وحده لوجدنا له بعض التعلة فيما يحكم ، فأين الأسلوب العلمى الذى تتضمنه خطبة قبيصة إذ كان المراد به مقارنا للأسلوب المنطقى ذكر بعض الحقائق العلمية فى نسق أدبى مطرد كما قال الله فيما استشهد به

الأستاذ عفيفى ﴿يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام مانشاء﴾ الخ الآية الكريمة ، فتلك حقائق علمية تعرض عرضاً تصويرياً ، ولا نعنى هنا بالأسلوب العلمى مجرد ذكر القرارات العلمية التى تدون بالتجربة والملاحظة بل طريقة العرض والتناول فى سياق تأثيرى يهدف إلى الإقناع والإمتاع معا وهو ماأفصح عنه القرآن فى كثير من آياته ، وهذا اللون من الأسلوب لا نجد مثاله فى خطبة قبيصة التى استدل بها الأستاذ .

وإذا كان الأسلوب المنطقى بمعناه العام قد ظهر لدى قبيصة فى ترتيب المعانى ، وبسط العذر والتمهيد لقبوله ثم فى التخيير بين أشياء ثلاثة فإن هذه الخطبة وحدها لاتصلح أن تكون مثالا وحيداً يختاره الأستاذ ، إذ أن بها من الزيادات المنحولة مالا يستقيم الاستشهاد به ، فقد كان امرؤ القيس فى نظر بنى أسد جميعاً حين وقوع الكارثة شاباً ماجنا معربداً لا يفيق من سكر أو يقصر عن غواية مجون ولهو ونساء ، فكيف يقوم خطيبهم ليقول عنه « إنك من المعرفة بتصرف الدهر وما تحدثه أيامه وتنتقل به أحواله بحيث لا تحتاج إلى تذكير من واعظ ولا تبصير من مجرب » أو يقول ﴿ ولا تتجاوز

الهمم إلى غاية إلا رجعت إليك فوجدت عندك من فضيلة الرأى وبصيرة الفهم وكرم الصفح ما يطول رغباتها) الخ ما قال فكل تلك من الزيادات التى لا تصدر عن مثل قبيصة فى حريته وصراحته وعربيته الصادقة مهما أجبره الموقف على الكياسة ، فهو زعيم قوم لا يقبلون غير الواضح الصريح ، وإن وجود هذه الزيادات وأمثالها مما يجعل الخطبة غير صالحة للاستشهاد ، وكيف وهى المثل الفريد الذى عول عليه الأستاذ فى نقض آراء صاحبه ، ولم يسعفه البحث بمثال آخر وهو أحد مؤرخى الأدب وأستاذه فى أعرق الجامعات !

الحق أن القرآن قد جاء بجديد من الأسلوبين المنطقى والعلمى على نحو ما قرر الأستاذ عبد الله عفيفى وذلك بعض الأسرار الخاصة بإعجازه ، ونفاذ الأستاذ إلى لباب هذا السر الجديد مما يذكر له بالتقدير والإعجاب ! رحمه الله .

هذا عرض سريع لآراء ثلاثة من كبار الباحثين فى الإعجاز القرآنى أردنا به أن نقول للدارسين أن لدى بعض المعاصرين ما يفيد ويقنع ، وأن الاقتصار على مؤلفات العصور السابقة وحدها فى قضية الإعجاز بتر لسلسلة ذات حلقات ، وما دام كتاب الله هو كتاب العصور جميعها فكل عصر لاحق يتطلب من باحثيه ما يضيف الجديد.

التكلف التطبيقى

وضعت علوم البلاغة بفروعها المختلفة لتهدى الأديب إلى طريقة التعبير الجيد ، وتقدم له من القوانين ما يساعده على الحكم الصحيح لما يقرأ من آثار الأدباء ، وكان المظنون أن تكون هذه القواعد البلاغية وسيلة ارتقاء فى الأدب الإنشائى حيث تقى الأديب من عثرات الركاكة والإسفاف ، كما تكون ميزانا صحيحا للأدب الوصفى حتى يهتدى الناقد بضوئها فيما يصدر عنه من آراء ، ولكن مؤرخ الأدب يرى هذه العلوم قد خدمت ذوى السلائق المطبوعة فى عصور القوة ، فى حين ساعدت على التفاهة الركيكة فى عصور الصنعة المتكلفة ، بحيث أصبحت وكأنها سلاح ذو حدّين .

ففى ميدان الأدب الإنشائى تكالب أصحاب البديع المتكلف على زخرفة التعبير بما ينوء به من أثقال بحيث أصبح اللفظ وحده صاحب السيطرة الموجهة لقلم الأديب إذ يوجه كل همه إلى إصطياد جناس أو طباق أو تورية دون أن يكون لديه من الخواطر الذاتية ما يمد قارئه بإحساس صادق أو فكرة هادفة ، ولكنه النمحل

الشديد يدفعه دفعا إلى أسر المعانى فى سجون الألفاظ ، وهو مرض شكا منه صاحب أسرار البلاغة حين رأى بوادر التكلف فى عصره تلوح متضائلة فاترة ، فكيف لو تأخر به العهد إلى عصور التفاهة الركيكة ، وشاهد سيول الرسائل والمصنفات البديعية تتدفق بالمحسنات الزائفة لتعلن الخواء الذهنى والجمود العاطفى لدى من يظنون أنفسهم أرباب القلم ، لا لشىء سوى أنهم درسوا تعريفات الاستعارة والتشبيه والسجع والجناس ، ووقفوا على أمثلتها الذائعة ، فهبوا يفتعلون فيهبطون

وإذا كان من أنواع البديع ما يعرف بالاقتباس ، وأجمله ما كان مأخوذا من كلام الله وحديث نبيه فإن حذاق الصنعة يجيدونه إذا اهتدوا إلى موضعه الطبيعى من الاستشهاد وإذ ذاك يضىء النص بالعبارة القرآنية إضاءة ترتفع به إلى ما يرغب الكاتب من كمال ، ولكن نفرا من المتكلفين يسوقون الآيات القرآنية مساقا ينبىء عن التكلف فينحدرون بأسلوبهم حيث يريدون الارتفاع إذ يستعملون الشىء فى غير موضعه كمن يضع العقد اللؤلئى على صدر دميمة شوهاء ، فتراه حينئذ لا يضفى عليها قليلا من البهجة بل يجمح برائيها إلى ابتسام التهكم ، ونظرات السخرية ، وأحسن

الإقتباس ما كان موجزا دقيقا مطمئن المكان ، وأهونه ما جر التكلف إليه من الكثرة والتزيد والفضول ، وأذكر أن السيد عبد الله نديم قد نمق رسالة طويلة مسجوعة تعمد أن يجعل فاصلتها الثانية اقتباسا من القرآن الكريم فصدر عن تكلف لا يسعفه الطبع إذ مهد للآيات بما يعتقد أنه يناسبها تمهيدا خرج به عن مقام الاعتدال ومما تكلف به ذلك أن قال « لقد أظهر كل لئيم كبره ، إن فى ذلك لعبرة ، سمعا سمعا فالوشاة إن سعوا لا يعقلوا ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فكيف تشترون منهم القار فى صفة العنبر قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، وكيف تسمع الأحباب لمن نهى منهم وزجر { ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر } عجبت لهم وقد دخلوا دارنا وهم عنها معرضون فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ، وأنت يا زين الدنيا قد بينت لك فعلهم فبما رحمة من الله لنت لهم ، أتراهم يعقلون كلامك أو يفهمون لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون » إلى آخر ما أكد ذهنه فيه من افتعال ما كان أغناه عنه لو رجع إلى منطق بصير .

هذا من الأدب الإنشائى ، أما الأدب الوصفى فقد رماه الولوع بالصنعة ببعض الداء ، إذ وقر لدى بعض الناقدين فى عصور الضعف

أن زخارف البيان وحلى المحسنات هى المطمح المرتقب ، والمطمع المأمول فهبوا يتصيدونها تصيدا فى كل الآثار الأدبية ، وإذا كان الأدب الرفيع — وأنموذجه الأعلى كتاب الله — قد حفل بألوان البيان الصادق عن أصالة مقتدرة ، تجمل صوره وتزين معانيه كما وشى بحلى البديع المطبوع توشية رزينة تزيد إيحاءه ، وتنغم إيقاعه ، فإن نفرا من هؤلاء الناقدين ملئوا فراغهم فى دراسة النصوص القرآنية دراسة تتصيد البديع تصيدا فى كل آية وتتكلف ذلك تكلفا يصد عن الوصول إلى اللباب المستتر من دقائق المعانى ، وقد أفردت لذلك كتب حافلة بلغ أحدها أكثر من اربعمائة صفحة كبيرة تتحدث عن تسعة ومائة نوع من أنواع البديع ، لكل نوع بابه الخاص وهى أبواب تتقارب إلى حد يجيز أن تتداخل ، ومنها ما أصاب موضعه البلاغى فكشف عن أسرار بارعة فى جودة الصياغة وبراعة السرد ، ومنها ما افتعل افتعالا وتكلفت له وجوه القول حتى انتقل بالقارىء إلى مستوى شكلى يعالج القشور ، ونحن نقدر كل جهد يبذل فى دراسة الأسلوب القرآنى ونعلم أن عاطفة الإعجاب قد دفعت كبار الأدباء إلى تسجيل آرائهم الفنية فى النظم القرآنى الساحر ، ولكننا نرى أن تكلف التطبيق البديعى فى النصوص القرآنية يطفىء من لألائها الباهر إذ يحصر

القارىء فى ظلال مصطلحات طال بها العهد ! كما يسدل بعض الأغطية على المعانى السافرة حين يتمحل لها قيودا بديعية متكلفة مما يسمى بالتلفيف والتوهيم والإدماج والإلجاء والتوام والتمزيج والإسجال والتزويد إلى ما ينتهى إلى تسعة ومائة من الأنواع البديعية شرحها ابن أبى الأصبع المصرى فى كتابه (بديع القرآن) فأجاد حينا وتكلف أحيانا ، ولكنه فتح بابا واسعا للتمحل الذهنى فى تحايل البيان القرآنى ، كان من الأوفق ألا يغلو فيه إلى حيث يلفه ضباب كثيف .

إن مظاهر البديع المطبوع فى كتاب الله تشافه المتأمل سافرة دون نقاب ، وهى من الروعة والطبع بحيث تشغل القارىء بصورها البارعة وإيحائها اللامح عن التفكير فى أسمائها البلاغية إذ يتلقى البيان المطبوع مكتملا بفكره وصورته وتعبيره ووشيه ، وله من وسامة معناه ووسامة مبناه ما يملأ فكره ويمتع وجدانه ويعطر روحه فإذا حرص على معرفة الألوان البديعية فهو حرص المتزن الدقيق الذى لا يجعل تصيد المحسنات غاية همه وأقصى مبتغاه ، واقرأ معى إن شئت قول الله عز وجل عن أصحاب الكهف :

« وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ، وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا » اقرأ معى هاتين الآيتين وقل لى بربك ، أما نفذ هذا السحر الخالب من البيان إلى قلبك دون أن تشغل نفسك بألوان البديع فى طلوع الشمس وغروبها وذات الشمال وذات اليمين وفى الهداية والضلال واليقظة والرقود ! وهب أنك جعلت أكبر همك فى التلاوة رصد هذه المحسنات وحدها ، أتكون حينئذ قد فرغت إلى استشفاف الأفكار وتصوير المعانى وإيحاء الكلمات أم تكون قد وقفت عند القشور دون أن تدرك اللباب .

ونكتفى الآن بعرض أنموذجين مختلفين للتطبيق البلاغى على نص واحد من نصوص الذكر الحكيم ، لنرى كيف ولج دارس متعمق إلى روح النص الأدبى فعبر عنه بطريقته الخاصة تعبير من يتذوق الحرف والكلمة والجملة مدركا موقع كل لفظ من أخيه، وموضحا ما يتخيل من النقص لو حذف منه حرف ما كما نرى دارسا آخر قد

حشد قواه الذهنية أمام هـذا النص القرآنى بعينه ليتصيد المحسنات تصيداً مرهقاً إن دل على براعة العالم فقـد أخطأ استشفاف الأديب ، وستجد بعد قراءة هذين الأنموذجين ما يدفعك إلى تفضيل أحدهما على غيره ، أو المساواة بينهما ولن أجبرك على الانحياز معى إلى ما أرتضيه ، فأنت وما تريد .

أما النص القرآنى فقول الله عز وجل فى سورة هود « وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين » وأما الأنموذجان فأحدهما لعبد القاهر الجرجانى فى دلائل الإعجاز ص ٣٦ من الطبعـة الرابعة المنار ، وثانيهما لابن أبى الأصبـع العدوانى فى « بديع القرآن » ص ٣٤٠ من الطبعة الأولى ، وإن كنت أرى أن الـكاتبين معاً قد حصرا جهدهما فى الآية الـكريمة منفردة عما قبلها مع أنها حلقة واحدة من حلقات قصة نبوية تتـكامل بوضعها فى سلسلتها الأدبية بين أخواتها ، ولـكن هذه النظرة الـكلية للأثر الأدبى لم تـكن مما عناه الدارسون فى سالف عهودهم ، وهم بذلك قد تركوا المجال الفسيح لمن يريد أن يسهم بالجديد .

قال عبد القـاهر وهل تشك إذا فـكرت فى قوله تعالى ﴿ وقيل

يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين » فتجلى لك منها الإعجاز ويبهرك الذى ترى وتسمع ، إنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة ، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض وإن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا حيث لاقت الأولى بالثانية بالثالثة بالرابعة وهكذا إلى أن تستقر بها إلى آخرها وأن الفضل تناتج بينها وحصل من مجموعها ، ان شككت فتأمل ، هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها ، وافردت لأدت من الفصاحة ماتؤديه وهى فى مكانها ، قل « ابلعى » واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها ، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها ، وكيف بالشك فى ذلك ، ومعلوم أن مبدأ العظمة فى أن نوديت الأرض ، ثم أمرت ثم كان النداء بيا دون أى نحو يا أيتها الأرض ، ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال ابلعى الماء ثم أن اتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها ، ثم أن قيل وغيض الماء فجاء الفعل على صيغة فعل الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة قادر ، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى ﴿ وقضى الأمر ﴾ ثم ذكر ماهو فائدة هذه الأمور

وهو ﴿استوت على الجودى﴾ ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ثم مقابلة ﴿قيل﴾ فى الخاتمة بـ﴿قيل﴾ فى الفاتحة ، أفترى لشىء من هذه الخصائص التى تملؤك بالإعجاز روعة وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع ، وحروف تتوالى فى النطق أم كل ذلك لما بين معانى الألفاظ من الاتساق العجيب » .

ذكر عبد القاهر هذا التحليل الكاشف لكل لفظ من الآية الكريمة اينتهى إلى قوله « فقد اتضح اتضاحاً لا يدع للشك مجالا أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ولا من حيث هى كلم مفردة ، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ » .

أما الأنموذج الثانى فيحكيه قول ابن أبى الأصبع فى باب الإبداع — ببعض التصرف كيلا يطول الإستشهاد — « وما رأيت ولا رويت فى الكلام المنثور والشعر الموزون كآية من كتاب الله تعالى استخرجت منها أحداً وعشرين ضرباً من البديع وعددها سبع عشرة لفظة وهى قوله تعالى « وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى

وغيض المـاء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين » وتفصيل ماجاء فيها من البديع [هو] المناسبة التامة فى ابلعى وأقلعى والمطابقة اللفظية فى ذكر السماء والأرض ، والاستعارة فى قوله ابلعى وأقلعى للأرض والسماء والمجاز فى قوله ﴿ياسماء﴾ فإن الحقيقة ﴿ويامطر السماء﴾ أقلعى ، والإشارة فى قوله وغيض الماء فإنه سبحانه وتعالى عبر بهاتين اللفظتين عن معان كثيرة ، لأن المـاء لا يغيض حتى يقلع مطر السماء وتبلع الأرض مايخرج من عيون المـاء فينقص الحاصل على وجه الأرض من المـاء والإرداف فى قوله ﴿واستوت على الجودى﴾ والتمثيل فى قوله ﴿وقضى الأمر﴾ ، والتعليل ، لأن غيض المـاء علة الاستواء وصحة التقسيم حين استوعب سبحانه أقسام أحوال المـاء حالة نقصه إذ ليس إلا احتباس ماء السماء واحتقان المـاء الذى ينبع من الأرض وغيض المـاء الحاصل على ظهر الأرض والاحتراس فى قوله وقيل بعداً للقوم الظالمين والانفصال فى قوله ﴿للقوم﴾ بآلة التعريف التى هى للعهد باشارة إلى سابق ، والمساواة لأن لفظ الآية لا يزيد على معناه ولا ينقص ، وحسن النسق فى عطف القضايا بعضها على بعض بأحسن ترتيب وفق وقوعها ، والإيجاز لأنه سبحانه اقتص القصة بلفظها مستوعبة لم يخل منها شىء فى أخصر عبارة بألفاظ غير مطولة ،

والتسهيم لأن من أول الآية إلى قوله الظالمين يقتضي آخرها ، والتهذيب لأن مفردات الألفاظ في غاية الحسن ، وحسن البيان من جهة أن السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام ولا يشكل عليه شيء منه ، والتمكين لأن الفاصلة مستقرة في مكانها ، والانسجام وهو تحدر الكلام بسهولة وعذوبة مع جزالة لفظ كما ينسجم الماء القليل من الهواء وما في مجموع ألفاظ الآية من الإبداع وهو الذي سمي به هذا الباب إذ في كل لفظة بديع أو بديعان لأنها كما تقدم سبع عشرة لفظة تضمنت أحدا وعشرين ضربا من البلاغة سوى ما يتعدد من ضروبها فإن الإستعارة وقعت فيها في موضعين وهما إستعارة الابتلاع والإقلاع فانظر رحمك الله إلى عظمة هذا الكلام ؟ وما انطوى عليه نظمه ، وما تضمنه لفظه لمقداره قدره ، وهذا ما ظهر لي منه على ضعف نظري وقلة مادتي من العلوم وكلال ذهني والله أعلم » .

أرأيت كيف ترا كم التطبيق البلاغي ترا كما يجعل قارئه إذا انشغل بالاصطلاحات يصرفه عن إستشفاف الروح الأدبي الذي يخاطب الشعور ويهدي الإدراك بما جل تصويره ودق معناه ، لقد

دفع ابن أبى الأصبع حرصه البالغ على كثرة التعداد لأنواع البديع أن يذكر منها فيما يذكر حسن البيان والتهذيب والتمكين والانسجام وغيرها مما يوجد فى كل آية من الآيات الكريمة حتى ليجوز لك أن تذكره تلقائيا عند كل آية تخطر على ذهنك، وأمثال هذه الظواهر العامة لا يختص بها نص عن نص ولكن الرغبة فى تراكم التطبيق البلاغى وازدحامه قد أتعبت الرجل ليتولى إتعاب قارئه، وأن نكلفه أكثر من طوقه إذ أنه قد عاش فى عصر السيطرة البديعية، فوقر لديه أن كتاب الله وهو النمط الأعلى للبيان العربى لا تتجلى روعته البلاغية إلا بتعداد فنونه البديعية، وكلما كثرت هذه الفنون فى رأى ابن أبى الأصبع علا مقام النص بلاغة، وطار صيته فصاحة! والأعمال بالنيات، وقد واصل المؤلف جولاته البديعية فى كثير مما عرض له من الآيات فى جد حريص على سرد ما يتكلف سرده من أنواع البديع المتعدد فى رأيه، وتمثل ذلك بما ذكره فى باب الاستدراك والرجوع ص ١٢٠ حيث استشهد بقول الله عز وجل ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة ﴾ ليحكم بأن الآية الكريمة تضمنت أربعة عشر نوعا من البلاغة هى الإيجاز والترشيح والإرداف والتمثيل والمقارنة والاستدراك والإدماج والإيضاح والتهذيب والتعليل والتنكيت

والمساواة وحسن النسق وحسن البيان ، وهو كد مرهق لا يترك غير عناء .

لقد اتجه عبد القاهر إلى تحليل الكلمات لتثبيت رأيه فى بلاغة النظم الفنى للقرآن ، واتجه ابن أبى الأصبع إلى تمداد ما تشم منه رائحة البديع ليجعل كثرته الكاثرة دليل التفوق البيانى فى إعجازه إذ وجد أدباء عصره يهشون لمثل هذا الصنيع ، وهو جهد يأخذ مكانه فى الدراسة التاريخية لتطور الأساليب العربية إنشاء ونقدا دون أن يحتفظ بصلاحيته المعاصرة للاحتذاء ، وإذا كان منحى عبد القاهر الذوق يحتاج الآن إلى تطور يوسع من نظرته ويفسح فى مداه فإن منحى ابن أبى الأصبع قد مثل دوره تاركا السبيل إلى دور جديد .

هل نفسر القرآن علمياً ؟

ليس كثيراً على القرآن الكريم وهو كتاب الإسلام الخالد ومعجزته النادرة أن تتضافر الجهود المخلصة على تفسير إعجازه ، وإيضاح هديه ، وإن مرور الزمن لا يعفى الباحثين فى كل عصر من تبيان آياته ، وتحليل مراميه ، بل إن تقدم العقل الإنسانى مما يزيد فى ضرورة هذا التحليل والبيان على نحو تطمئن إليه البصائر المخلصة ، والضمائر المنصفة ، وإذا كنا نرى النصوص الدينية فى أوربا تؤلف لها المجامع المختلفة من ذوى الثقافات المتعددة ، فيقومون بتوضيح ألغازها وتفسير مضمونها ، كل حسب اختصاصه ومنحاه ، فهذا مؤرخ يستعرض ما جاء فى التوراة والإنجيل من قصص وأنباء ، وذلك طبيب يستنبط من شتى النصوص ما يؤيده تقدم الطب ، وتفوق التشريح ، وذلك اجتماعى يستخلص مما بين يديه قواعد ثابتة لازدهار العمران وانقراضه وارتفاع الأمم وانخفاضها ، حتى تضخمت المكتبة الدينية تضخما لا يمنع مستقبلا من إطراد البحث ، ومواصلة الإستنتاج ، !! إذا كنا نرى ذلك ونقرؤه دارسين متفهمين ، فإننا نرحب بكل مجهود يبذل فى شرح الحقائق القرآنية . وتفسيرها تحت أضواء هادية من التاريخ

والعلم والفلسفة والمنطق ، ونرى كتاب الإسلام فى حاجة دائمة إلى عقول مستنيرة منصفة تستشف أسراره ، وتؤيد إعجازه ، ليتم نور الله فى الآفاق ، فيهلك من هلك عن بينة ويحيا من آمن عن اقتناع .

ونحن الآن فى عصر تقدمت فيه الفتوح العلمية تقدما مدهشا ، ففى كل يوم جديد طارف تحمله انتصارات العقل البشرى ، فتسير به الصحف اليومية مقرظة مادحة ، والمجلات العلمية منصلة شارحة ، وقد تطوع رهط من أولى العلم والثقافة ، فأخذوا يدرسون آيات الكتاب الكونية دراسة هادئة ، ويحاولون أن يستشفوا من خلالها أقباساً وضيئة ، تشير إلى ما جد من مخترع واستحدث من مكتشف ، على حين قام فريق آخر من أولى العلم أيضا يناهض هذا الاتجاه ويحاربه ويرى أن تظل نصوص القرآن بعيدة عما يراد لها من التوجيه والاستدلال ، ولا نريد أن نعجل بالحكم فى هذه القضية الدقيقة ، قبل أن نستعرض أدلة أولئك وهؤلاء . ليطمئن القارىء إلى وجه يرضيه !

يذهب الذين يريدون أن يفسر القرآن الكريم تفسيراً علمياً ، تؤيده النظريات المستحدثة إلى أدلة واضحة محددة ، فهم يرون أن القرآن ليس للعرب فقط حتى يكون إعجازه لاغيا بلسان الفصحاء وحدهم

ويدركه من فهموا أسرار البيان العربي من ذكر وحذف — ووصل وفصل ، ولكنه إعجاز بشرى يشمل الناس كافة من آسيويين وأوربيين وأمريكيين وأفريقيين ، وهؤلاء العجم من غير العرب يستطيعون أن يفهموا نواحيه العلمية والنفسية والاجتماعية ! فلو اقتصر الإعجاز القرآني على الوجه التشريعي أو البلاغي لفات هؤلاء جميعاً أن يروا أقباساً وضيئة من نور الله ، كما أن القرآن ليس خاصاً بجيل واحد من الأجيال ، فنحصر تفسيره فيما يروى عن الصحابة والسلف من أقوال ، ومن حق كل جيل أن يفهم منه ما يمتد إليه بحثه العلمي والنفسي والاجتماعي من استنباط وقياس !! فإذا حاول أبناء القرن العشرين أن يجدوا في بعض آياته تعضيداً لما سطعت به الفتوح العلمية من حقائق ، فإنهم بذلك يزدادون إيماناً ويقيناً ، وهذا كسب كبير للنصوص الدينية في عهد يفيض بالشكوك ويمتلىء بالالحاد !! على أن هؤلاء الملاحدة المتشككين لا يجدون حجة يستطيلون بها على المؤمنين إذا وجدوا الحقائق العلمية تؤيد ما يتشككون فيه من هدى كريم ، فتخرس ألسنتهم أمام الحجج الساطعة ، ويجد كتاب الله له من النظريات الثابتة أسساً تدعمه وأركاناً وطيدة تقوبه وتعليه !!

هذه هي أهم ما يحتج به أنصار التفسير العلمي للقرآن من أقوال

وقد بسطها العالم المتمكن الغيور الأستاذ محمد أحمد الغمراوى غير مرة فى أعداد مختلفة من الرسالة[١] ، وجاء كتابه العلمى النفيس (فى سنن الله الكونية) تطبيقاً عملياً لما يرتئيه ، وقد احتاط احتياطاً مفيداً حين وضع القيود المحكمة لهذا التفسير العلمى فقال نقلا عن الرسالة[٢] « وقبل أن نورد بعض الأمثلة التوضيحية ، يجب أن ننبه إلى أمرين مهمين ، الأول أنه لا ينبغى فى فهم القرآن الكريم أن تعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا قامت القرائن الواضحة تمنع من حقيقة اللفظ ، وتحمل على مجازه ، لأن مخالفة هذه القاعدة الأصلية قد أدى إلى كثير من الخلط فى التفسير .

أما الأمر الثانى فهو أنه ينبغى ألا نفسر كونيات القرآن إلا باليقين الثابت من العلم ، لا بالنظريات ولا بالفروض ، لأن الحقائق هى سبيل التفسير الحق ؛ هى كلمات الله الكونية ينبغى أن يفسر بها نظائرها من كلمات الله القرآنية ، أما الحدسيات والظنيات فهى عرضة للتصحيح والتعديل ، إن لم يكن للابطال فى أى وقت » .

وإذن فهذان قيدان مفيدان وضعهما الأستاذ الغمراوى ليحول

---

(١) الرسالة الأعداد ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ١٤٦ .
(٢) الرسالة العدد ٧٠٥ .

دون الشطط فى التأويل والجموح فى التطبيق، وقد جاء الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغى رضى الله عنه بقيد ثالث نضيفه إليها حين قال: « يجب ألا نجر الآية إلى العلوم كى نفسرها، ولا العلوم إلى الآية كذلك، ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها »[1] ويمكن القارىء أن يأخذ هذا القيد مستشفا من خلال القيدين السابقين إلا أنى آثرت أن أسجله صريحاً واضحاً، ليكمل التوجيه المحتوم لمن يتعرض إلى كتاب الله بتفسير علمى رشيد، فى ضوء هذه التوجيهات الصريحة قطع العلماء من المتفقهين شوطاً حميداً فى تفسير بعض الآيات الكونية والطبية — فضلا عن النفسية والاجتماعية — فجاءوا بما يعجب ويروق مما لا يتطرق إليه التعسف والافتعال وأصبح القارىء المثقف يجد تفسيراً علمياً شافياً لأمثال قول الله تعالى: « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً. ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين » وقوله: « أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى ».

---

(١) مجلة الأزهر المجلد السادس ص ٦٣٥.

وإذا كانت بعض الآيات الكونية لا تزال فى دور التطبيق الصريح فإن أكثر الآيات الطبية قد وجدت من العلم نصيراً مجدداً ، فأصبح من الإعجاز العلمى للقرآن أن نقرأ قول الله عز وجل : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » وقوله : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » وقوله : « ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ، فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن » . وقوله : « فلينظر الإنسان مم خلق؟خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب » ونحو ذلك مما انبسط فيه مجال القول للمتخصصين ، فكان إحدى معجزات القرآن الكريم .

أما الفريق الآخر ممن لا يرون أن نجذب التفسيرات العلمية إلى آيات الكتاب ، فيذهبون إلى أن القرآن قد خاطب العرب أول من خاطب من الناس ، وهم قوم أميون لا يحتاجون فى فهم النصوص الصريحة إلى التغلغل فى العلوم الكونية ، والرياضيات الهندسية ، وقد واجههم القرآن بما فى مقدورهم أن يستوعبوه من الكلام ، فأدى رسالته معهم على أحسن وجه يتاح ، إذ فهموا مبادئه ودرسوا شرائعه دون أن تكون بهم حاجة إلى نظرية علمية ، أو فلسفة كونية فعلى المفسرين أن يفهموا من القرآن ما فهمه العرب الأوائل ، إذ أن

كتاب الله لسان هداية ، ومنار توجيه ، أنزله الله على نبيه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، لا ليتحدث عن أسرار البرق والرعد والمطر والرياح ، ولا ليحدد مواضع الشمس والقمر والنجوم والبحار والجبال .. ثم إن النظريات العلمية فى الكون لا تستقر على حال فقد تثبت القضية الكونية لدى جيل من الأجيال ، حتى تصبح أمراً بدهياً لا يجوز فيه الاختلاف ، ثم يدور الزمن فيجد من النظريات ما يقلب الأولى رأساً على عقب ، فإذا فسرنا القرآن بمقتضى النظر العلمى فإننا نجعله ميداناً للتأويل المتناقض المضطرب حتى ليجوز أن نتخذ من الآية الواحدة دليلا للاثبات فى زمن ، والنفى فى زمن آخر ، ومثل ذلك عبث بالغ يجب أن يتنزه عنه كتاب الله .

ومما جعل الآذان تصغى كثيراً لهذا الفريق أن أناسا ممن لا يجمعون بين النظر الصائب والعلم الصحيح قد دفعهم حب الابتكار إلى تفسير بعض الآيات تفسيراً بدائياً لا يستند إلى دليل ، فحين يظهر مكتشف ما من المكتشفات يسارع هؤلاء السطحيون ، فيقتطعون من كتاب الله ما يوهم صاحب النظر المتسرع أنه يسير مع المكتشف الحديث ، ثم يملئون الصحف هراء بتمحلاتهم الكاذبة ، وافتياتهم المقيت ، ويدعون عند ذلك أن كتاب الله قد أتى إليهم بأسراره ، فهم

قَديُرونَ على أن يستنبطوا منه قضايا العلم الحديث ، وينسون أنهم في تمحلهم الكاذب يخبطون خبط عشواء ! !

تجد أحد هؤلاء يتحدث عن التصوير الشمسي فيستدل بقول الله « ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ، ولو شاء لجعله ساكناً » .

أو يتحدث عن الأثير فيستدل بقول الله : « ثم استوى إلى السماء وهي دخانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً » ، أو يتحدث عن القمر الصناعي فيستدل بقول الله « اقتربت الساعة وانشق القمر » ! أو يلم بآلة التسجيل الهوائي للأصوات فيستشهد بقول الله « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه » أو يشير إلى تحطيم الذرة فيقرأ قول الله « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرُّ مرَّ السحاب » وربما تجرأ هؤلاء الأدعياء فكتبوا المؤلفات المتتابعة تحت عنوان (بين العلم والقرآن) وظنوا أنهم بتسرعهم العاجل يقاربون بين العلم والدين ! ! وأذكر أن فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت قد كتب(١) بالرسالة رداً مسهباً ضافياً يفند به ما ذهب إليه هؤلاء الأدعياء من تعسف مقيت ، فبسط الحجج المقنعة على فساد نظرهم الطائش واستدل بالنقل والعقل على شططهم الكريه ، ثم قال في ختام حديثه : « فلندع للقرآن

---

(١) الرسالة العدد ٤٠٨ سنة ١٩٤١ .

عظمته وجلاله، والخلع عليه قدسيته ومهابته ، ولنعلم أن ماتضمنه من الإشارة إلى أسرار الخلق ، وظواهر الطبيعة ، إنما هو لقصد الحث على التأمل ، والبحث والنظر ليزداد الناس إيمانا مع إيمانهم ، وحسبنا أن القرآن لم يصادم ولن يصادم حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول » .

وكلام الأستاذ الأكبر — كما هو واضح جلى — موجّه إلى من يهجمون على التأويل دون دراسة فاحصة فلا يربطون الآيات بعضها ببعض ، أو يلتفتون إلى أسباب النزول وأسرار البيان أو يحكمون السياق الأسلوبى القرآنى ، بل يندفعون وراء الحدس الظنى والخيال الوهمى ثم يجترئون فيطبقون ويؤولون !! أما من يتقيدون بالنهج الصحيح فى التزام اليقين الثابت من العلم ، والصريح الواضح من الآية دون أدنى تكلف يدعو إلى الاعتساف والشطط ، فما نظن إلا أن الأستاذ الأكبر يوافق سلفه الأستاذ الأكبر المراغى على منحاه فى تفسير ظاهر الآية بالحقيقة العلمية دون تكلف أو افتعال ؛ لأن كتاب الله كما يقول الأستاذ شلتوت « لم يصادم ولن يصادم حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول » هذان رأيان متقابلان وبالنظر إلى أدلة كل رأى على حدة ، نجد أن الذين

ينادون بإبعاد القرآن عن التفسير العلمى مصيبون كل الإصابة ، إذا كان التفسير قائما على الظن الوهمى ، أو التعسف التأويلى ، أما إذا كان مستندا إلى الصريح من القول معتمداً على اليقين الثابت من العلم ، فلا نعدم إطلاقا أن نستضىء بشعاع العلم فى إيضاح حقائق الذكر الحكيم ، وإذا كان القرآن كتاب هداية وإرشاد ، فإن آياته العلمية لاتحول دون هذه الهداية المبتغاة ! بل تؤكدها وتدعو إليها الجاحدين ، أما من يقول : إنه نزل فى أمة أمية لا تعرف النظر العلمى فنحن نردّ عليه بأنه لم ينزل لأمة واحدة أو قرن واحد ، بل لجميع الأمم فى شتى القرون المتعاقبة ليأخذ كل جيل من هديه ما يناسب استعداده الذهنى والنفسى ولن يضير النهر المترقرق أن يرتوى منه غلام ناشىء أو شاب مكتمل ، ولن نجد حجة لمن يدعون تناقض العلم واضطرابه لأننا فى هذا التفسير المرتقب ان نأخذ بغير اليقين الثابت مما صححته الأجيال المتعاقبة دون أن ننكر عليه بالنقض والتفنيد ، وسنتمسك بالقيود الملزمة التى فرضها العلماء على أنفسهم وسجلناها مركزة فى صدر هذا المقال ، وقد التفت المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى إلى هذه الناحية من الإعجاز العلمى ، فأيد ما ذهب إليه العالم التركى مختار باشا فى كتابه « سرائر القرآن » ،

ونقل قدرا منه فى الجزء الثانى من تاريخ أدب العرب[١] ثم قال الرافعى[٢] :

﴿ ولعل متحققا لهذه العلوم الحديثة لوتدبر القرآن الكريم وأحكم النظر فيه ، وكان بحيث لاتعوزه أداة الفهم ولا يلتوى عليه أمر من أمره ، لاستخرج منه إشارات كثيرة تومىء إلى حقائق العلوم وإن لم تبسط انباءها ، وتدل عليها وإن لم تسمها بأسمائها ، بلى ، وإن فى هذه العلوم الحديثة على اختلافها لعونا على تفسير بعض معانى القرآن والكشف عن حقائقه ، وإن فيها لجاما ودربة لمن يتعاطى ذلك ، يحكم بها من الصواب ناحية ، ويحرز من الرأى جانبا ، وهى تفتق له الذهن ، وتواتيه بالمعرفة الصحيحة على ما يأخذ فيه ، وتخرج له البرهان وإن كان فى طبقات الأرض وتنزل عليه الحجة وإن كانت فى طباق السماء ! ! . ﴾ .

ومما يدور حول هذه المعانى ما كتبه الأستاذ الأكبر المراغى

(١) ص ١٢٧ ط سنة ١٩٥٣ .

(٢) ص ١٢٥ ط ٣ سنة ١٩٥٣ .

فى مقدمة كتاب « الإسلام والطب الحديث » لعبد العزيز اسماعيل وكنت أوثر أن أنقل بعض حديثه لولا أنه ليس تحت يدى الآن .

على أن هذه الدعوة المخلصة إلى النظر فى كتاب الله على ضوء من العلم الحديث يجب أن ننتفع انتفاعاً واعيا بما اصطدمت به عند التطبيقات الأولى فى الغابر والحاضر من أخطاء لنحيد عنها فى دورها التطبيقى الجديد ، فنحن نجد أن تفسير الفخر الرازى قد أثقل إثقالا بالآراء الكونية والعلمية التى فاض بها القرن الخامس من الهجرة فجاء فى كثير من صفحاته بعيدا عن الجو القرآنى حتى قال فيه بعض الباحثين : إنه يجمع كل شىء غير القرآن ! ! وأنا أعتقد أن الرازى قد كتبه لخاصة تلاميذه فأخذ اتجاها خاصا دون ازدهاره بالقياس إلى غيره . على جودة حكمه وصائب رأيه ، كما نجد أن المسألة قد كررت فى صورة مكبرة مجوفة حين جاء الأستاذ طنطاوى جوهرى — فملأ تفسيره الضخم بمئات المسائل العلمية التى تتحدث عن مظاهر الكون حديث الكيمائى والطبيعى والفلكى والجغرافى والنباتى ، فهو ينتهز كلمة عابرة كالرعد أو الأرض أو النحل أو النمل ليفيض فى دقائق علمية تعرض خواص هذه الأشياء دون أن تدعو إليها حاجة التفسير المعقول للكتاب الكريم ! ، وقد انتقده صاحب المنار السيد محمد رشيد رضا تلميحاً

فى مقدمة الجزء الأول من التفسير ، وتصريحًا فى مجلة المنار[1] حيث يقول عنه من حديث طويل : « ثم توسع المؤلف فى هذا التفسير الذى يرجو أن يجذب طلاب فهم القرآن إلى العلم ، ومحبى العلم إلى هدى القرآن فى الجملة ، والإقناع بأنه يحث على العلم لا كما يدعى الجامدون من تحريمه له ، أو صده عنه ، فهو لم يعن ببيان معانى الآيات كلها ، وما فيها من الهدى والأحكام بقدر ما عنى من سرد المسائل العلمية وأسرار الكون وعجائبه ، ولا يمكن أن يقال : إن كل ما أورده فيه يصح أن يسمى تفسيرا له ، ولا أنه مراد الله تعالى من آياته ، وما أظن أنه هو يعتقد هذا » اهـ وإن ما وجه إلى المتبحرين فى مسائل الفلسفة والعلم لأدنى مناسبة واهية كالفخر الرازى والشيخ طنطاوى جوهرى من ناحية ، وإلى المتكلفين أوجه التأويل عن طريق الكناية والمجاز من ناحية ثانية ، ليدعونا دعوة صادقة إلى أن نتجنب كل خطأ وقع فيه أولئك وهؤلاء حتى يكون التفسير المنتظر صائب النظر صادق الإقناع ، فيشفى النفوس المريضة ويرشد الأبصار الحائرة ويدعو إلى صراط مستقيم .

---

(١) مجلة المنار شعبان سنة ١٣٤٨ هـ

فهرس



المشرف العام على سلسلة البحوث الإسلامية ومطبوعات

مجمع البحوث الإسلامية م

فاروق محمد السيد غنام